سلسلة البيان 10
باشراف أ.د علي جمعة

حكاية الإرهاب

تأليف
أ.د علي جمعة
عضو هيئة كبار العلماء

النهار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

حكاية الإرهاب

الإخوان المسلمين وجذور التطرف

لشركة النهار

للإنتاج والنشر والتوزيع

7 شارع الجمهورية . عابدين . القاهرة

جمهورية مصر العربية

ت: 01004093521 (+202)

01147208173 (+202)

الطبعة الأولى

1438هـ - 2017م

رقم الإيداع: 2017/15132

الترقيم الدولي I.S.B.N.

978-977-5679-70-3

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

محمد، علي جمعة

سلسلة البيان (6)

حكاية الإرهاب/ علي جمعة محمد عبد الوهاب

ط1-القاهرة: دار النهار للنشر والتوزيع، 2017.

تدمك : 978-977-5679-70-3

1- التطرف والإرهاب.

2 – الإخوان المسلمون.

3 – حسن البنا وسيد قطب

حكاية الإرهاب

تأليف

أ.د علي جمعة

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، إن العالم الإسلامي بل العالم الإنساني كله ابتلي في هذا الزمان بانتشار جماعات من التكفيريين، وسطوة فرق من الإرهابيين أساءوا للدين الإسلامي وشوهوا صورته في العالمين، بالكذب والبهتان والمغالطات التي ابتدعوها وروجوا لها، وراحوا يسفكون الدماء ويعملون القتل والتقتيل في عباد الله، وهؤلاء هم ورثة الخوارج الذين حذرنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدعهم وعدوانهم، وقد توعدهم بأنهم من أهل الجحيم، حيث قال: "**الْخَوَارِجُ هُمْ كِلَابُ النَّارِ**".[1]

وذلك لأنهم اتبعوا سنن المنافقين حيث إنهم يظهرون الطاعات، ويبطنون ما لا يرضي الله ورسوله من أحقاد وأطماع، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: 108]

وفي مقدمة هذا الكتاب الذي بين أيدينا نُعَرِّفُ القارئ الكريم بالمحاور الفكرية التي يدور حولها فكر الجماعات المتطرفة والإرهابية؛ ليكون ذلك معيارا يمكنهم من التعرف والكشف عن التوجهات المنحرفة والمتطرفة في فكر أبنائهم أو إخوانهم أو تلامذتهم،

---

1 - رواية الأعمش عن ابن أبي أوفى : سنن ابن ماجه: 61/1، رقم (173)، ومسند أحمد: 355/4، رقم (19153)، ومصنف ابن أبي شيبة: 553/7، رقم (37884).وكذلك رواه أحمد والحاكم في المستدرك والطيالسي في مسنده من طريق سَعِيد بْن جُمْهَانَ عن عبد الله بن أبي أوفى.

ورواية أبي أمامة: سنن الترمذي: 226/5، رقم (3000)، وكذا أحمد والطبراني من طريق أبي غالب، ولأحمد رواية من طريق صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْم عن أبي أمامة. وكذلك عن سَيَّار عن أبي أمامة. وللطبراني في المعجم الكبير 270/8، رقم (8042) بلفظ آخر: "الخوارج كلاب أهل النار". وهو صحيح الإسناد]

وهذه المحاور عبارة عن مجموعة من المكونات الشكلية أو السلوكية أو الشخصية أو المعرفية التي تظهر على صاحب الهوى الذي يجنح هواه إلى الانحراف والتطرف في بداية الطريق ونهايته، وذلك لنتعرف على المشكلة في مهدها ونسعى في حلها واستدراك عواقبها.

أولا : المكونات الفكرية الشكلية

وهذه المكونات تتركز حول عشر من القضايا :

المكون الأول: أن حكام العالم الإسلامي جميعهم عملاء للاستعمار الغربي وخونة لشعوبهم الإسلامية، وهم يحكمون دولهم من أجل تحقيق مصالح الغرب ومن أجل تنفيذ مؤامرة صليبية تسعى للتبشير بين المسلمين.

المكون الثاني: أن حكام المسلمين وكذلك الشعوب رضيت بإسرائيل، وسلمت لها بيت المقدس، وأن الحكام يتبعون المؤامرة الصهيونية في تحقيق حلم إسرائيل في هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل مكانه، وكذلك تأسيس دولة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات.

المكون الثالث: أن حكام دول الإسلام ضد الوحدة بين البلاد العربية ثم الإسلامية.

المكون الرابع: أن بلاد الإسلام غاب عنها أو انعدمت فيها العدالة الاجتماعية والمساواة، ويقوم حكامها بنهب الثروات واحتكارها وتعذيب المسلمين واضطهادهم والتضييق عليهم.

المكون الخامس: تكفير المجتمع لخروجه عن الحاكمية الإلهية، حيث زعموا أن دول الإسلام تحكم بغير ما أنزل الله، وأن الشعوب والحكام إذ رضوا بذلك في قوانينهم وأعرافهم الاجتماعية فقد كفروا بشريعة الله .

المكون السادس: أن الدول الإسلامية أو حكامها يرفضون الخلافة ويقفون أمام إعادتها للوجود مرة أخرى

المكون السابع: الاعتقاد بأنهم هم المجاهدون في سبيل الله، وأن بقية المسلمين حكاما ومحكومين فرطوا في فريضة الله وذروة سنام الإسلام.

المكون الثامن: إفسادهم لعقيدة التوحيدبتقسيم التوحيد إلى أقسامٍ ثلاثة: ألوهية وربوبية وصفات، وكانت تلك الخطوة الأولى في تكفير عامة المسلمين، وتصنيف الناس بالعرض على هذا التقسيم، وإقامة الولاء والبراء تبعا لذلك، وهذا المثلث التوحيدي الموازي ابتدعه وقال به ابن تيمية، فصار بابا لخروج المسلمين من دينهم.

المكون التاسع : بدعة النُّصرة والتمكين؛ وهذه البدعة جعلتهم يرون ضرورة الاصطدام مع الأمم جميعها والحضارات كلها، ظنا بأن الله وعدهم بالنصر على الخلق أجمعين، لأحقيتهم بذلك.

المكون العاشر: أنهم أحق بحكم بلاد الإسلام لإقامة سلطان الله في الأرض، وتحكيم شريعته الغائبة، بزعمهم، فهم القادة والمجاهدون، وليس كبقية المسلمين يصح كونهم رعايا أو محكومين.

ثانيا: سمات التكوين المعرفية:

1 – إنكارهم المذهبية. وفيه إنكار التعدد في الفكر والفهم والتطبيق لأحكام الشريعة، وادعاؤهم أنها تأتي على صورة واحدة مما أوقعهم في كثير من التضارب والمنافرة مع الفقهاء المجتهدين.

2 – فتح باب الفتوى والاجتهاد للعوام. وفيه أطلقوا يد العوام لتهجم على نصوص الشريعة بغير وعي ولا علم تعبث بالقواعد البدهية في الفهم والمنطق واللغة، مما أفسد الأحكام وجعلها غير متفقة مع المصالح والعقل والمنطق.

والمتطرف أيضا لا يدرك النص جيدا، ولا يحيط بالمقاصد، ولا يفرق بين القطعي والظني ، ولا يفرق بين الشاذ والإجماع ، ولا يدرك حقيقة الواقع ولا المآلات التي يؤول إليها الأمر، ولا يعرف ترتيبا للأولويات في حياة الناس ومعاشهم، ولا يسعى للمصالح . وهذه سمات ملازمة لهذا الفكر.

3 – إهمال اللغة. إن اللغة علم وفيه صعوبة ويحتاج إلى جهد في تحصيله، ومن باب استسهال الأمر وترغيب الكسالى والجهلاء في اتباعهم والتلبس بزي العلماء قللوا من قيمة اللغة وأهميتها في فهم النصوص الشرعية.

4 – إنكار التصوف. والتصوف يقوم على مجاهدة النفس وضبط الشهوات وتزكية الروح وضبط السلوك بضوابط الخلق والقيم، وحيث يرغب هؤلاء المتنطعون في اتخاذ الدين هيئة وصورة شكلية لم يأخذوا منه إلا رسمه، بل وأنكروا أهميته في تقويم النفس والسلوك.

5 – إنكار الدولة. وهذا لون من الخروج والتفلت على كل سلطة بادعاء أنهم يهبون السلطة للواحد الأحد، ولا يدرون أو يتعمدون إنكار أن الله بنصوص كتابه قد جعل لأولي الأمر سلطانا، به يقيدون المباح ، وبه يضبطون أمور الناس ويوحدون كلمتهم، ومن هنا جاءت الفرقة والتشرذم في جماعاتهم، واتخذ كل منهم رئيسا وأميرا، من حيث دعوا الناس للتحرر والحرية وما هو إلا التفلت والتميز على سواد المسلمين وجماعتهم.

6 – إنكار معنى المواطنة، وما يترتب عليه من مساواة بين أبناء الوطن الواحد في الحقوق والواجبات أمام القانون، ولقد حارب المتطرفون فكرة الوطن ادعاء منهم أنهم يتبعون الأمة، وما الوطن إلا جزءا من الأمة، وإنكاره والتعدي عليه هو ابتعاد عن الأمة وتحطيم لكيانها، فهم قوم ضلوا من حيث يحسبون أنهم مهتدون، وتبع ذلك التعدي على خلق الله من غير المسلمين أو ممن كفروهم وأخرجوهم عن دائرة الدين ظلما وعدوانا وحكموا عليهم بالردة، لمجرد المخالفة في الفهم والفكر والتطبيق.

7 – تعظيم الدين الموازي. وفيه أنشأ هؤلاء المتنطعون لأتباعهم دينا موازيا، لا يرضون بدين الإسلام ومذهبه الحق الذي سار عليه علماء الدين وعامتهم عبر التاريخ، وأوهموا الناس أنهم يأتون بدين جديد مختلف عما درج عليه الخلق، يحيون به دين الصحابة والسلف، وهم كذبة ، وما الدين إلا الإسلام وما الدين إلا ما سار عليه خلف الأمة متبعون لسلفهم ولم يحيدوا عنه وإنما اجتهد كل جيل في فهمه وتطبيقه حسب مقتضيات العصر.

8 – سعيهم ووعيهم مبني على نظرية الهرم المقلوب. وفيه جعلوا سفاسف الأمور عظائم، وجعلوا رأس الشريعة فرعا وفرعها رأسها، فأقاموا الولاء والبراء على النقاب واللحية وغير ذلك، فدخل ناس الإسلام بنظرهم وخرج آخرون، وقد جعل سبحانه وتعالى لشعب الشريعة أعلى وأسفل وجعل للمحرمات كبيرا ولمما، فأعلاها كلمة التوحيد لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والكبائر على رأسها القتل وسفك الدماء. وهو ما وقعوا فيه. واللمم هو ما كفروا الناس بالوقوع فيه.

9 – أوضاعهم تتدهور جيلا بعد جيل حسب نظرية الأجيال المتتالية. وهي فكرة أن أجيالهم تتمادى في الغي والضلال ويبنون تيها من ورائه تيه، يدخلون الناس فيه ويفرقونهم ويستحلون دماءهم وأموالهم، فتأتي الأجيال من بعدهم موغلين أكثر في الضلال، وتركيب دين مواز يبتعد أكثر فأكثر عن جماعة المسلمين وسوادهم.

10 – تكفير المسلمين: اعتمد المتطرفون فكرة الردة يحكمون على المسلمين بالكفر عبر التاريخ فلم يسلم منهم عالم ولا ولي، وذلك حتى يزينوا في عقول أتباعهم العنف وحل الدماء.

ثالثا: الأمراض السلوكية.

1 – العنف واستباحة الدماء التي حرمها الله ، والاصطدام مع العالمين.

2 – الصد عن سبيل الله بعلم وبغير علم .

3 – تشويه صورة الإسلام. حيث كانوا أسوأ دعاة وشر سفراء ينتسبون للإسلام.

4 – ضياع مصالح المسلمين. حيث تفككت دول وانهارت حضارات بسبب طغيانهم وخروجهم على كل نظام ودين.

5 – الفشل المتتالي . وفيه أنهم لم يتوقفوا عند حد ، فقد انكشف فشلهم وانكشف خسوفهم ولكنهم يتمادون في الغي والفساد.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: 204-205]

6 – تهديد المجتمعات البشرية بنشر الحروب وذهاب الأمن والأمان والاستقرار من العالم كله.

7 – التعالى على خلق الله الذين يخطئون ويذنبون، باعتبار أن المتطرف معصوم لا يقع في الخطيئة أبدا، ويحبون التمايز عن الناس والرياسة عليهم، ومن ثم يفتعلون المخالفات والاختلافات في المظهر والأفعال.

8 – يحتقرون المرأة ويهينونها، سواء كانت أختا أو أما أو زوجة أو بنتا،فهي خلقت في نظرهم للخدمة والخلفة، ليس كائنا سويا مساويا للرجل.

9 – الهروب من المسئولية، وعدم الصبر في تحملها والثبات في مواجهة العمل والاجتهاد، فهو دائما يرمون الأحمال على الآخرين ويتكلون عليهم في أمور معاشهم وإعالتهم، ولا يبالون بضياع أسرهم أو تفسخها تحت وطأة الحاجة والعوز ، ولا يبالون بفشل الأبناء وتفلتهم من التعليم .

10 – كثرة التقلبات في المزاج والهوى، فترى قد تحول من شخص ملحد ينكر الدين بالكلية ويرتكب كل الموبقات والفواسق إلى ملتح ذي جلباب يفسق الناس

ويحكم عليهم بالكفر لمجرد أنهم يتكاسلون عن الصلاة في المسجد أو ما شابه، ثم إن تعرض للبلاء تجده يرتد مرة أخرى لما كان عليه، فهم يتسمون بعدم الثبات وكثرة التحولات ربما داخل نفس النطاق ولكن بتطرف فيه، وربما بالانحراف بالكلية عن الدين إلى فكر آخر.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج: 11]

رابعا: سماتهم الشخصية : العقلية ، النفسية.

1 – أحادية التفكير. ورفض الحوار والتعدد ورفض الحجج والمسالك والفهم.

2 – إنكار البدائه ومحاربة العقل ونقض المنطق ومعاندة المنهج والحياد عن الدليل.

3 – النصية والانتقائية. حيث تشبثوا بآحاد النصوص وأجزائها وانتقوا لأتباعهم ما يتوافق مع أهوائهم، وتركوا الفهم الكلي للنصوص واتباع مقاصدها وحكمتها التشريعية.

قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [البقرة: 85]

4 – اتباع الظنون والأوهام وتعميق العقلية الخيالية البعيدة والهاجرة للواقع المعاصر المعيش. فقد حكموا على الناس بمجرد الظن والهوى، وطلبوا من أتباعهم العيش في واقع غير واقعهم وهذا على عكس مراد الشريعة، فالإسلام قد أمر بممارسة الواقع والتفاعل معه والاندماج مع أهله والتعارف بينهم، ولكن بقيم الإسلام ومبادئه، فالإسلام وضع منهجا وأحكاما، هم يزينون للناس عيش الأوائل مع ترك قيمهم ومناهجهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: 28]

5 – ازدراء العلم والتجاهل على العلماء وتحقيرهم، فالتحق بالمتطرفين كل جاهل : باللغة ، بالواقع ، بالمصالح ، بالمقاصد ، بالمآلات .

6 – ترسيخ الكراهية لكل شيء وهدم كل مقدس وكل قيمة قدرها الناس وعظموها حسب أوامر الشريعة، فقد صوروا لأتباعهم أن توحيد الله بالربوبية والألوهية يقتضي كراهية ما عداه وتحقير ما دونه ونبذ الخلق ...وهكذا، وهذا خبل وتجني، فإن توحيد الله لا يتعارض أبدا مع تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وتقديس مقامه والتأدب معه والتوسل به والتبرك بآثاره، وكذا الأولياء الطاهرين وكذا تعظيم كل ما عظم الله ، وتعظيم كل ما أدى إلى محبة الله .

7 – فقد السند. ضاع من هؤلاء المبطلين . الذين يدعون اتباعا لا ابتداعا والذين ينسبون أنفسهم إلى السلف . السند، والإسناد هو ميزة أمة الإسلام وهو الذي وثق نصوصهم الشرعية وهو الذي حافظ على وحدتهم وترابطهم جيلا بعد جيل، ولكن هؤلاء النابتة الذين ظهروا من غير أصل لهم يستندون إليه وينقلون عنه ويأخذون منه ، هجروا الإسناد وتجاهلوه.

8 – فقد البركة. فصارت حياة الناس . حسب وجهتهم . مادية صرفة ، وافتقدت للزيادة الروحية وفقدت السكينة التي كانت تروج في ظلها الماديات، كالطعام والشراب والخيرات وغير ذلك .

قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: 96]

9 – اتخذوا من الوسائل الشريفة النافعة سبيلا لتحقيق غاياتهم الخبيثة، فاتخذوا من الكُتَّاب والمسجد والنشاط الاجتماعي التكافلي والنقابات العمالية والفضاء الإلكتروني؛ وسائل لترويج أفكارهم الهدامة ومناهجهم الفاسدة لعموم الخلق.

10 – الاهتمام الشديد بالشكليات والمظاهر، والتمسك المتطرف المبالغ فيه بالفروع ، فصورة المسلم الصالح كما يروجونها للناس هو من يسكن الصحاري والجبال ويحمل السلاح ويلبس الجلباب ويقصره ويطيل لحيته ويأكل بيده ويقضي حاجته في الخلاء وهكذا...

وفي هذا الكتاب الذي بين أيدينا "حكاية الإرهاب" سعينا لاستعراض بعض الأحداث من تاريخنا المعاصر والتي رأينا أنها تكشف حكاية هذا الإرهاب الذي نراه منتشرا في عالمنا الآن، وبتحليلها نبين كيف بدأ الإرهاب من ناحية التاريخ والسياسة ومن ناحية الفكر والثقافة، وكيف نمى وكيف تتطور، حتى صارت الأجيال المتتالية تفعل ما تنسبه كذبا لدين الله من ذبح وتفجير واعتداء على خلق الله .

نبين فيه كيف فكر حسن البنا في تكوين جماعته ثم تنظيمه السري، وكيف انتقل بتلك الجماعة من مرحلة المأثورات إلى مرحلة الفتنة والانحراف بشهوة الحكم والسلطان، وأتبعنا ذلك بحكاية سيد قطب وكيف انتقل من أديب وشاعر إلى عضو في جماعة الإخوان ثم إلى قائد تنظيم إرهابي وتكفيري، ثم عرضنا للجماعات الضالة التي اتخذت من شخصه وفكره نبراسا ضلت بضلاله وعميت بفكره.

ونختم بقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ **[النور: 63]**

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل

أ.د علي جمعة

عضو هيئة كبار العلماء

الفصل الأول

تجارب النهضة المصرية (كيف تنهض الأمة)

ذلك هو السُّؤالُ الذي ينبغي أن يُسأل، كيف تنهض الأمة، وما هي حقيقة النَّهضةِ، تلكَ الكلمةُ التي أساء الخوارج استعمالها ووضعوها في غير محلِّها، وظنوا بذلك أنهم يُحقِّقونَ معناها، وأنى لهم ذلك وهُم لا يعرفون الكيفيَّةَ ولا يدرونَ الآليَّةَ الَّتي ينبغي أن تُتَّبعَ في تحقيقِ تلكَ النَّهضةِ؟!

فالنَّهضةُ في حقيقةِ الأمر تعتمدُ في تحقيقِها على أسسٍ وضَّحها مَن سَبقَنا من العلماءِ في أزمنةٍ ليستْ بعيدةً عنا، هذه الأسسُ هي الَّتي ينضبط بها المنهج العلميّ؛ وهي أولا: اللغةُ وكونُها وعاءً للفكرِ، وثانيا التَّوثيقُ أو الموثوقيَّةُ في كلِّ ما يُنقلُ أو يُقالُ، وقد أبدع علماء الإسلام السند والمحافظة عليه وضبطه من أجل ذلك، فصار السند سمة لأمتنا، والأساسُ الثَّالث هُو منظومةُ الأخلاقِ التي ينبغي أن تتحلَّى بها كلُّ أمةٍ مِنَ الأممِ، وما تَحويه تلك المنظومةُ من تخليةٍ وتحليةٍ للنفسِ الإنسانيَّةِ، وهذه الأسسُ الثَّلاثةُ هي أهمُّ مُقوماتِ النَّهضةِ التي ينبغي أن يسعى إليها جميعُ أفرادِ المجتمعِ.

ويضاف إلى تلك الأسسِ التي قرَّرها علماؤنا في القرون الماضيةِ، سعيُ رجال الفِكرِ والقانونِ في مطلع القرن التَّاسع عشرَ، واجتهادُهم في محاولةِ تطويع حياة الناس والقوانين الضابطة لحركتهم في الحياة إلى الشريعة الإسلامية؛ وذلك كي يكونوا على الطَّريقِ الصَّحيحةِ، وأيضًا كي لا يأتي آتٍ يَزعمُ أنَّهم خرجُوا على صحيحِ النصوص الدينية أو صريح الأحكام الإسلامية؛ فخرج العلماء في بعثاتٌ علميَّةٌ إلى الخارج وعملوا على تطوير القوانينِ وفقَ ما تنصُّ عليه المذاهبُ الفقهيَّةُ، واجتهدوا في نقل العلوم النافعة وسعوا في تحقيق نهضة حقيقيَّةٍ تنهضُ بها البلادُ والعبادُ كي يُرجعوا الأمةَ إلى مكانتِها، ويَستعيدُوا طَرَفًا من مجدِها، وهي جهودٌ تعبِّرُ عن فِكرٍ عظيمٍ وسعةِ أفقٍ شَمِلَتْ كثيرًا من جوانبِ حياتِنا في ذلك الوقت.

ونحنُ في هذا الإطارِ نتكلَّمُ، وفي هذا السبيلِ نتحدَّثُ، ونريدُ أن نبيِّنَ ونوضِّحَ ونُزيحَ السِّتارَ عن الكيفيَّةِ التي قام بها علماؤُنا المسلمونَ في سبيل النهضة، في الفترةُ التي هاجمتنا فيها الحملةِ الفرنسيَّة، وحاولت طمسَ معالم الأمة في كل شيءٍ، فنودُّ أن نُلقي نظرةً تاريخيَّةً على هذا الأمرِ.

***

المبحث الأول

مشاريع النهضة الحضارية في القرن التاسع عشر الميلادي

إن كثيرا من المفكرين يستعملون مصطلحي الإصلاح والتجديد وكأنهما بمعنى واحد، وليس الأمر كذلك فإني أرى أنهما مختلفان، فالإصلاح مشروع يفترض خطأ وقع في الماضي وأتى ذلك المشروع ليرده إلى الصواب، ويصحح خطأه، في حين نجد التجديد مشروعا يرى أنه لا بد من التغيير فيما سبقه لما التمسه من تغيير في الجهات الأربع وهي الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، أو في بعضها أو في كلها، وهو بذلك مشروع يفترض أن السابقين قد قاموا بواجب وقتهم. ومع كامل الاحترام لهم. إلا أننا في حاجة إلى أن نسير كما ساروا وأن نستفيد بمناهجهم وألا نقف عند قضاياهم التي ارتبطت بطرفهم الزماني وبأحوال عصرهم.

ولقد عرف التاريخ المعاصر كلا من المشروعين: مشروع الإصلاح ومشروع التجديد. ونلحظ ذلك عند قراءة تاريخ العلوم بكافة فروعها، فإننا نرى فيها تطورا واتساع معرفة وارتفاع السقف المعرفي مع أن كل نظرية أو حقيقة لا تكر على ما قبلها بالبطلان بقدر ما تضيف إليها من مجال معرفي أوسع، ومع ذلك فإننا نرى أيضا في تراثنا تصحيحات لأخطاء تعلقت بالظاهر أو لخرافات نتجت من رأي خاطئ أو من عقيدة منحرفة.

ولقد شهد المجال الديني كلا من المشروعين الإصلاح والتجديد، ويهمنا أن نلقي بعض الضوء على ما حدث في القرنين التاسع عشر والعشرين من مشاريع الإصلاح والتجديد.

وقبل الخوض فيما عزمنا عليه وجب أن نبين أن المشاريع الفكرية قد تشتمل على الأمرين معا، وبنسب متفاوتة ومختلفة، فيجتمع جانب من المشروع يتعلق بالإصلاح وآخر يتعلق بالتجديد.

المطلب الأول

مشروع عبد القادر البغدادي

عبد القادر بن عمر البغدادي ، ولد عام (1030هـ . 1620م) ببغداد، ثم رحل إلى دمشق ومصر وأدرنة، وأتقن اللغتين التركية والفارسية، وتوفي في (1093هـ. 1682م)

وأشهر مؤلفاته :

1. "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب" طبع في 4 أجزاء في بولاق سنة 1299هـ، ثم طبع في مكتبة الخانجي بتحقيق عبد السلام محمد هارون، في ثلاثة عشر مجلدا.

وهو موسوعة في علوم العربية وآدابها، يشرح فيه البغدادي شواهد الشيخ الرضي في شرحه لكافية ابن الحاجب في النحو. وقد اشتمل شرح الرضي على 957 شاهدا من شواهد النحو. وترجم البغدادي لـ 240 شاعراً منهم ثلاث شواعر، انحصروا في الفترة بين الجاهلية ونهاية القرن الثاني، باستثناء أبي حية النميري المتوفى سنة 210هـ، ولم يلتفت في كتابه إلى الشعر الذي لا يعرف قائله، الأمر الذي كلفه عناء شديدا في توثيق ما يرد ضمن الأخبار من الأشعار.

2. "شرح شواهد الشافية" مطبوع، بتحقيق: محمد نور الحسن - محمد الزفاف - محمد محيي الدين عبد الحميد. بمطبعة حجازي. وهو يعتبر كتكملة لما بدأه في خزانة الأدب، وهو شرح لشواهد الرضي التي ساقها في شرحه لشافية ابن الحاجب.

3. "شرح شواهد شرح التحفة الوردية" مطبوع، بمطبعة كلية الآداب، باستانبول، بتحقيق: نظيف محرم خواجه.

والتحفة الوردية هي أرجوزة في النحو لزين الدين بن الوردي الحلبي الشافعي المتوفي 749 ه وعدد أبياتها 150 بيتا .

4. "شرح أبيات مغني اللبيب لابن هشام" مطبوع حديثا في دار المأمون بدمشق في ثمانية أجزاء.

5. "حاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام". مطبوع بتحقيق: نظيف محرم خواجة، بدار فرانتس شتاين بفيسبادن في ثلاثة أجزاء.

6. "تعريب تحفة الشاهدي" مخطوط.

* والمطلع على كتبه يتبين له أنه عالم أتى بمشروع فكري متميز أراد به صاحبه أن يعبر إلى الفكر عن طريق اللغة حيث رآهما وجهان لعملة واحدة، وقد اعتمد في مشروعه على محور اللغة، حيث رآها بداية للانطلاق إلى بناء الحضارة وتأسيس العلوم، فحاول في كتبه كلها أن يرسخ ملكة اللغة ويعمقها على مستوى الألفاظ والجمل المفيدة، والأساليب والتراكيب اللغوية، بالإضافة إلى التعمق في فقه اللغة وفي تاريخها، كل ذلك بصورة موسعة وعميقة.

والغرض من ذلك أن الإنسان إذا امتلك ناصية اللغة فإنه يتوصل بذلك إلى الفكر المستقيم والمنهج القويم، والتمكن من اللغة أيضا يتوصل به إلى المنهج العلمي الرصين، مما نستطيع به أن نقوم بتوليد العلوم ، ونستطيع أن نبني أمة وحضارة مؤسسة على العقلية العلمية وبعيدة عن الخرافة وأقرب ما تكون إلى إدراك الواقع وحقائق الأشياء .

ويذكرنا ذلك بمناظرة أبي سعيد السيرافي مع أبي البشر متى بن يونس حول إمكانية الاكتفاء بالعربية عن المنطق اليوناني وفي ثناياها معنى أن اللغة والفكر المستقيم وجهان لعملة واحدة.[1]

---

1 - راجع الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ص90 وما بعدها.

ولقد ترك لنا عبد القادر البغدادي كتبه ومؤلفاته والتي اشتملت على ملامح هذا المشروع التجديدي بالتفصيل.

وخلاصة فكرة النهضة الثقافية والفكرية التي تبدأ من اللغة هي ما نراه ونلاحظه في القرن الأول من النهضة الإسلامية والتي وضع أساسها الخليل بن أحمد في معجمه العين، والذي قام على فكرة التباديل والتوافيق بين الحروف الثمانية والعشرين، والتي أنتجت ثروة من مليارات الألفاظ والدلالات المحتملة والتي لم يستعملِ العرب منها أكثر من ثمانينَ ألف جذرٍ كما نراه عند ابن منظور في قاموسه لسان العرب.

وهذا التعمق في فَهم اللغة العربية يتطلب منا إضافة إلى الإدراك الدلالي للمعاني تعمق آخر على مستوى التراكيب ودِلالات السياق، والسِّباق واللِّحاق، وتعمق آخر في فهم الثقافة العربية والإسلامية بإدراك العادات والتقاليد ونمط الحياة الأول للعرب، ومعرفة الكامن في منطق العربية وسر صناعةِ الإعراب، وبذلك يستطيع المتعلِّم أن يخدمَ الحضارة الإسلاميَّة وأن ينطلق بها ويخدم محورها الحضاري ألا وهو النَّصُّ.

ومعنى أن النص هو محور الحضارة الإسلامية أن منه المنطلق وإليه المرجع وبه التقويم وله الخدمة، والنص هو الوحي متمثلا في القرآن الكريم والسنة النبوية، وهما اللذان قال عنهما سيدنا رسول الله ﷺ: **«تركتُ فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسنَّتي»**[1].

أو ما نطلق عليه : المحجَّة البيضاء. ولا غنى عن اللغة العربية في سبيل فهمها والعمل بما جاء فيها، والخروج عن اللغة وما يتطلبه فهمها من بذل جهد وتحصيل علم هو أول خطوة سلكها المتطرفون من خوارج العصر، فالضلال والإضلال يجد سعة بعيدا عن الفهم اللغوي الصحيح للنص محور الحضارة والنهضة، فربما حصلوا حروفه

(1) أخرجه الإمام مالك في موطئه، حديث رقم (3338) (5/1323) تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي.

وضيعوا فهمه وضيعوا حدوده ومعانيه بسوء الفهم، كما أخبر عنهم سيدنا رسول الله لا يجاوز تراقيهم.

وأما مشروع النهضة المناهض للخوارج والذي بدأه البغدادي يؤكد على أن اللغة والتفكير قرينان لا ينفصلان، وأن العلاقة بينهما علاقة تلازم وترابط، فالعمل بالقرآن والسنة يحتاج إلى الفهم والانضباط باللغة العربية، لأن العقل لا يكون سليمًا ولا يعمل بطريقة حسنة إلَّا إذا عَمِلَ بلغة سليمة، وليس هناك لغة سليمة للعقل غير لغتِهِ التي نشأ عليها لأنَّها آلة تفكيره وبحثه واطِّلاعه.

***

المطلب الثاني

مشروع المرتضى الزبيدي

وهو أبو الفيض محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، ولد بالهند وأصله من العراق، ونشأ وانتسب إلى زبيد باليمن، ورحل إلى الحجاز، وأقام بمصر واشتهر أمره بها وتوفي بها سنة (1205هـ. 1790م).

أشهر مؤلفاته:

1. تاج العروس في شرح القاموس.
2. إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء العلوم للغزالي.
3. أسانيد الكتب الستة.
4. عقود الجواهر المنيفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة.
5. ألفية السند في الحديث 1500 بيت، وشرحها.

وجاء المرتضى الزبيدي بعد نحو قرن من الزمان فاتبع أثر عبد القادر البغدادي وسار على نهجه من حيث اتباع التجديد والتطوير بالتركيز على الجانب اللغوي ، وقد أضاف موضوعين آخرين بجانب إحياء ملكة اللغة وهما : التوثيق، وإحياء منظومة الأخلاق.

يظهر ذلك فيما ألفه الزبيدي من شرح واسع على القاموس المحيط أسماه "تاج العروس في شرح جواهر القاموس" وقد طبع في أربعين مجلدا، وكذلك شرح إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ، وخرج أحاديثه بصورة أوسع وأشمل مما فعل من سبقه كالإمام العراقي الذي خرج أحاديث الإحياء في كتابه " المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، واهتم الزبيدي في شرحه هذا بمنظومة القيم الأخلاقية، وبتدريب العقل على التوثيق والبرهان.

فقد سار المرتضى الزبيديُّ على نفس المنوال الذي دعا إليه الشيخُ عبد القادر البغداديُّ من أجل عودة ملكة اللغة إلى الناس حتى يفهموا من ناحيةٍ النصوصَ المقدسة من الكتاب والسنة ومن ناحية أخرى يفهمون التراثَ الذي أنشأه الأئمةُ على مختلف العصور السابقة، الأئمة الذين وضعوا المنهج المناسب والشروط المناسبة التي لا نستطيع فهم الكتاب والسنة على مراد الله ورسوله إلا بها، هؤلاء الأئمة هم أبو حنيفة والشافعي ومالك وأحمد بن حنبل والأوزاعي وغيرهم من الأئمةِ الكبار؛ ولذلك أحبَّهم الناس واتَّبعوهم.

والأركان الثلاث : اللغة، والأخلاق، والتوثيق. هي الدعامة التي يقوم عليها مشروع النهضة الحقيقة نهضة الأمة الحضارية والثقافية والعلمية، كما قامت في أول أمرها على يد رجال من أمثال الخليل بن أحمد والإمام البخاري والإمام الجنيد ، ولا نزال نكرِّر أن اللغةَ هي وعاء العلم والفكر، وأنَّ فَهمَ العلوم من خلالها لا يؤدِّي إلى ما نراه عند جماعات الخوارج قديما وحديثا من التخبط والخلط بين المتشابهات والواضحات، فأفتوا الناس بغير علم فضلوا وأضلوا بفتاوى تهدم معالم ديننا وتعبث بماضي الأمة وتراثها.

واهتم الزَّبيدي من أجل نهضة الأمة بجانب اللغة والأخلاق متمثلا في الحديث النبوي الشَّريف؛ فقد اهتمَّ بصحيح البخاريِّ وصار يُملي شيئًا من الصَّحيح يقول الجبرتي: «وصار يُملِي على الجماعة بعد قراءةِ شيء من الصَّحيح حديثًا من المسلسلات أو فضائل الأعمال ويَسردُ رجال سنده ورواته من حفظه ويتبعه بأبياتٍ من الشعر». ثم يقول بعد ذلك: «وقرأ الشَّمائل في غير الأيام المعهودة بعد العصر فازدادت شهرتُه وأقبلتِ النَّاس من كل ناحية لسماعه ومشاهدة ذاتِه لكونها على خلاف هيئة المصريين وزِيهم، ودعاه كثيرٌ من الأعيان إلى بيوتِهم وعملوا من أجله ولائم فاخرة فيذهب إليهم مع خواص الطلبة والمقرئ والمستملي وكاتب الأسماء فيقرأ لهم شيئًا من الأجزاء

الحديثية كثلاثيات البخاري أو الدارمي أو بعض المسلسلات»[1].

وبدأ الناس بهذه الطريقة يحفظونَ الأحاديث من السند، بل بدأ الناس يتمتعونَ بتلك الأحاديث، لكن الشيخ المرتضى الزبيدي بعد أن علَّمهم الثلاثيات توفِّي رحمه الله قبل الدخول في الرُّباعيات التي كان يريد أن يصنعها في البخاري أيضًا، فكان رحمه الله فكرًا ومدرسةً، وتخرج في هذه المدرسة- أي مدرسة الزبيدي- تلاميذ ساروا على نفس المنهجيَّة التي كان عليها الشيخ البغدادي من قبلُ والشيخ المرتضى الزبيدي مِن بعده، لكنَّ المكائد التي كادها لنا الغرب حالَت دون التقدُّم والرقي بهذه الأمة.

ولقد تعرض مشروع البغدادي وما درسه إلى تلامذته، ومشروع المرتضى الزبيدي ، إلى إبادة جسدية مع مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر على يد نابليون بونابرت، الذي جاء بعد وفاة المرتضى بثمانية أعوام ، فقد توفى الزبيدي 1205هـ وقدمت الحملة 1213هـ، وقامت الحملة الفرنسية وفي خلال عام واحد بقتل 1800 عالم من تلامذة تلك المدرسة ، فتعرض المشروع لنكسة غير عادلة.

وحكى الجبرتي في تاريخه أن نابليون في كل يوم كان يقتل خمسة أو ستة من الثائرين على فرنسا، ويطاف برؤسهم في شوارع القاهرة. وهؤلاء كما يؤكد محمود شاكر هم ورثة حركة النهضة من تلاميذ الجبرتي والزبيدي .

تقول الدكتورة زينب عبد العزيز: واتبع نابليون إجراءا وحشيا غير مسبوق، فمع مشرق كل يوم جديد كان يقتل في القاهرة وحدها خمسة أو ستة أشخاص من طلبة الأزهر علمائه أو من المحرضين على مقاومة الغزاة، ويأمر أن تعلق هذه الرؤوس على عصى طويلة ويطاف بها في الشوارع ، والقول هنا ليس للجبرتي وحده وإنما لنابليون أيضا مع اختلاف الرقم، فها هو يكتب إلى زايونشك، قومندان المنوفية في 30 يوليو

(1) انظر: عجائب الآثار في التراجم والأخبار= تاريخ الجبرتي (2/307، 308). تأليف: عبد الرحمن حسن الجبرتي، تحقيق: أ. د: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1998م.

1798م قائلا: يجب أن تعاملوا المسلمين بمنتهى القوة، وإني هنا أقتل كل يوم ثلاثة أفراد يطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة، فهذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس، وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح.[1]

قال نابليون آمرا جنوده: «يجب أن تعاملوا المسلمين بمنتهى القوة، وإني هنا أقتل كل يوم ثلاثة أفراد يُطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة، فهذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس»[2].

وبلغ به الأمر في مصر أن قتل منهم ألفًا وخمسمائة عالم وطالبِ علمٍ في خلال ثلاثمائة يومٍ، أي بما يُعادل قَتْلَ خمسة علماء كل يوم؛ ذكر ذلك الجبرتيّ في تاريخِه، إلا أن الجبرتيَّ لم يذكر لنا أسماء هؤلاء الذين قُتلوا بيدِ الفرنسيين[3].

وقد نقل في كتاب المشروع الفرنسي لغزو مصر أنه : «ثمَّ إن هناك ثروات مصر ومواردها وأهمية تجارتها وموقعها الجغرافي»[4]. وفيه أيضًا: «إنني أعتقد أن مصر تمثل بالنسبة لنا المكان الوحيد الذي يمكن أن نعده لأغراضنا بصورة رابحة وضمان مؤكد»[5].

ثم تبين بعد ذلك أنهم كانوا يريدون أن يئدوا حضارة مصر وهي في مهدِها، وأشار إلى هذا الكلام بعد أن اكتشفه ثم وثَّقه بطريقةٍ أو بأخرى الأستاذ محمود محمد شاكر، قال في: «**رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**». إجابة عن سؤال طرحه يقول: لماذا يقتلهم؟

1 - زينب عبد العزيز: مئتا عام على حملة المنافقين الفرنسيس ص13. مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005م. والدكتورة ليلى عنان "الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة" ص74 - دار الهلال - 1992.

(2) انظر: مائتا عام على حملة المنافقين الفرنسيس (ص 15).

(3) انظر: عجائب الآثار في التراجم والأخبار= تاريخ الجبرتي (3/43، 44) . ورسالة في الطريق إلى ثقافتنا (ص 100- 104) تأليف: محمود شاكر- الهيئة المصرية العامة للكتاب- 1997م.

(4) انظر: مائتا عام على حملة المنافقين الفرنسيس (ص 94).

(5) المرجع السابق (ص 95).

فيقول إنَّهم: «أدركوا إدراكًا واضحًا لا لجاجةَ فيه أنَّ ما كان يجري في دار الإسلام منذ مُنتصف القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي إلى منتصف القرن الثاني عشر الهجري الثَّامن عشر الميلادي إنَّما هو يقظة حقيقيَّة ونهضة كاملة»[1].

وتنبَّه معي لكلمة النَّهضة في كلام الأستاذ شاكر، فهي نهضة بالفِعل كبيرة أرادوا هدمها ومحوَها من الوجود، وفي ذلك الوقت الذي كانت تضيع فيه الأمة، ويتمُّ القضاء على كل نهضة ترتقي بقيم وتعاليم الإسلام وترسخها في نفوس أهله لم يكن هناك بُدٌّ من العمل على إحياء نهضة تُشبه ولو من بعيد النَّهضة السابقة، تشمل تلك النهضة إحياء الجوانب العلمية في مختلف الحياة عن طريق إرسال البعثات العلمية في عهد محمد علي وحفيده عباس الأول ، بجانب تنظيم حياة الناس من ناحية الإدارة والقانون.

***

(1) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا (ص 85، 86).

المطلب الثالث

مشروع الشيخ حسن العطار (ت1835م)

وجد محمد علي والي مصر بعد خروج الحملة الفرنسية أنَّنا في حاجة إلى التطور العلمي الذي يقتضي دراسة الحضارة الأوربية والعالم الآخر الذي كان له السبق في التَّقدُّم في تلك الفترة ونَقلَ الحضارة التي كانت تتمتع بها تلك البلاد، فبدأ في إعداد بعثات كي يرسلها إلى أوروبا، فأرسل أول بعثة إلى إيطاليا ليتعلموا هناك المهن والصناعات اليسيرة، لكنه بدأ في إرسال بعثاته في بداية الأمر إلى فرنسا.

ويَذكرُ الأمير عمر طوسون في كتابه: «**البَعثات العلمية**» تلك النهضة التي قام بها محمد علي في ذلك الوقت عن طريق إرساله هذه البعثات، فقد أرسل البعثة الأولى له إلى إيطاليا سنة 1813م، وكانت البعثة الثانية إلى فرنسا سنة 1818م، وكذلك الثالثة إلى فرنسا أيضًا سنة 1826م، وهي التي كان فيها رفاعة الطهطاوي، ثم إرسال بعض التلاميذ إلى فرنسا والنمسا وانجلترا أيضًا سنة 1828م إلى سنة 1830م، ثم البعثة الرابعة إلى فرنسا سنة 1844م والتي كان إمامها الشيخ نصر الهُوريني[1].

في ذلك الوقت الذي أراد فيه محمد علي إرسال البعثات العلمية إلى فرنسا كان شيخ الجامع الأزهر الشيخ حسن العطار، الذي ظلَّ شيخًا للجامع الأزهر إلى أن مات رحمه الله، وكان ذا أصولٍ مغربية، وهذا يبيِّن للقارئ أنَّ الأزهر كان عبارة عن مدرسة منفتحةٍ تُعبِّر عن الأمة كلها، فكما أصبح الشيخ حسن العطار شيخًا للأزهر وهو ذو أصولٍ مغربية فكذلك وصل الشيخ عيسى منُّون الشامي عميدًا لكليةِ الشَّريعةِ والقانونِ وعضو هيئة كبار العلماءِ، ووصل أيضًا الشيخ محمد الخِضْر حُسَيْن إلى منصب

(1) البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد، ص (10، 11، 12) و(54) و(64) و(172) تأليف: الأمير عمر طوسون، مطبعة صلاح الدين، الإسكندرية، 1934م.

شيخ الأزهر وهو تونسي الأصل، وأخذ الجنسية المصرية بعد صدور قانون الجنسية عام 1914م[1].

والشيخ حسن بن محمد بن محمود العطار: أصله من المغرب، ومولده ووفاته في القاهرة. أنشأ جريدة "الوقائع المصرية"، وتولى مشيخة الأزهر سنة 1246 هـ، ولقد حاول الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر الشريف أن يحيي في مدرسته الفكرية مشروع الزبيدي، بالإضافة إلى محاولته الاستفادة من الثقافات الأخرى والمختلفة، حتى يمكنه أن يضم إلى المحاور الثلاثة التي ضمنتها التجربة السابقة محورا جديدا وهو إدراك العلوم الكونية، التي شعر بالاحتياج إليها وضرورتها على وجه السرعة، وأن المشاريع التي تحتاج إلى أزمان طويلة أو إلى بناء حضاري متأن قد تجاوزها الزمان.

وكان هذا دافعا له في إرسال تلميذه رفاعة رافع الطهطاوي مع أمره أن يصف له كل ما يراه عن الفرنساوية حيث شعر أن مفتاحا ما بيدهم لا يعرفه ويريد اكتشافه.

فإن احتكاك الشيخ حسن العطار بعلماء الحملة الفرنسية حيث كان يدرس لهم اللغة العربية أفاده كثيرا كما يقول علي مبارك في الترجمة له: اتصل بناس من الفرنساوية وكان يستفيد منهم الفنون المستعملة في بلادهم ويفيدهم اللغة العربية.

---

(1) هذا القانون ينصُّ على أن المصريين هم المواطنون في مصر قبل 5 نوفمبر سنة 1914م من غير رعايا الدول الأجنبية. والشيخ الخضر حسين جاء إلى مصر سنة 1339هـ= 1920م. وحصلَ على الجنسية المصرية سنة 1351هـ=1932م، وتولى مشيخة الأزهر الشريف سنة أواخر سنة 1371هـ=1952م، كان رحمه الله جزائري تونسي، وكان يعرف بمصر عندما قدوم إليها بالشيخ الخضر التونسي فلما صار مخالطًا للمصريين أصبح اسمه محمد الخضر حسين.

انظر: الأعلام للزركلي (113/6)، ومحمد الخضر حسين وفقه السياسة في الإسلام (ص 17) وما بعدها تأليف: محمد الجوادي، دار الكلمة، المنصورة، الطبعة الأولى، 2014م.

وثارت في عقل الشيخ العطار الكثير من الأسئلة وعلامات الاستفهام حول الواقع الذي تحياه الأمة، واقتنع الرجل بضرورة التغيير، فأطلق صيحته "إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها".

ولكن العطار لم يستطع أن يحول الأزهر إلى أداة تنهض بمهام هذا التغيير، فقرر أن يرعى كوكبة من النابهين، كان على رأسهم: رفاعة رافع الطهطاوي، وإبراهيم الدسوقي، ومحمد عياد الطنطاوي، ومحمد عمر التونسي .. فأخذ يلتقي بهم في منزله ، ويلقي إليهم بمشاهداته وحصيلة احتكاكه بعلماء الحملة الفرنسية ويحدثهم عن ما وصلت إليه هذه الأمة من المعارف والعلوم، وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة.

وكان واضحا من طبيعة قيادة الشيخ العطار وقدراتها أنها تحاول الإسهام في تكوين الجيل الذي ينهض بالمهام المطروحة، لا أن هذه القيادة هي القادرة على ارتياد هذا الدرب الجديد.. فلقد كان الرجل واسع الأفق، ملما بعلوم تقف منها القيادة الأزهرية التقليدية موقف العداء، مثل التاريخ والجغرافيا والأدب، غير أن المهام الجديدة كانت تتطلب ما هو أكثر من هذه العلوم، كانت تتطلب علوما عملية إلى جانب النظرية، كالرياضة والهندسة والزراعة والمعادن، وصناعة الحرب وتجييش الجيوش وبناء الأساطيل واستكشاف الكنوز وتربية الماشية وزراعة القطن . [1]

لقد تجلى دور الشيخ العطار من خلال فكره الذي تبناه وهو ما يعبر عن إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها، ذلك الفكر الذي جعله عندما أراد محمد علي أن يرسل البعثات العلمية إلى فرنسا يخشى على الشباب من العادات الفرنسية وتغيرهم في تلك البلاد، فخاف على أخلاقهم ولغتهم حتى لا تتفلت منهم، وقد تقدَّم أن النهضة من أهم أسسها أنها لا تتم إلا بالأخلاق، ففكر في

---

1 – محمد عمارة: الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي ص27.

إرسال مَنْ يراقبهم من الناحية الدينية، ومن هنا نجد أن الشيخ حسن العطار تأثر بتراث المرتضى الزبيدي في الجانب الأخلاقيِّ فهو لا يريدُ للطُّلاب المُرسلين إلى فرنسا أن يتعلموا فقط، بل يريد تعليمًا ودينًا، وهذه هي المشاريع؛ من أجل ذلك أرسل معهم الطالب الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي الذي كان تلميذًا له في ذلك الوقت[1].

وطلب الشيخ العطار من رفاعة مراقبة الطلبة ومراقبة الفرنسيين أيضًا لأنَّ معهم مفتاحًا ليس معنا ونودُّ أن نعرفه، وهذا المفتاح هو ما نسميه نحن بالتكنولوجيا، فلابد من معرفته حتى نعمل به كي ننهضَ ونتقدَّم.

وكان منهج الشيخ العطار رحمه الله يتجلَّى في تعليم تلاميذه بالجامع الأزهر العلوم العقليَّة والنقلية، ومحاولة انتشار هؤلاء التلاميذ في كل مكان، وتكوين مدرسة علمية رصينة، بجانب علمه بالأمور الخارجية في فرنسا عن طريق تلميذه رفاعة رافِع الطهطاوي الذي كان يرسل له كل شيء.

بدأ رفاعة في مراسلة شيخه بما يراه، فوجد أشياء غريبة تختلف عن المجتمع الذي تربَّى فيه والذي كان يعيش فيه، فعلى سبيل المثال وجد سيارةً تقوم برش الطرق بالمياه، وذلك حتى لا يُحدِثُ التراب غبارًا على المارة ولا على محلات البيع والشراء، ويلطف من حرارة الجو فنقل ذلك وأرسل به رسالة إلى شيخه حسن العطَّار.

وكان ينقُل لشيخه كل شيء حتى في نظام الأكل والشرب والجلوس على مائدة الطعام وغير ذلك من العادات التي اعتادها الفرنسيون فعلها، يكتبها الشيخ رفاعة الطهطاوي ويرسل بها رسالةً لشيخه حسن العطار، وينقل له كيف يتعامل الفرنسيون

---

(1) كان رفاعة الطهطاوي رحمه الله يتردَّدُ على بيت شيخه حسن العطار مع مجموعة من الطلبة منهم إبراهيم الدسوقي ومحمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي، وأخذ رفاعة عنه العلم والأدب والجغرافية والتاريخ، الأمر الذي أهله بعد ذلك أن يكون إمامًا للبعثة التي أرسلت إلى باريس فيها بعد. انظر: سلسلة من نوابغ الفكر العربي (حسن العطار) (ص 26). وانظر: مقدمة الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي للدكتور محمد عمارة (1/ 26، 27) مكتبة الأسرة- مصر- 2010م.

مع الأنثى، ويحمونها من كل الأشياء احترامًا وتقديرًا لمكانة المرأة، ومن خلال إرسال رفاعة لشيخ العطار كل شيء ألف في هذا الأمر كتابه المعروف بـ: «**تخليص الإبريز في تلخيص باريز**»[1].

لم تقف جهود رفاعة الطهطاوي عند هذا الحد في خدمة الدين الحنيف، وإنما كانت له جهود نذكر لك منها على سبيل المثال لا الحصر أنه عندما دَرَسَ اللغة الفرنسية وأتقنها بجدارة فائقة رجع مصر وافتتح مدرسة الألسن، وبدأ بالتراجم، وألف في السيرة النبوية كتابًا اسمه: «**نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز**» حتى يبين أننا نملك نموذجًا أخلاقيًّا. وترجم المجلد الثالث من جغرافية مالطبرون **Malte Brun**، ثم ترجم لنا القانون المدني الإفرنجي وطبعَه في مجلدين، لكن ذلك القانون لم يطبَّق عندنا وإنما قُورن بينه وبين القانون المأخوذ من المذهب المالكي في الفقه الإسلامي[2].

والأزهر كان وما زال يمثل الإسلام بمنهجه الوسطي ونسقه المفتوح الذي يسمح للجميع بالاستفادة منه، ولم يكن الأزهر يوما موئلا للتشدد أو الانغلاق ، فلا إشكالية أو تعارضَ بين دائرة الوطنية ودائرة الأمَّة لأنَّنا نعيشها، أمَّا المتشددونَ فإنَّهم يفرِّقون بين أشياء لا يصح التفريق بينها، فيتصورون أن الانتماء إلى الأمة يستلزم الانسلاخ من الانتماء إلى الأوطان وتهوين أمر حبها والعمل من أجلها فهي في نظرهم لا قيمة لها؛ لأنها عبارة عن حِفنةٍ من ترابٍ.

أما الأزهر فهو يرى الأمة نسيجا واحدا لا يفرق بين أبنائها، ولا يقسمها إلى جماعات وفرق متشرذمة، ومصر أذابتِ الجنسيات لأنها قلب الأمة النابض الذي استقبل المسلمين من كل البقاع ، على عكس ما فعلته الجماعات المتطرفة التي قسمت

---

(1) انظر: تلخيص الإبريز في تلخيص باريز (2/ 137) وما بعدها و(2/ 363) وما بعدها. مطبوع ضمن سلسلة الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي- مكتبة الأسرة- مصر- 2010م.

(2) انظر: حِلية الزمن بمناقب خادم الوطن «سيرة رفاعة رافع الطهطاوي» (ص 61- 63) تأليف: السيد صالح مجدي، تحقيق: جمال الدين الشيال، مطبعة الحلبي.

الأمة وأغلقت الباب على أتباعها دون التواصل أو الاتحاد مع السواد الأعظم من الأمة.

وعلى هذا الأساس تم وضع القواعد لإقامة نهضة عن طريق الأزهر الشريف، فقد أخذ الشيخ حسن العطار رسائل تلميذه رفاعة الطهطاوي وكل ما كان يُرسله من علومٍ ومعلومات، وبدأ يضع القواعد لإقامة نهضة في الأزهر تساوي النهضة التي فاتَتْنا بقتل العلماءِ، والتي كان يؤسِّس لها عبد القادر البغدادي والمرتضى الزبيدي، وبدأت تنطلق انطلاقات جديدة، وتنفتح مجالات كثيرة جدًّا، وخاصة بعد عودة رفاعة الطهطاوي الذي صنع جسرًا بيننا وبين الغرب لنستفيدَ من كل ما توصلُوا إليه من علومٍ ومعارفَ، إذن فلابدَّ من المشروع الذي يراد به النهضة أن يكون كما كان من قبل، مشروعًا وطنيًّا ليس قاصرًا على مجموعةٍ من الأشخاص، قائمًا على اللغة والتوثيق والأخلاق.

* * *

المطلب الرابع

مشروع الإمام محمد عبده (1905م)

كان للإمام محمد عبده نظرة في الإصلاح جاءته من انفتاح أبواب المعرفة والعلم عليه منذ الصغر؛ فقد تعلم- كما يخبر هو عن نفسه- القراءة والكتابة في منزل والده، وحفظ القرآن الكريم في الصغر وجلس في دروس العلم مبكرًا وتلقى شرح الكفراوي على الآجرومية في المسجد الأحمدي بطنطا، وتعلم عند خال والده الشيخ درويش خضر شيئًا من العلم، وكان يقرأ عليه ما لا يستطيع الشيخ درويش قراءتَه لضعف بصره، وأخذ عنه بعض المعارف الصوفية التي أثرت في شخصيته تأثيرًا كبيرًا[(1)]. ومن هنا بدأ محمد عبده يحب العلوم وما تدعو إليْه، وأدرك أهمية النَّظرية التي أسسها عبد القادر البغدادي والمرتضى الزبيدي ومشروع ملكة اللغة والتوثيق والأخلاق، مع كونه نظر إلى العالم من حوله وما يحدث فيه من تطورٍ وتقدمٍ.

وقد حصل الشيخ محمد عبده على العالمية التي تعادل الدكتوراه الآن، إلا أن نظامها كان يختلف عن الدكتوراه، وكان وقتها لا يتقدم للعالمية إلا ستة أشخاص وهؤلاء الستة يسألهم اثنا عشر أستاذًا، فكانتِ اللجنة قد شكِّلت وجاء محمد عبده واختبره المشايخ، وكان محمد عبده وقتها يكتب بعض المقالات والجرائد والمجالات، الأمر الذي جعله بارزًا من الناحية الإعلامية ومعروفا لدى الأوساط العلمية، وكان يقرأ على جمال الدين الأفغاني كتب المعتزلة والمتكلمين وقد أزعج هذا الأمر منه بعض

---

(1) الشيخ درويش خضر كان متصوفًا على الطريقة الشاذلية أخذ الطريق على كبار المشايخ في وقته. انظر: عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ محمد عبده (ص 85- 90) تأليف: عباس محمود العقاد- وزارة الثقافة والإرشاد- مصر.

المشايخ الذين كانوا يختبرونه، وقد بيَّتوا الأمر على إسقاطه من العالمية، لكن مفتي الديار المصرية وقتها - وهو الشيخ المهدي العباسي[1]

وقد كان ممن يختبرونه آنذاك- كان معجبًا بشخصية محمد عبده، فأعطاه العالمية من الدرجة الثانية، وطلب من الشَّيخ أن يحرِّرَها معه وقال له: إن زملاءك فعلوا ذلك. ثم استرضاه أي طلب رضاه عن هذا الأمر، وكأنه عند منحه العالمية من الدرجة الثانية بدلًا من الأولى يقول له: لا داعي لحرمانه منها؛ لأنه يستحقها فكتب الشيخُ توقيعه على الشهادة، وحصل محمد عبده على العالميَّة من الدرجة الثَّانية[2].

وحينما حضر الأفغاني إلى مصر صحبه محمد عبده لما رأى فيه من روح إصلاحية، وأنه رجل يحمل هم هذه الأمة، يقول رشيد رضا عن حضور الأفغاني لمصر: "نفخ فيها روح الحكومة النيابية وألَّف فيها الحزب الوطني الأول لتقييد سلطان الحكومة الشخصية، وغذى تلاميذه ومريديه بعشق الحرية ووسائلها من العلم والكتابة والخطابة..."[3].

وكان الأفغاني ومحمد عبده من أهم المصلحين في هذا الوقت يقول رشيد رضا في هذا الصدد: "وقد أجمع العارفون والمدوِّنون للتاريخ الحديث على أنهما مصدر هذه النهضة العصرية في مصر..."[4].

لازم محمد عبده الأفغاني ملازمة كبيرة استفاد منه في هذه الفترة التي لازمه فيها، وكان مقصد الأفغاني في الإصلاح السياسي يكمن في إنهاض دولة الإسلام من ضعفها

(1) انظر ترجمة الشيخ المهدي العباسي وقضية تعيينه في الإفتاء في: أعلام الفكر في العصر الحديث (ص 62- 72) تأليف: أحمد تيمور بك- دار الآفاق العربية- القاهرة- 2003م.

(2) انظر: عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ محمد عبده (ص 177، 178).

(3) انظر: مقدمة تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (ص ز)- تأليف: محمد رشيد رضا- دار الفضيلة- الطبعة الثانية- 2006م.

(4) تاريخ الأستاذ الإمام (1/ 1).

وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق بالأمم العزيزة والمتقدمة فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيفي مجده[1].

وكان الأفغاني مقتنعا بمنهج للإصلاح يبدأ من القمة، من السياسة والثورة على الفساد، وكان محمد عبده يرى منهجا مختلفا للإصلاح يبدأ من القاعة من المجتمع بالتربية والصبر، فقد رأى الإمام التحول عن أسلوب أستاذه بعدما خبره فوجده قليل الجدوى والنفع، فاهتزت العلاقة بين الأفغاني وتلميذه بسبب تلك الرؤية، وفي ذلك يقول لأستاذه: «أرى أن نترك السياسة، ونذهب إلى مجهل من مجاهل الأرض لا يعرفنا فيه أحد، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الأذكياء السليمي الفطرة، فنربيهم على منهجنا ونوجه وجوههم إلى مقصدنا، فإذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمضي بضع سنين أخرى إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد في سبيل الإصلاح، ومن أمثال هؤلاء يُرجى الفلاحُ". فرد عليه الأفغاني قائلًا: "إنما أنت مثبط نحن قد شرعنا في العمل ولابد من المضي فيه ما دمنا نرى له منفذًا"[2].

كان محمد عبده مؤسسيا، وكان يكمن في وجدانه روح الدراسة الأزهرية التي جعلت فيه مرونة ودربة على التحول من أسلوب إلى آخر للتغلب على الصعاب في طريق الإصلاح، ربما اتهم الإمام حينئذ بأنه مثبط أو متخاذل أو ممالئ للسلطة والسلطان، ولكن لا بأس فإن هؤلاء العلماء الأكابر لم ينظروا إلى أنفسهم ولم يكن يعنيهم إلا تحقيق الخير للأمة، والخير في بناء الإنسان والمحافظة عليه، وإعداده بالتربية والتدريب والعلم والتدين، وقد وجد الإمام محمد عبده مجالا للتعاون مع السلطة في بلده لتحقيق بعض ما يصبو إليه من نهضة وتجديد وإصلاح، فلا بأس فإن السلطة التي

---

(1) تاريخ الأستاذ الإمام (34/1) وما بعدها.

(2) تاريخ الأستاذ الإمام (413/1) و(416/1).

تستعين بالعلماء وتفسح لهم المجال فإنها سلطة صالحة وفيها خير، ويجب الاستفادة من ذلك وتشجيعه.

أما الصدام والاصطدام من أجل إجراء الثورة الشاملة التي ترفع الهرم، فإن هذا يؤدي إلى فتنة وفساد في الأرض، وقد هدانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديثه إلى وسائل متعددة نتخير منها الأصلح، فإن لم يكن ثمة إلا الاشتراك في الفتن ، فليكن النجاة النجاة والهرب الهرب، ولو أن يعض المسلم على جذع شجرة خير له من أن يؤخذ يوم القيامة بقول أو فعل، فإن شطر كلمة يسأل عنه، قال النبي ﷺ: «**مَنِ اسْتشرفَ لها استشرفتْ له**»[1]. وفي الحديث الآخر: «**وَقْعُ اللِّسان فيها كوَقْعِ السَّيف**»[2].

وكان هذا منطلق الشيخ محمد عبده في إصلاحه للمجتمع، وهذا التوجه نلمحه في كلام رشيد رضا عنه حيث يقول في الحديث عن كلام الإمام: «إن إصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام فإن إصلاحَه إصلاح لجميع المسلمين وفسادَه فساد لهم»[3]. فإنه نهج بعد عودته من الشام سبيل الإسلاح التعليمي وازدادت كراهيته للسياسة.

وممَّن تتلمذ على الشيخ محمد عبده وقرأ عليه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز الشيخ مبارك، وكان رَحمَه الله قصير القامة، أمدَّ الله في عمره إلى أن وصل إلى مائة وأربعين سنة، وكان سيدنا الشيخ صالح الجعفري يُحيل عليه في مسائل الطلاق إذا أتته مسألة ويقول: إن الشيخ مبارك مفتي الطلاق.

---

(1) جزء من حديث أخرجه ابن حبان في صحيحه (5959)، (291/13) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ذكره الديملي في الفردوس بمأثور الخطاب (386/1) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(3) تاريخ الأستاذ الإمام (425/1).

أيضًا كان للشيخ محمد عبده مجلس للتفسير ومجلس للغة ومجلس للبلاغة، وكان يحب طلاب دار العلوم؛ لأنَّ دار العلوم وقتها كان يُدرِّسُ فيها أساطين اللغة، بل إنه كان يُدرِّس في المرحلة الابتدائية أساطين اللغة أيضًا، وكان ضمن من يدرسون في المرحلة الابتدائية الشيخ أحمد الإسكندراني أو أحمد السكندري رحمه الله، الذي كان مصححًا للمصحف الشريف ومدرسًا للغة العربية بالمدارس الابتدائية، وهو ضمن من كانت على يديه نشأة مجمع اللغة العربية[1]، وكان مع الشيخ أحمد السكندري من أعضاء مجمع اللغة حسين والي، وهو صاحب كتابين مهمين من الكتب، أحدهما اسمه: «**الإملاء في علم الحساب**»، والثاني اسمه: «**تمرين الإملاء في الخلق والأدب واللغة والإنشاء**». وله كتاب في التَّوحيد في علم الكلام.

أردنا من هذا الحديث عن أحمد السكندري وحسين والي كنموذجيْنِ أن نعرف أن الحاصل من هذا أن محمد عبده كان يبحث عن مشروعٍ للنهضة كالذي أسَّسَ له عبد القادر البغدادي فأخذ من خزانة الأدب وأخذ من المرتضى الزبيدي في إتحاف السَّادة المتقين وما صنعه الشيخ حسن العطار وبدأ في عمل مشروع للنهضة الحقيقية في البلاد.

كان ممَّن تتلمذ على الشَّيخ محمد عبده محمد رشيد رضا (1865م- 1935م) صاحب مجلة المنار المشهورة، وهي المجلة التي أنشأها مع المطبعة التي طبع فيها كتب أستاذه محمد عبده، الذي وافته المنية وانتقل إلى رحمة الله سنة 1905م عن ستٍّ وخمسين سنة قضاها في رِحابِ العلم ومحاولة النهضة بأمتِه.

(1) الذين دَرَسُوا على أحمد السكندري لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يخطئوا في الإملاء أو النحو أو الصرف، فلا مقارنةَ بين ذلك الزمان وما وصل الحال بنا في المدارس الابتدائيَّة في المدارس الابتدائية، إلى الحد الذي وصل بنا أن يقرأ بعض المدرسين قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ ألف لام ميم نشرح لك صدرك، وهذه مهزلة أتت من انهيار المنظومة التعليمية من الأساس.

كان محمد رشيد رضا له دور كبير في الحياة العلمية بشكل واضح ومؤثِّر في النَّهضة التي ظهرتْ وقتها، وهُو الَّذي جعل محمد عبده يكتب في بعض المجلات؛ فرشيد رضا كان صاحب مَجلَّة المنار وأتى بمطبعة لطبعِ الكُتب، وورث عن أستاذه محمد عبده أن أنفع طريقة لنشر التقدم بين الأمم هو نشر الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والأفكار الفاسدة التي فشت، وكان هذا هو الباعث الحقيقي على إنشاء جريدة المنار التي كتب فيها أستاذه فيما بعد، ومهد له أستاذه محمد عبده أمر طباعة المنار عند صاحب جريدة الرائد المصري، وكان يعرض على محمد عبده كل ما يكتبه ويستمع إلى توجيهاته وإرشاداته، إلا أن الأمر لم يخل من توجيه نقد لرشيد رضا كي يصل إلى الإفادة المرجوة على يد أستاذه محمد عبده[1].

فمجلة المنار ومحاولة محمد رشيد رضا للإصلاح كانت تبغي في بدايتها تعليم الناس وغرس القيم والتعاون بين أفراد المجتمع، وبناء القيم الأخلاقيَّة وإرساء منظومة الأخلاق المتكاملة في المجتمع كله حتى يكون مجتمعًا مترابطًا متعاونًا لا مجتمعًا متناحرًا متصارعًا بدلًا من خطة الهرم المقلوب، وكانت الوسيلة التي استطاع محمد رشيد رضا أن يصل بها إلى الناس هي مجلة المنار.

ولكن مع الوقت اصطدم محمد رشيد رضا مع بعض مشايخ الأزهر، مثل الشيخ يوسف الدجوي الذي لم يكن راضيًا عما كان يكتب في المنار، وقد رد الشيخ الدجوي على بعض الأخطاء العلمية والمنهجية في المجلة، وأمر تلميذه عبد الرافع نصر بإعداد كتاب يرد فيه على ما ورد بالمجلة مخالفا لصريح القرآن وصحيح الأحاديث، وعلى إثر ذلك صنَّفَ عبد الرافع نصر كتابًا بعنوان: «**صواعق من نار على صاحب المنار**» وهو كتاب مطبوع صغير الحجم.

---

(1) انظر: رشيد رضا الإمام المجاهد (ص 129- 142) ضمن سلسلة أعلام العرب- تأليف: د. إبراهيم أحمد العدوي- الدار المصرية للتأليف والترجمة.

وقد استشعر الشيخ محمد عبده أهمية اللغة العربية ، فنشر نهج البلاغة المنسوب إلى سيدنا علي بن أبي طالب، وأحيى كتب عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز، وأحيى كتبا أخرى هي أقرب إلى الفكر منها إلى اللغة أو الفقه، كالموافقات والاعتصام للشاطبي.

ودعا الإمام محمد عبده إلى الخروج عن القولبة النصية واللفظية إلى تحصيل المعاني وفلسفة العمران ، وجاءت مدرسته من بعده وفيها من الأعلام كالشيخ المراغي ومصطفى عبد الرازق والشيخ محمود شلتوت.

وقد قاموا بإصدار القوانين المنظمة للتعليم الأزهري وخطو به خطوات غير مسبوقة نحو الدراسة الأكاديمية المنظمة والمنتظمة، وهي تختلف الشيء الكثير عن الدرس المشيخي الذي كان شائعا إلى أوائل القرن العشرين بل حتى إنشاء الكليات الشرعية في ثلاثينيات القرن العشرين.

ونتج من هذا ولنحو تسعين عاما مجموعة من الرسائل العلمية غيرت وجه العلم الشرعي ، تناولا وصياغة وتدريسا، وتفاعلت مع الواقع بطريقة التزمت المنهج العلمي الأكاديمي.

ونشأت مجموعة من كتب الأساتذة العظام كانت كالجسر بين الأصالة والمعاصرة، ووضحت الطريق إلى كيفية الاستفادة من التراث الإسلامي والعربي، ووضعت معايير النقد والقبول والرد، ووضعت قواعد لاستخراج منهج التعامل مع النصوص ، ومنهج إدراك الواقع، ومنهج الوصل بين المطلق الذي هو شأن النصوص المقدسة وبين النسبي الذي هو شأن الواقع المتغير.

ولقد نجح الأزهر الشريف في هذا المجال وهذا التجديد نجاحا باهرا تجاوز حدود مصر إلى العالم كله، سواء كان المحور الإسلامي أو كان محور الدراسات الاستشراقية.

المطلب الخامس

مشروع عبد الرزاق باشا السنهوري (1971م)

ولقد أراد عبد الرزاق باشا أن يلتزم الفقه الإسلامي أثناء صياغته للقانون المدني المصري، والذي مكث في إعداده نحو اثنتي عشرة سنة من سنة 1936م وحتى سنة 1948م ، حيث صدر القانون في سبتمبر 1949م .

ولكن عبد الرزاق باشا في مشروعه التجديدي استشعر أن الفقه الإسلامي يحتاج إلى صياغة جديدة وإلى إعادة ترتيبه وأن الأمر يحتاج إلى مجهودات مؤسسية، فقام بالتعاون مع عبد الرحمن باشا عزام أمين عام الجامعة العربية بإنشاء معهدا للدراسات العربية، يتغيا فيه الوصل بين العقلية الفقهية الموروثة والعقلية القانونية الحديثة، حتى يجمع بين الحسنيين، ولقد استمر هذا المعهد في العطاء الفكري إلى وفاة السنهوري باشا سنة 1970م.

وتعد مجهودات الإمام محمد عبده والذي اهتم بقضية التعليم وقضية القضاء وكتب في كل من الأمرين تقريرا موسعا مع مجهودات السنهوري باشا بعد ذلك مؤذنة بإضافة محور آخر ، وهو الاهتمام بالعدالة الناجزة، واحترام دولة القضاء والقانون والتي تؤدي إلى الأمن المجتمعي، والبيئة الصالحة لبناء دولة الحضارة.

وسوف يأتي بعد ذلك حديث وتفصيل عن مشروع عبد الرزاق السنهوري في التجديد وفق محور العدالة واحترام دولة القانون وإعلاء قيمها.

***

المطلب السادس المشروع التجديدي

ومشروع التجديد والإصلاح الذي نحتاج إليه الآن يحتم علينا أن نعود إلى هويتنا والتي تتمثل أساسا في إقامة اللغة العربية والحضارة الإسلامية ، وعليه فلابد أن يكون التجديد المستقبلي شاملا لكل ما سبق، ويكون محوره:

1 – عودة العربية باعتبار اللغة والفكر وجهان لعملة واحدة.

2 – عودة منظومة الأخلاق والقيم .

3 – عودة العقلية العلمية الموثقة الفارقة.

4 – إقامة دولة المؤسسات ، والعدالة الناجزة.

5 – التواؤم بين كتاب الله المنظور (الكون) وكتاب الله المسطور (القرآن) كمحور للحضارة وذلك بجعل القرآن كتاب الله هداية للخلق، مما يستلزم منا أمورا لا بد من حسمها سريعا، وقد كتب فيها الكاتبون وأفاضوا، مثل قضية الالتزام بالقول بأن القرآن كله محكم ، وأن الآيات المتشابهات إنما هي متشابهة مع ما سبق من الشرائع السابقة، وأن القرآن ليس فيه منسوخ، ولا بد من الاستفادة منه كله، وأنه كالجملة الواحدة، لا يجوز أن نؤمن ببعضه ونكفر ببعض، وأنه يشتمل على منظومة القيم ومحورها أسماء الله الحسنى، وأنه غير مخلوق، فهو متجاوز للزمان والمكان والأشخاص والأحوال، وأنه يشتمل على اعتبار السياق والسباق واللحاق ويشتمل أيضا على اعتبار الدلالة الاستقلالية، وإقرار المبادئ العامة والسنن الإلهية الشرعية والتاريخية والكونية.

فالقرآن يشتمل على مجموعة من المبادئ العامة التي تحكم التفكير المستقيم والتي تصلح أن تكون قواعد للرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة، إلى غير ذلك من مباحث لا بد أن تدخل في مناهج التعليم الديني ولا بد أن تساهم في بناء النموذج المعرفي للخطاب الديني الجديد.

ولقد بشرنا النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها". رواه أبو داود والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة.

***

المبحث الثاني

الحاكمية في بلادنا للتشريع الإسلامي

المطلب الأول: محاولات لتقنين الشريعة قبل عهد الخديوي إسماعيل

المحاولة الأولى:

كانت الإرهاصات الأولى في التقنين لأحكام الشرعية في عهد السلطان سليمان القانوني على يد شيخ الإسلام أبي السعود العمادي[1] صاحب تفسير: «**إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**» فعند دخول القانوني أيَّ بلدٍ، كان أبو السعود يعمل على سنِّ قوانينَ تتواءم مع تلك البلاد، وهي قوانين مستمدة من المذهبِ الحنفيِّ، ولكن بعد معرفة أعراف تلك البلاد التي يدخلها ويجعلها تحت الحكم العثماني؛ فعلى سبيل المثال لو أنه دخل قبرص يرى أبو السعود عُرْفَ البلد ويعلم كيف يتعاملون امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:199]. فيأخذ العرف ثم يقنِّنُه، وقد دونت تلك القوانين ونُشرتْ قريبًا في تسعة مجلَّداتٍ.

وفي مصر التي دخلها السلطان سليم الأول سنة (925هـ)، جاء الشيخ أبو السعود في عهد سليمان ووضع قانونًا لها يتناسب مع أهلها وأعرافهم، وهذه كانت محاولات مبدئيَّة؛ من اختيار الإمام أبي السعود، ولم يكن وقتها توجد لجنة لتشكيل تلك القوانين، وفي نفس الوقت هي قوانين مختلطة بأعراف البلاد كي تتواءم معها.

---

(1) هو الإمام الكبير محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، أخذ العلم على والده وغيره من علماء وقته، وتولَّى القضاء بالقسطنطينية، وصنف: إرشاد العقل السليم. في التفسير، ورسالة في المسح على الخفين وغير ذلك. توفي سنة (982هـ) مفتيًا ودفن بالقسطنطينية.

انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب (584/10) تأليف: عبد الحي بن أحمد بن العماد الحكري- تحقيق محمود الأرناءوط- دار ابن كثير- الطبعة الأولى- 1986م. الأعلام للزركلي (59/7).

هذه المحاولة سطَّرَها مصطفى بن جلال التوقيعي التي عرفت بـ«**قانون نامه**»، وكان مصطفى جلال مصاحبًا للصدر الأعظم إبراهيم باشا في عهد سليمان، ذكر مصطفى جلال القوانين التي سنَّت في مصر وتم إحداثها في عهد سليمان القانوني التي شملت قانون المتطوعين وأحوال العمال والمواني وخراج الأراضي والأوقاف والنقود وغير ذلك[1].

المحاولة الثانية: هي ما صنعها محمد علي باشا والي مصر أثناء ولايتِه على مصر من قِبل الدولة العثمانية، وهي محاولة تنظيم الحياة بشكل عام في مصر، فقد أراد محمد علي فِعلَ تلك التنظيمات مع البقاء على الثَّقافة السائدة وعلى الشريعة الإسلاميَّة التي هي المكون الأساس لجمهور الشعب في مصر، يذكر فتحي بك زغلول في كتابه المحاماة صفحة 202 المطبوع سنة 1900م بمطبعة المعارف بمصر أن البلد وقتها ما كان لها قانون ولا نظام، فعَمِلَ محمد علي على وَضْعِ قانون عام لضبط أحوال الزراعة سماه: قانون الفلاح في شعبان سنة 1245هـ. ثم وضع قانون السياسة الملكية في شهر ربيع الآخر سنة 1253هـ، وهو يتعلق بالموظَّفين على الخصوص وبيان واجباتهم وعقوبة من يخل بها منهم. ثم في شهر ذي الحجة سنة 1258هـ نشر قانون عمليات الجسور وهو يتعلق بوظائف المهندسين والأعمال المتعلِّقة بالترع والجسور والخراج وأنفار السخرة وغير ذلك. وفي ربيع آخر سنة 1260هـ نشر قانون يسمى (سياسة اللائحة) وفيه أحكام من يتأخر في إنجاز أعماله. كما أنه كانت في عهد محمد علي الجمعية الحقانيَّة والمجلس الخصوصي وديوان المالية تحت اسم (بنود) في أحوال مختلفة وكلها نُشرت بين سنتي 1259 و1260هـ، هذا بجانب اللوائح والقوانين المختصة بالمجالس والدواوين، والتي كثرت وتعددت وأصبح الإلمام بها متعسرًا؛ فلذلك عمدت الحكمة إلى توحيد تلك البنود وجمع شتاتها فانتزع منها قانون عام أطلق عليه اسم قانون المنتخبات.

(1) انظر: قانون نامه الذي أصدره السلطان القانوني لحكم مصر- ترجمه وقدم له: د: أحمد فؤاد متولي- مكتبة الأنجلو المصرية.

المطلب الثاني

المجلة العدلية وترجمة أكواد نابليون

عملت الدولة العثمانية قانونًا موحدًا فيه تقنين للشريعة الإسلامية، وذلك بعد ضعفها وتقدم أوروبا عليها سنة 1290هـ، وهذا القانون هو الذي عُرِفَ بعد ذلك بالمجلَّة العدليَّة على المذهب الحنفي التي جمعت القوانين التي ستَحكمُ بها البلاد التابعة لها، والتي يدخل فيها مصر، ولم تنص تلك المجلة على حُدود الشريعة وتطبيقها، فقد كانت تحوي القانون المدني والتجاري وغير ذلك ما عدا الحدود.

وإن بداية ظهور المجلة العدلية كان سنة (1290هـ)، وكان ظهورها في هذا الوقت حدثًا هامًّا في تاريخ القوانين والتشريعات في تركيا وما يتبعها من البلاد كمصر، فقد وجدت تركيا أن أوروبا بدأت تتطور في النظام القانوني تطورًا كبيرًا عنها، فجمعت لجنة فيها من العلماء كان منهم علاء الدين ابن عابدين ابن الفقيه الحنفي صاحب الحاشية المشهورة بحاشية ابن عابدين، وطلبت منهم تقنينًا معيَّنًا مستمدًّا من الشريعة، وصدر ذلك التقنينُ فيما سمي بعد ذلك بـ«**المجلَّة العدلية**» وعندما ندقق النظر نجد أن المجلة العدلية هذه مأخوذة من المذهب الحنفي، وهذا يدل على أن استقاء القوانين كان من المذاهب الفقهية؛ أي من الشريعة الإسلامية، وقد نبهنا على هذه الحادثةِ وأنها مهمة جدًّا من أجل أنْ نوضِّحَ أن كثيرًا من المتشدِّدين لم يعرفوا مراحلَ تطور نظام القانون في بلادِهم.

أولا : موقف الخديوي إسماعيل من المجلة العدلية.

بعد إرسال البعثات من قِبَل محمد علي باشا والي مصر وعباس الأول إلى فرنسا وألمانيا، أصبحت هناك قاعدة علمية من الممكن أن يؤسس عليها أمور كثيرة تجعل هناك نهضة حقيقية في البلاد، من بين تلك الأمور التي كان يُسعى إليها هي تنظيم الحياة القانونية في مصر في ذلك الوقت، وهذا الأمر قد توافق مع وجود والٍ من ولاة

مصر الذين حاولوا جهدهم في النهوض بها نهضة حقيقية، وهو الخديوي إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي الذي أتى بعد فترة حكم عباس الأول.

وينبغي علينا قبل الدخول في حيثيات تطويرِ الحياة القانونية في مصر وفق الشريعة الإسلامية في عهد الخديوي إسماعيل أن نشير إلى أمر مهم في هذا الوقت؛ وهو أنه لا يخفى أن مصر في تلك الفترة كانت تابعةً للدولة العثمانية، حيث كان الذي يحكم وقتها بالطريقةِ الشرعية هو الخليفة الذي كان موجودًا بإسطنبول، وهذه الخلافة لم تكن خلافة راشدة كخلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ولا كخلافة الحسن بن علي، ولا كخلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم أجمعين، ولكنها بالجملة كانت خلافة من ناحية المسمَّى، وكان يُدعى للخليفة على المنابر، حتى المغاربة كانوا يدعون للخليفة على المنابر على الرغم من أنهم لم يكونوا تابعين للخلافة، ولم يكن للعثمانيين عليهم سلطان، وكذلك الأمر في إندونيسيا وغيرها من بلدان المسلمين المجاورة لها كل هؤلاء يدعون للخليفة، مع كونهم أيضًا لم يكونوا تحت سيطرة الخليفة، وإنَّما كانوا يدعون له على المنابر يوم الجمعة، وهذا يتمُّ في الخطبة الثانية فهي تسمَّى خطبة النعت وهي التي أنعتُ فيها الله سبحانه وتعالى وأصفُه بما يستحقه من محامد كثيرة وأصلِّي على النبي ﷺ وأدعو الله سبحانه لي وللمسلمين وللأمة وللخليفة أن يصلح الله أحواله وأحوال الأمة وأن يؤيدهم وأن ينصرهم وأن يصلح حالهم، وهذا الدعاء المخصوص بالخليفة كان يُدعى به لأنَّ الله عز وجل قد يستجيب في هذا اليوم، بجانب أنَّ هذا الشيء يشعر المسلم بأنه ينتمي إلى أمة كبيرة مترامية الأطراف.

أردنا التَّنبيه على هذا الأمر لأن وضع مصر تحت السيادة العثمانية لم يكن مرضيًا للخديوي إسماعيل في ذلك الوقت، فقد كانت عنده رغبة كبيرة في استقلالِ مصر عن الدولة العثمانية؛ لأنَّه كان يَرى أن مصالح مصر مقيدة، مع أنَّها كانت قد أعلنتْ أنها ولاية مستقلة عن الدولة العثمانية وأخذت الاستقلال الذاتي، لكن إسماعيل كان يريد الاستقلال التام من ناحية سن القوانين، إلا أنَّه لم يوافقه كثير من الناس بسبب وجود

خليفة ينبغي أن نكون تحت لوائه، وكان إسماعيلُ حريصًا على هذا ولا يريدُ أن يصدم النَّاس أو يصطدم بهم، ولديه خُطة يريد أن يطبِّقها حتى يكون لمصر سيادة ورِيادة.

عندما صدرت المجلة العدلية بتركيا أحدث إصدارها قلقًا عندَ الخديوي إسماعيل؛ لأنَّه رأى أنه لو طبقها سيزداد ارتباطًا بالدولة العثمانيَّةِ التي يُريد أن يخففَ من حدة هذا الارتباط معها، وكان يعمل على إلغاء هذه التبعية وإنهاء هذا الترابط.

لم يكن بوُسع إسماعيل وقتَها إلا أن يجمع علماء مصر الموجودينَ في ذلك الوقت، وكانت مصرُ في هذا الوقت غير منتشر فيها المذهبُ الحنبلي والحنابلة قليلون جدًّا، وعلماء المذاهب وقتها كانوا من السَّادةِ الأحناف أو المالكيَّة أو الشافعيةن فعمل على جمع كبار العلماء ومشايخ المذاهب، وكان معهم محمد قدري باشا المتوفى سنة (1306هـ) وعَرض عليهم المشكلة التي يواجهها، وكان قدري باشا وزيرًا للحقانيَّة، وكان يَعرفُ من اللغات التَّركية والفرنسية والإنجليزيَّةَ كما انه حنفيَّ المذهب.

عندما جمَعَهم إسماعيل وعَرَضَ عليهم ما بخاطرِه، عرض عليه محمد قدري باشا الخروج من تلك الأزمة من ناحية الأوقاف والأحوال الشخصية وأحوال الإنسان وما يشملها من قوانين عامة، فالأحناف لديهم أقوال يستطيع قدري باشا من خلال تلك الأقوال والفروع وضع تقنين يوازي المجلة العدلية ويستفيد منها، وإن كان مختلفًا عنها بعض الشيء، وبهذه الطريقة يكون قد حافظ على فَحوى المجلة العدلية وخالف الدولة العلية (تركيا).

رأى الخديوي إسماعيل أن هذا الأمر لا بأسَ به، فقام قدري باشا وأخرج أربعةَ مجلدات في قوانين الأحوال الشخصية، ثم أخرج أيضًا كتاب: «**العدل والإنصاف في قوانين الأوقاف**»، وكتاب: «**مُرشد الحيران في معرفة أحوال الإنسان**»[1] في المعاملات

---

(1) مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان: ويحتوي على 941 مادة، وهو خاص بالمعاملات المالية، وقد طبع الكتاب سنة (1307 هـ = 1890م). العدل والإنصاف في مشكلات الأوقاف: ويحتوي على 646

الشرعيَّة على مذهب الإمام أبي حنيفة، وقد طُبعتْ تلك المصنفات، والاقتراح تمَّ بالفِعلِ وأنهاه قدري باشا، إلَّا أنه لم ينفذ شيء من تلك الكتبِ، ولكنَّها كانت دالةً في نفسها على مراد القيادة من عدم الانسلاخ عن الشريعة الغراء، وقد أخرجنا هذه الكتب بفضل الله وهي موجودة بدار السَّلام.

ثانيا: ترجمة كود نابليون الأول والثاني.

لم يقف الأمر عند قدري باشا على هذا النحو، فقد كان هناك اقتراح ثان من ناحيته وهو أنَّه ذكر للخديوي إسماعيل أنَّ القانون الذي يعمل به الفرنسيونَ مأخوذٌ في بداية الأمر من الأندلس، فمن الأندلس جاءتْ القوانينُ ثم أخذتها فرنسا، ومعلوم أن قوانينَ الأندلس مأخوذةٌ من الفقهِ المالكيِّ، فقد كان حريصًا على إيجاد علاقة بين القانون الفرنسيِّ المأخوذ من تشريعات لويس، والتي تأثرت بالفقه المالكي عبر الأندلس، فعمل على ترجمة كود نابليون الأول وكود نابليون الثاني، وأمر رفاعة رافع الطَّهطاوي أن يفعل ذلك نقلًا عن الفرنسية إلى العربية وتم ذلك، وطبع في مجلدين في المطبعة الأميريَّة في أواخر القرن التاسع عشر لكنَّه لم يطبق كقانون في مصر.

عندما تُرجِمَ كود نابليون وُجدَ أن الفرقَ بينه وبين الفقه المالكي يسيرٌ جدًّا، فلو انتزعنا هذه الأمور القليلة غير المالكية لأصبح القانون كله من الشريعة ومن الفقه المالكي على وجه التَّحديد، وهنا نستطيع أن نقول إن المذهب المالكي قد جعل لنا قانونًا مصوغًا يضع قدمَه في مصاف القوانين العالميَّة؛ لأن أساس القوانين العالميَّة فرنسا، وهنا نجد أن القانون قد جعلنا نحقِّقُ أمرين؛ **الأمر الأول**: أنه فقه مالكي وشريعة إسلامية. **والثاني**: أنني أواجه العالمَ بما هو معروف لديهم حتى لا يكون مُستغربًا لديهم، وفي نفس الوقت لا يتنافى مع الشَّرع الشريف عندي لأنَّه مُستمَدٌّ من

مادة، وهو خاص بالوقف، وقد طبع سنة (1311 هـ = 1893م).- الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية: ويحتوي على 647 مادة..

مذهبٍ من المذاهب المعتمدة في الشَّريعة الإسلاميَّة.

بعدما سعى قدري باشا إلى ترجمة كود نابليون عن طريق رفاعة الطهطاوي، كان لابد من مراجعة تلك القوانين، فأمر الخديوي إسماعيل الشيخ مخلوف المنياوي مفتي الصَّعيد أن يُراجع ما ترجمه رفاعة الطهطاوي(1).

بعد ذلك أسند رفاعة باشا الطهطاوي الترجمة إلى مجدي محمد باشا وكان حجازيًّا من آل البيت، وبعد أن ترجمَها مجدي باشا أرسلها للشيخ مخلوف المنياوي، فراجعها الشيخ مخلوف الذي كان لديه القدرة الكبيرة والعظيمة على معرفةِ فروع وأصول المذهب المالكيِّ، ومعرفة ما إذا كان هذا القانون موافقًا للمذهب المالكي أم مخالفًا له؛ فكتب تقريرًا واسعًا استفاض فيه حتى صار كتابًا طُبع في مجلدين بمصر تحت عنوان: «**المقارنات التشريعية**» قارن فيه بين القانون الفرنسي وما وقف عليه من الشريعة الإسلامية، ووجد مقاربة بينه وبين الفقه المالكي على وجه الخصوصِ مع وجود مخالفات قليلة، وقد ظل هذا العمل حبيسًا بدار الكتب المصرية، ومن توفيق الله عز وجل أن نشر هذا الكتاب الأستاذ الدكتور محمد سراج عبد الهادي بمشاركة كاتب هذا الكتاب، وجدناها في مجلدْينِ مُودعيْن بدار الكتب بخطِّ الشيخ مخلوف المنياوي، فطبعناهُما تحت عنوان: «**المقارنات التَّشريعية**» للشيخ مخلوف المنياوي العدوي، لكن هذه الجهود لم يشأ القدر أن يراها الخديوي إسماعيل، فما إن انتهت الترجمة والمراجعة لها حتى نُفي إسماعيل وانتهى حكمُه على مصر.

وبعد رحيل الخديوي إسماعيل ترأس قدري باشا العالم الحنفي لجانًا في عهد الخديوي توفيق، فكتب القانونَ المصريَّ بنفسه باللغة الفرنسية، ثم ترجمَه إلى العربيَّة، فظنَّ كثيرٌ من الناس أن مصر طبقت القانون الفرنسيَّ، ولم يحدث ذلك قط، وإن أخذت

(1) كان الشيخ مخلوف بن محمد البدوي المنياوي رحمه الله من كبار فقهاء المالكية، صنف حاشية على حلية اللب المصون في البلاغة، وحاشية على الرسالة البيانية للصبان ورسالة في البسملة. انظر: الأعلام للزركلي (194/7).

مصر بالتوجُّه اللاتيني في صياغة هذه القوانين، أو في النظام القضائي إلا أنها لم تطبق القانون الفرنسي بذاته كما هو شائع بين كثير من الناس.

وبعد ذلك في سنة 1883م صدرتْ هذه المجموعةُ التي ترجمت من الفرنسيَّة إلى العربية والتي كانتْ تُعبِّرُ عن وجود فكرة المعاصرة التي تقتضي توحيد المصطلحات مع عدم الانسلاخ من الهوية، ونصت في مادتها الأولى أنها لا تنفي أي حقٍّ مقرر في الشريعة الإسلامية، وظل هذا البند موجودًا حتى سنة 1908م، حيث رُوجعت القوانين مرة أخرى ورُئي- طبقًا لمحاضر الجلسات والمناقشات- رَفْعُ هذه العبارة المتعلقة بالشريعة؛ حيث إنَّه قد مضى رُبع قرن من غير اعتراضِ أحد على أيِّ مادةٍ في هذا القانون.

والذي دعاهم إلى رفع هذه العبارة المتعلقة بالشريعة اعتراضُ بعضِ مَنْ كان يُقال لهم المزورون، والتي سُمِّيتْ بعد ذلك بـ«المحامي»، والتزوير هنا بمعنى تجميل الكلام وزخرفته يقال: زَوَّرَ أيْ: جمَّلَ الكلام وزخرفه[1]، وليس من التزوير الذي بمعنى العدوان، سُمِّيَ المحامي بذلك لأنه يجمِّلُ صاحبه أمام القضاء حتى يدافع عنه أمام القضاء ويثبت أنه ليس متهمًا ولم يقترفْ شيئًا، ذكرت هذه الطائفة أن هذه المجموعة المترجَمة لم يوجد أحدٌ قال إنها خالفت الشريعة الإسلامية، ولذلك فهذه العبارة لا داعي لها، فعملت جهة الإصدارِ على إلغاء العبارة التي تنص على أنَّها لا تنفي أي حقٍّ مقرر في الشريعة الإسلامية، وهذا في حدِّ ذاته لا يعدُّ كفرًا؛ لأنه لم يعترض أحد على أي مادة في هذا القانون مدة ربع قرن من الزمان فصار من المسلَّمات، وأصدروا سنة 1908م قانونًا ليس فيه تلك المادة، ولم يختلف أو يعترض على ذلك أحد؛ ولم ينظر إليه على أنه مخالفة للشريعة .

(1) انظر: المعجم الوسيط مادة (ز. و. ر). وتاج العروس (باب الفاء فصل الزاي مع الخاء والراء) (379/23).

وبهذا نرى أن الخديوي إسماعيل باشا ومن معه، كان حريصًا على الارتقاء بالقانون عن طريق بعض الأفاضل مثل قدري باشا الذي كان يعرف الفرنسيَّة جيدًا، والذي قامَ بكتابة القانون بالفرنسيَّةِ وكان معه مستشار فرنسي يراجع ما يكتبه من أجل دقَّة العبارةِ؛ ولأن القانون الفرنسي أقرب ما يكون للشريعةِ الإسلاميَّة، حيث إنه مستمَدٌّ من الفِقه المالكيِّ، وبعدَ أن كتب القانون على المذهب الحنفيِّ في المجلة العدلية قام بنفسه بكتابة القانون الفرنسيِّ بيده وأعطاه لجماعته كي يترجموه إلى العربيَّة.

ولا يمكن بأيِّ حالٍ من الأحوال أن يدعي أحد النابتة أن المصريين ساسة وعلماء فرطوا في الشريعة ونحوها وأفسحوا الطريق للقانون الفرنسي ليحل محلها، والحقيقة أنهم قصدوا المحافظة على الإسلام، والحفاظ عليه بوجهٍ حضاري، عن طريق تطوير القوانين من خلال ترجمة القانون الفرنسي الذي هو أقرب ما يكون إلى الشريعة الإسلامية، وأرادوا كذلك أن يكون للبلاد موطئ قدم في العالم، وهذا أمر محمود في ذاته، طالما صاحبه عدم الانسلاخ من هويتنا وأنفسِنا، مع عدم العزلة عن عصرنا ومَن حولنا، أخطأنا أو أصبنا فلنا أجر إن شاء الله.

والادعاء الكاذب بأن القوانين المصرية تخالفُ الشريعة دعوى روج لها المتشددون ودلسوا بها على الناس من أجل أن يحتالوا للتسلط على الناس وحكمهم بشريعة الإسلام التي نحيت بزعمهم، فاتخذوا من تكفير الناس والحكام سبيلا إلى أهدافهم كما فعل أسلافهم من الخوارج في تاريخنا والذين اتخذوا من دعوى الحاكمية لله تكئة للخروج على الحاكم المسلم والاعتداء على جموع المسلمين واستباحة أموالهم ودمائهم، ويقولون: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:44][1].

(1) وفي سياق الكلام عن القوانين والحكم بغير ما أنزل الله تحضرني واقعة اعتراض الدكتور يوسف القرضاوي عليَّ وعلى شيخ الأزهر ومهاجمته لنا بقوله: كيف تقولون إنَّكم مسلمون وعندكم مادة في قانون العقوباتِ تقول: إن مَنْ له الحق في تحريك قضية الزنا أمام القضاء هو الزوج فقط، وهذا مخالف للشَّريعةِ. نقول له: لو كنتَ معترضًا على مادة من القانون بحجَّة أنها تخالف الشريعة فعليكَ أن ترفع دعوى للهيئة التي

فجماعة الإخوان ومن نحى نحوها ونصرها على كذبها وزورها ليست بدعا في التاريخ وإنما هم يجترون شبه ومزاعم سبقهم إليها الخوارج الذين ارتكبوا الجرائم والفتن وأفسدوا في الأرض في القرنين الأول في تاريخ الدولة الإسلامية. وهذه الفكرة نتاج لبدع التأسيس للدين الموازي والأجيال المتتالية والتي سنوضحها فيما بعد.

***

تُراقبُ الدستور لو كان فيه من مواد تخالف الشريعة، وهذه الهيئة تتمثل في المحكمة الدستورية العليا، فإما أن ترى المحكمة لها وجهًا آخر في الشريعة وتنص عليه، وإما أن توضح لك ما لم تفهمه منها، وإما أن يجتهدَ فيها رجال القانون ويقولونَ نحن قبلناها؛ نظرًا للحفاظ على السِّلْم المجتمعيِّ، وإن أثبتوا لي اجتهادًا يُقبل ويصبح عندي اجتهادان فله اجتهاده ولي اجتهادي، وأصبح في المسألة رأيانِ ولا قضيَّة فيها، ومن هنا نحن لا نزال مسلمين، والحمد لله، ومع ذلك نحن نقول: إن السواد الأعظم من الأمة لا يزال في خير وعلى خير وأن هذه المحاولة للرؤية الغربية هي محاولة للصياغة وليست محاولة لتغيير الأحكام. انظر تفاصيل كلام القرضاوي والرد عليه في: فتنة القرضاوي (ص 123) وما بعدها تأليف: د: مصطفى عبد الكريم- دار المقطم- الطبعة الأولى- 2016م.

المطلب الثالث

جهود عبد الرزاق السنهوري باشا في تطوير القوانين

أ -تمصير القوانين:

في سنة 1908م ظهر مطلب بالتخلص من ترتيب القوانين على وفق ترتيب القانون الفرنسي، وهذه الدعوة سميت دعوة تمصير القوانين أي جعلها مصرية خالصة، وأخذت الناس تدعو في الجرائد إلى تمصير القوانين، ثم تكرَّرت هذه الدعوة أيضًا سنة 1936م حتى تشكَّلت لجنة من اثنى عشر عضوًا للنظر في هذا الأمر.

وكان القانون المترجم من الفرنسية إلى العربية هو القانون المعمول به في مصر في الفترة من 1883 وحتى 1908م ، ثم عدل هذا القانون فعمل به من الفترة 1908م حتى 1936م، وفي سنة 1936م طُلِبَ من اللجنة المشكَّلة من اثنى عشر عضوًا أن تضع دستورًا جديدًا فأخذوا يفكِّرون في معالجة هذا الأمر، إلى أن جاء رجل من النوابغ في العالم كله على مرِّ العصور هو عبد الرزاق السنهوري باشا، الحاصل على شهادة الدكتوراه من فرنسا.

وقد كان السنهوري باشا رجلًا مسلمًا يغار على دينه وعلى هوية أمته، وعندما جُمِعَت أشعارُه وحللت تبين أن معظم المعاني التي سيطرت عليه هي معاني إسلامية خالصة، والهموم التي تحملها هي هموم الأمة الإسلامية والتي أصابها التفكك على إثر انحلال الخلافة، ولكنه أراد بطريقة واقعية وبطريقة عصرية أن ييسر تطبيق شرائع الإسلام في بلاده.

فتأمل السنهوري في الواقع حولَه ووجد أننا في حاجة إلى أن نعمل كثيرًا من أجل الحفاظ على الإسلام بعد سقوط الخلافة، فقد دعا في رسالته للدكتوراه التي تقدم بها إلى السربون إلى البديل الفعلي للخلافة الإسلامية، وكرر الدعوة من خلال مذكراته المنشورة وكتابه الماتع: «**مصادر الحق**» الصادر في ستة أجزاء، والذي ذهب فيه على

سبيل الاجتهاد إلى التفرقة بين الربا والفائدة، باعتبار أن الربا هو ربا الجاهلية الأضعاف المضاعفة، وأن الفائدة وكأنها مقابل تدوير رأس المال الذي هو أحد عناصر الإنتاج الأربعة (الأرض- التَّنظيم- العمل- رأس المال).

وفي مقال له عن القانون المدني العربي في مجلة القضاء بنقابة المحامين في العراق، العددين 1، 2 سبتمبر عام 1962م. يقول: «إننا إذا اقتصرنا على تقليد هذه القوانين، على اعتبار أن هذه هي الغاية من تطور الفقه الإسلامي، لا نكون قد صنعنا شيئًا، ويكون الأولى أن نقتبس مباشرة من القوانين العربية، فالواجب أن تدرس الشَّريعة الإسلامية دراسة علميَّة دقيقة وفقًا لأصول صناعتها، ولا يجوز أن نخرج على هذه الأصول بدعوى أن التَّطور يقتضي هذا الخروج».

ويقول أيضًا: «والذي نَبغيه من دراسة الفقه الإسلامي وفقًا لأصول صناعته حتى نشتقَّ منه قانونًا حديثًا يصلح للعصر الذي نحن فيه... القانون النهائيُّ الدائم لكلٍّ من مصر والعراق، بل ولجميع البلاد العربية إنَّما هو القانون المدني العربي الذي نشتقه من الشريعة الإسلامية بعد تطورها».

واجتهد عبد الرزاق السنهوري باشا فوضع القانون المدني المصري، واشترك معه صبري أبو علم الذي وضع القانون الجنائيَّ المصريَّ، وهي المجموعات التي انتهوا منها وصدرت وعُمِلَ بها من سنة 1949م وحتى يومنا هذا، بغضِّ النظر عن التعديلات الجزئية.

وشرح السنهوري باشا القانون المدني في كتاب ماتع مطول أسماه: «**الوسيط**» صدر في عشرة أجزاء، بَيَّن فيه مأخذ كل مادة من الشريعة الإسلامية ، ووضح أصولها، وبين مواضعها في القوانين والتشريعات من ستة عشر تشريعًا مختلفًا من التشريع الهندي والبلجيكي والإيطاليِّ والفرنسي إلى آخر ذلكَ، وهو ما يدل دلالة واضحة بل أكاد أقول دلالة قطعية على حرص هؤلاء العلماء أن يتحروا أحكام الشريعة الإسلامية

والتفتيش عنها والاستفادة في ذلك من كافة القوانين والتشريعات الدولية.

يقول السنهوري باشا في مقاله: القانون المدني العربي، مجلة القضاء، نقابة المحامين في العراق، العددين 1، 2 سبتمبر عام 1962م:

«يمكن القول في طمأنينة إنَّ القانونَ المصريَّ الجديد (المدني) يمثِّل الثقافة المدنية العربية أصدق تمثيل، يمثلها في أحدث صورة من صورها».

ويقول في موضعٍ آخر: «استخلاص ما وصلت إليه الثقافة المدنية الغربية في آخر تطوراتها، وهذا ما تحقق بالقانون المدني المصري».

وقبل أن يضع السنهوري القانون المدني قرأ عشرين قانونًا لعشرين دولة مختلفة، ومكث اثنتا عشرة سنة في هذا الأمر، وعرض هذا المشروع على جهات كثيرة منها محكمة النقض التي كان الهضيبي مستشارًا بها، وعندما عُرِضَ القانون عليهم وكان بمجلس المراجعة علماء جهابذة، علم هؤلاء أن مستشاري محكمة النقض لهم رأي مخالف في هذا القانون، فقررت اللجنة التي شكلها المجلس من المستشارين لدراسة القانون استدعاء عدد من المستشارين لسماع آرائهم وكان من بينهم الهضيبي، وعندما سألته اللجنة عن رأيه في القانون فوجئت بأنه لم يقرأ القانون أصلًا فسألوه عن اعتراضه فكان الهضيبي من رأيه أن لا يناقش هذا القانون.

كان اعتراض الهضيبي على قانون لم يقرأه أو يطلع عليه اعتراضا من أجل الاعتراض، من أجل إظهار غيرته الزائفة على الشريعة الإسلامية، فمن المعتاد أن كل قانون جديد توجه له الانتقادات الموضوعية ويخضع للمناقشة والتداول، ولكن الهضيبي لم يبد أيا من تلك الانتقادات، بل رفض مناقشة القانون أصلا؛ لأنه بزعمه مخالف للشريعة وأن كل قانون يجب أن يرد إلى القرآن والسنة.

ولما طلب رئيس المحكمة من حسن الهضيبي أن يوضح اعتراضاته على القانون، رفض الهضيبي أو بمعنى أصح لم يجد ما يبديه من انتقاد، وصرح بأن خطأ هذا المشروع

وصوابه عنده سيان[1].

فهذا اعتراض من قبيل الاعتراض، وهي سمة عامة عند أصحاب الدين الموازي؛ الذي سنتعرض للكلام عنه فيما بعد.

بعدَ أن وضع السنهوري باشا القانون وتسلَّمته اللجنة كي تراجعه كانت هناك خطوة ثانية لتطوير تلك القوانين، هذه الخطوة الثانية تقتضي أن يكون هناك جيلٌ قادرٌ على هذا التطوير، فإنه من أجل أن ننشئ تلك الصنعة لا بدَّ أن ننشئ صانعها، وهم عبارة عن أجيال من المتعلمين قادرين على القيام بهذا العبء الضخم، واتفق أن عبد الرحمن باشا عزام وهو أول أمين عام للجامعة العربية يتعاون من السنهوري باشا في إنشاء معهد الدراسات العربية من أجل تدريس النظريات القانونيَّة العالمية المنظِّمة للفكر، ويُدرَّس فيه أيضًا الشريعة واللغة العربية التي هي الأداة للفكر، حتى يخرج من طلبة المعهد مَنْ يقوم بواجب الوقتِ ويكون مؤهلًا لصياغة القوانين.

نشأ هذا المعهد ودَرَّسَ فيه أكابر العلماء منهم محمد أبو زهرة وعلي الخفيف وفرج السنهوري من أجل إخراج مجتهد يفهم العصر ويطوِّر القانون الذي وضعه عبد الرزاق السنهوري في إطار الشَّريعة الإسلامية، فهل هؤلاء كانوا كفَّارًا عندما انتهجوا هذا النهج؟ فما بالك إذا كانت مكتبة معهد الدراسات العربية في جاردن سيتي من أكبر المكتبات التي نجد فيها المراجع ولا نجده في غيرها ولا في دار الكتب، ولا يزال المعهد موجودًا حتى الآن تابعًا لجامعة الدول العربية، لكن الزخم الذي كان موجودًا مع وفاة السنهوري باشا وانشغالنا بالحرب والفتنة التي أخذت جامعة الدول إلى تونس هي التي جعلت المعهد لا يتطوَّر ولا يطور جهود عبد الرحمن باشا عزام وعبد الرزاق السنهوري باشا، ثم ما استجد من هذا الفكر القميء.

(1) انظر: الشريعة الإلهية لا القوانين الإلهية (ص 138- 140) تأليف: د. عمر سليمان الأشقر- دار النفائس- عمان- الطبعة الثالثة- 1991م. هكذا يفهمون.

مكثوا في البرلمان يراجعون القانون سنتين إلى سبتمبر 1949 وأصدروه في سبتمبر 1949وما يهمنا هنا أمر مهم وهو: أن السنهوري باشا نصَّ على أنَّ هذا هو الخطوة الأولى، إذن هو يقول بأنَّه قابل للتطور بل يؤكِّد أن له تطويرًا وهذا التطوير لم يتمَّ حتى الآنَ.

ب -اعتراض الشيخ سيد حسين التيدي على صنيع السنهوري.

بَيْدَ أن صنيع السنهوريِّ وتوجهَه في صياغة تلك القوانين لاقى معارضة من بعض علماء الأزهر، خاصة أصحاب الدراسات القانونية في السربون وكان أشهر المعارضين لهذا الصنيع هو عبد الله بن حسين التيدي، الذي أَلَّفَ كتابًا من أربعة أجزاء بعنوان: «**المقارنات التَّشريعيَّة**» وهذا الكتاب اسمه هو نفس اسم كتاب الشيخ مخلوف المنياوي، وقد طُبع هذا الكتاب سنة 1948م بمكتبة عيسى الحلبي قبل صدور القانون، وقد أصدرنا كتاب التيدي بدار السلام بمصر أيضًا لتتمَّ هذه المجموعة لمعرفة كيف تنهض الأمم.

وكتاب التيدي عبارة عن مقارنة وبيان لأوجه الاتفاق والاختلاف بين النظم التشريعية والقانونية الذي من شأنه أن يلقي الضوء على العلاقات التاريخية بين الشعوب مما يشجع على التقارب والالتقاء بين الأجناس والشعوب ويساعد على التعارف بين الأمم وفهم ثقافة الآخرين، كما أنه يرى سمو الفقه الإسلامي ورقيه وملائمته لضبط العلاقات الإنسانية في المجتمعات الإسلامية، ويؤكد أيضًا أنه ليس هناك تشابه بين القانون الفرنسي والفقه المالكي في تسعة أعشار نصوصهما فحسب، وإنما برهن في المقارنات التشريعية على تأثر مفاهيم القانون الفرنسي في هذه النسبة بمبادئ الفقه المالكي، ويثبت هذا التشابه وهذا التأثر بأسلوب علمي دقيق، وقد راجع الشيخ محمد أبو النور زهير ـ من مشايخنا ـ نصوص الكتاب المنسوبة للمذهب المالكي فوجدها منقولة نقلًا أمينًا.

وعندما قاد السنهوري الجهود الرامية إلى إصلاح القانون المدني المصري الصادر عام 1883م وتألفت لجنة لهذا القانون بقرار من مجلس الوزراء عام 1936م وأسندت إليه رئاسة اللجنة في 1936/6/28م وتم عرض القانون على الرأي العام وإعادته للتنقيح، وعلى الرغم من اشتماله على كثير من النظريات العامة والأحكام التفصيلية للفقه الإسلامي، جاء النص في مادته الأولى أن الشريعة الإسلامية تعتبر مصدرًا رسميًّا احتياطيًّا يلجأ إليه القاضي إذا لم يجد نصًّا قانونيًّا ولا عرفًا يمكنه الرجوع إليه، فإن الشيخ التيدي بدا غير مقتنع بهذه الخطوة المحدودة في الرجوع إلى مبادئ الفقه الإسلامي، واعتبر هذا الرجوع الجزئي لهذه المبادئ أمرًا غريبًا يتناقض مع العقيدة الإسلامية، ويبلغ هذا الأمر في نظره أن يكون دعوة إلى هجر التشريع الإسلامي.

ومدار الخلاف بين الرجلين أن السنهوري يشترط الاجتهاد وإحياء الفقه الإسلامي قبل الاعتماد عليه في استنباط القوانين، على حين يسلم التيدي بأن الفقه الإسلامي حي لا يفتقر إلى أي شيء وهو صالح للاستمداد منه في الوقت الحاضر، ولعل عدم رضاه عن صنيع السنهوري هو الذي حفزه على تأليف كتاب المقارنات التشريعية

ومهما يكن من أمر ففي نهاية الأمر لجأ الشيخ التيدي إلى إثبات تأثير الفقه الإسلامي في القانون الفرنسي لبيان رقي الفقه الإسلامي ونضجه وتطوره وصلاحيته للاستمداد منه، والغرض من إيراد هذه الحكاية أنه رغم اعتراض الشيخ التيدي إلا أنه ورغم اعتراضِه على صنيع السنهوري باشا فإنه لم يصف. هو أو غيره من المعاصرين. مجهوداته بالانسلاخ أو الرِّدَّة أو الكفر بالشريعة[1].

ج -تطبيق الشريعة وتقنينها في بلاد أخرى غير مصر

بعد أن حُرِمَ السنهوري باشا من تطبيق هذا القانون في مصر قرَّر أن يغادر مصر

---

(1) راجع: مقدمة تحقيقنا لكتاب المقارنات التشريعية بمشاركة أ.د: محمد أحمد سراج الدين- دار السلام- الطبعة الأولى- 2001م.

واتجه إلى العراق، ووضع لهم التشريع العراقيَّ، ثم أطلع على التشريع الأردني، وقد نحا في التشريعين أكثر إلى الشريعة الإسلامية بصورتها الموروثة، وكانت فكرة السنهوري باشا هي أن كتب الشَّريعة تحتاج إلى صياغة جديدة حديثة معاصرة، ولم يكن ذلك اعتراضًا على الشريعة، بل هو اعتراض على أسلوب كتابتها، وكان يريد تطوير القانون المدني، ونفذ ذلك في القانون العراقي.

ثمَّ جاءَ بعد ذلك الشَّيخ عبد العزيز الخيَّاط وهو أحد مشايخِنا، وأرادَ أن يضعَ قانونًا مدنيًّا في الأردنِ، لكن الذي نقوله: إنَّ صاحبَ القانون المدني هو عبد الرزاق السنهوري. فقد أرسلوا إليه وعرضوا عليه المخطط فقال: هذه هي الخطوة الثَّانية، لكنَّه لم يشتركْ في صياغة القانون الأردني إلَّا أنه وصفه بأنه الخطوة الثَّانية بعد الخطوةِ التي حدثت بالعراقِ، وعندما نقرأ القانون الأردني نجده أقرب إلى الفقه الإسلاميِّ من القانون المصريِّ.

أما سوريا فأخذت القانون المصري كما هو، وأفغانستان أيضًا فعلتْ نفس الأمر الذي حدث في سوريا وترجمت القانونَ بعد تأكدهم أنه يطبق الشريعة، وقتها قَدِمُوا إلى مصر وطلبوا استكمال القانون كي يلمَّ بالمستحدثات من الأمور وبدأت العلاقات بين مصر وأفغانستان وذلك في 2007م.

والخلاصة أن عبد الرزاق السنهوري باشا ومن حوله ومن عاونه ومن عاصره من العلماء كانوا مسلمين ولم يبغوا أبدا الخروج على الشريعة والتنكر لها، بل على العكس يسروا سبيل الانتفاع بها وتطبيقها في المجال القانونيِّ(1).

ويؤكد هذا المعنى الذي ذكرناه من أن واضعي القوانين المصرية كانوا ملتزمين بالإسلام ولم يخرجوا عنه قط، بل بذلوا ما في وسعهم على سبيل الاجتهاد لا على سبيل الإنكار أو الطغيان على الشريعة الغراء، شهادة الإمام الشيخ محمد أبي زهرة على هذه

(1) راجع: مقدمة تحقيقنا للمقارنات التشريعية (ص 8).

التجربة وتلك المحاولة، فهو رجل نثق في دينه وعلمه وكان مثالًا للعالم الشرعي المتمكن في علمه، والذي عرف على مدى حياته بأنه لم يكن يخاف في الله لومة لائم، كان يعترض علميًّا على ما لا يراه مناسبًا أو يرى فيه إجحافًا أو خروجًا عن مقتضى اجتهاده واختياره، يقول في بحثه الماتع الذي نشره في مجلة: القانون والاقتصاد، التي كان يصدرها أساتذة كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول، في العدد الثالث من السنة السابعة عشرة في سبتمبر سنة 1947م، وهو البحث الذي نشر فيها بعد كمسألة مستقلة تحت عنوان: "قانون الوصية والجديد فيه".

كتب يقول: «منذ سنة 1936 ورجال الفقه يدرسون وينقبون ويجتهدون موازين بين نظريات الفقه المختلفة ليجددوا القانون المصري في شتى نواحيه في دراسة متسعة الأفق، متشعبة المسالك؛ لاستخراج قانون مدني يقوم على أسلم المبادئ التي أنتجها الفكر القانوني في القرون الحديثة في أوروبا، ويكون قريبًا من موروث الشرق الإسلامي، ومن تلك المثرية التي خلفها فقهاء المسلمين».

إلى نهاية كلام الشيخ الذي يبيِّن لنا الحقيقة، ويؤكد لنا أن المتطرفين والمتنطعين الذين يرمون أهل العلم وأهل الديانة بالشرك والردة هم المخطئون وهم الآثمون، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وننتهي من خلاصة ما سبق من حديث إلى أن الدساتير المصرية كلها أخذت في الاقتراب من الشريعة الإسلامية على النهج الكامل بداية من السنهوري باشا وتلامذته، حتى الدساتير الأخيرة التي نصت على أن مصر بلد إسلامي وأن التشريع الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع، وتأسيس المحكمة الدستورية العليا التي تراقب مطابقة القوانين للشريعة الإسلامية.

ونطلع الشباب على كذب وبهتان دعاوى أصحاب الدين الموازي والجماعات المتشددة، التي ترمي المصريين بالخروج على الإسلام من عهد محمد علي باشا إلى الآن،

وهذا كذب لأن محمد علي لم يبطل الحدود، وإسماعيل باشا لم يرفض المجلةَ العدليَّةَ إلا لأسباب سياسية تتفق مع الشريعة، ونحن عندنا تاريخ طويل نسير فيه مع الشريعة الإسلامية قلبًا وقالبًا.

وعلى الصعيد السياسي فإن خطاب رؤساء مصر خاصة في المناسبات الدينية يقر بالإسلام دينا للدولة، وعندما تطالع تلك الخطابات يقع في روعك أن الذي يوجه الخطاب شيخ الإسلام أو خليفة المسلمين المنوط به حفظ هذه الأمة في دينها ودنياها، وليس رئيس الجمهورية المدني في الدولة المدنية الحديثة، ثم إن النبي ﷺ حثنا على اتِّباع الحكام وعدم الخروج عليهم طالما أنهم يقيمون فينا الصلاة قال ﷺ: «**إنَّه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سَلِمَ، ولكن مَن رضي وتابع**» قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «**لا، ما صلوا**»[1].

والحمد لله فإننا شاهدنا حكامنا يقيمون الصلاة في الجمع والأعياد ويعلنون ذلك، ولم يمنعوا فينا الصلاة أبدا.

***

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع... (1854) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

الفصل الثاني

تمييز الدين الموازي

ونظرية الهرم المقلوب في فكر المتطرفين

تمهيد

إن الجماعات المتطرفة والتي خرجت على جماعة المسلمين وسوادهم الأعظم، وشقت صفوفهم، ورفعت السيف في وجه سلطانها ونظامها، هؤلاء هم ورثة المنافقين الذين خرجوا على جماعة المسلمين في عهد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشأوا لأنفسهم مسجدا وأقاموا جماعات خاصة (موازية)، فيما سمي في سيرة سيدنا رسول الله بمسجد الضرار، والذين نزل فيهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110)﴾ [التوبة: 107 – 110]

فإن المنافقين في عهد سيدنا رسول الله أظهروا الطاعة حيث أقاموا مسجدا للصلاة، وحضروا فيه الجماعات، ودعوا الناس للتوافد إليه، ولكن حقيقة أمرهم أنهم كانوا يريدون تفريق كلمة المسلمين وإنشاء مؤسسة موازية للمسجد النبوي الشريف الذي يجتمع فيه الصحابة حول سيدنا رسول الله، مما سيترتب عليه إعلاء قيادات موازية، والترويج لأفكار موازية من المؤكد أنها ستهدم المجتمع، لأن المنافقين إنما دعاهم للنفاق طلبهم للسلطة، والسلطة دنيا، والدنيا تفرق ولا توحد أبدا، فإن عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين كان يتطلع لأن يكون ملكا على المدينة، ويرى في مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ضياعا لأحلامه وهدما لطموحاته في الملك.

وقد ظهر في بني إسرائيل أمثال هؤلاء وهم أتباع السامري، الذي استغل فرصة ذهاب موسى عليه السلام لتلقي الوحي، فغرر بقومه ولبس عليهم أمر دينهم، فصنع لهم العجل وطلب منهم عبادته، كآله محسوس مجسم، بدلا من آله موسى الذي لا يستيعون رؤيته أو الإحاطة به، وهو بذلك أضل قومه في أثمن ما يملكون إنه عقيدتهم التوحيدية إنه عقيدة التنزيه والسمو.

قال تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ [طه: 87 – 94]

وانظر إلى الاعتذار الذي قدمه نبي الله هارون عليه السلام، لقد خشي أن يتهم بجريمة التفريق بين بني إسرائيل. مما يشير إلى جريمة اجتماعية ارتكبها السامري ومن عاونه فضلا عن الجريمة العقائدية الدينية التي فعلها بتعبيد بني إسرائيل للعجل، إنها تفكيك المجتمع وتقسيمه فرقا وأحزابا وجماعات، بإنشاء الدين الموازي والإله الموازي والقائد الموازي والنص والأوامر الموازية، وقد بقي حتى الآن في اليهودية أثر للتفريق الذي أحدثه السامري.

وإذ نتحدث عن الدين الموازي والثقافة الموازية يجدر بنا الحديث عن جماعة الإخوان المسلمين والتي أحدث ظهورها هزة عنيفة ودمارا كبيرا في المفاهيم الإسلامية الراسخة من حيث ربطت الجماعة أغلب المفاهيم الشرعية بالسياسة والاستيلاء على السلطة، وفي هذا الطريق عادت الجماعة المناهج الأزهرية في الدراسات الدينية

وخرجت عن المألوف والمتعارف عليه في أوساط الأزهر العلمية، فضلوا عن المنهج الصحيح والطريق القويم، ولم يلتزموا بأي من النظريات الموضوعة للاجتهاد والفهم والاستنباط للأحكام الشرعية بمراعاة الواقع والمقاصد والمآلات وغير ذلك. وهذا المنهج هو الذي يمثل المحجة البيضاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ، والتي سار على آثارها كافة المسلمين عبر العصور.

***

المبحث الأول

نظريات الأصول السبعة

هذه النظريات أو الأسس هي عبارة عن خلاصة ما استنبط من النظر في إبداع المسلمين في علوم اللغة والفقه والفلسفة والأصول والنحو والصرف والكلام والتفسير وغير ذلك، فصارت وعاءً للعلم والفكر، والإمام الشافعي واضع علم أصول الفقه هو أول من اهتم بمسألة المنهج ووضع قواعد الفهم والاجتهاد والتفكير، ولفت الانتباه إلى أن النص يحتاج إلى فهم ويحتاج إلى تطبيق ويحتاج إلى سياسة ويحتاج إلى واقع أي محل، والفهم والتطبيق والسياسة ليست هي عين النص بل هي أمور زائدة.

ولقد استقى الإمامُ الشَّافعيُّ علم أصول الفقه من علوم كثيرة مثل النَّحو والصَّرْف والمنطق والبلاغة والفقه، ومن مدرسة الصحابة، فما ذكره الإمام الشافعي في رسالته موجود عند الصحابة رضوان الله عليهم، يستطيعُ المسلم من خلاله أن يفهم النَّص ويُدرك مكامنَه، وقد جاء من بعده الخطيبُ البغداديُّ فعزا كلامَ الشافعي إلى قائِليه من الصَّحابة وغيرهم، أي أنَّه حقَّقَ كلام الرِّسالة ونسب كل قول إلى صاحبه؛ وألَّف في هذا الأمر كتابه الماتع: «**الفَقيه والمتفقِّه**».

وعندَما نقرأُ الرسالة للشافعي نخرج بسبع نظريات أو أسس أصولية يتميَّز بها دارسها عن غيره من المتشددين، وهي التي يحصِّلُ بها الأصولي دينَه، وبداية هذا الأمر تتمثل في تساؤل يطرحه الأصولي على نفسه وهو: كيف أحصل ديني؟ والإجابة هي أنه فكَّر في مجموعة مشكلات وتساؤلات متتالية: ما الحُجَّة؟ كيف أوثقها؟ كيف أفهمها؟ ما دلالتها؟ ما القطعي منها وما الظني؟ كيف أرجح بين ما تعارض منها؟ من يقوم بالاجتهاد وما هي شروطه؟ إلى آخر ذلك من التساؤلات المنهجية التي ترسخ لأمور

ثلاثة هي: مصادر البحث، وطرقه أي أدواته وآليات الاحتجاج والاستدلال، ثم شروط الباحث.

وهذه الثلاثة هي التي قام عليها المنهج العلمي التجريبي في العصر الحديث.

1 – **نظرية الحجية:**

وفيها نجيب على التساؤل: ما الحجة التي يمكن الاعتماد عليها لاستنباط الأحكام الشرعية بناء على إيماننا بالله ورسوله؟ والحجة في علم الأصول تأخذ من القرآن باعتباره النص الموحى به ومصدر الشريعة والأحكام، وهو المعصوم من التحريف والتبديل، والمنقول إلينا بالتواتر فهو قطعي الثبوت، ولأنه كلام الخالق الذي آمنا به وصدقنا رسوله صلى الله عليه وسلم، وتعاهدنا بالتزام أوامره ونوهيه، ونحن محاسبون يوم القيامة على مدى التزامنا بهذا العهد، وتأتي السُّنَّة بعد القرآن مبينةً له ومفصلة لأحكامه، حيث أمرنا القرآن ذاته باتباع رسولنا صلى الله عليه وسلم وطاعته والاقتداء به حيث قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: 64] وجعل تعالى لنبيه طاعة مستقلة حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: 59] والحجة وضَّحها الله لنا، وتركها لنا سيد الخلق ﷺ الذي قال: «تَركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسنَّتي". فالحجة الكتاب والسنة.

2 - **نظرية التوثيق:**

وفيها نجيب على التساؤل: كيف نوثق نصوص الوحي: القرآن والسنة. من حيث الإسناد والرواية؟ وهي عبارة عن رؤية كاملة لقضية نقل النص شفاهة، وما استلزمه من إيجاد علوم خادمة، كالجرح والتعديل، ومصطلح الحديث، والقراءات، لنقل وضبط النص الشرعي.

ذلك أنه بعد بيان الحجة ، تأتي مرحلة إثباتها.

فنقل القرآن وقراءاته بالتواتر، والسُّنة مقسمة إلى «آحاد» منقولة من طريق سلسلة من الرواة المفردين، وأخرى «متواترة» منقولة عن جم غفيرٍ من الرواة، والأولى قد يعتريها القصورُ أو الخطأ أو حتَّى الكذب؛ مما يُحدِث نوعًا من الثقة الظنية لدى الإنسان، بينما يُحدِث التواترُ نوعًا من أنواع العلم اليقينيِّ.

والتواتر عبارة عن نقل الجمع الغفير من الرواة عن مثلهم، ويشترط فيهم العدالة والضبط والثقة، ويشترط أن يأتي تواترهم بحيث لا يتصور تواطؤهم على الكذب، وهذا التواتر هو الذي يحدث من اجتماع المريدين وطلاب العلم على شيخهم للأخذ منه، ولا يمكن أن يؤخذ التواتر من جماعة اجتمعت على الصبية ويتصور تواطؤهم على الكذب والتدليس عصبية لجماعتهم ومذاهبهم.

والحمد لله قرأنا القرآن على الشيخ محمد إسماعيل الهمداني والشيخ عبد الحكيم عبد اللطيف والشيخ عبد العزيز الزيات، وفي هذا الوقت عندما كنت أبحث عمَّن أقرأ عليه أجد أناسًا كثيرين؛ وهم الذين يمثلون فكرة التواتر في حفظ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكذلك الأمر في سنة النبي ﷺ، فقد قرأتُ البخاريَّ[1] على الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري، وقد أخذه الشيخ عمَّن فوقه من المشايخ المتصلة السند إلى رسول الله ﷺ، وقرأت الكتب الستة؛ البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي وسنن ابن ماجه وسنن النسائي في الأزهر وختمتُها وأجزتُ الطلاب فيها، وهذه الكتب هي العمدة في كتب السنة، ثم يأتي بعد الكتب الستة السابقة موطأ الإمام مالك، وقد قرأته على مشايخنا أيضًا، ومسند الإمام الشافعي، ومسانيد الإمام أبي حنيفة ومسند الإمام أحمد وهو أوسع كتب السنة.

---

(1) أحاديث البخاري بالمكرر 7275 حديثًا، أمَّا غير المكرر فإنه 4000 حديث، وبعض الناس قد يزيد من ناحية الإحصاء على اعتبار أن هذا ليس مكررًا.

وقد تقدَّم حث المرتضى الزبيدي على التوثيق وما أولاه لهذه القضية من اهتمام حماية للسنة النبوية وتفعيلا لها، فشرح إحياء علوم الدين وخرَّج أحاديثَه، وكان يقرأ البخاري في القلعة، وعمل خطة لصحيح البخاري ينظم بها ويسهل على عوام الناس حفظ ما ورد به من أحاديث، تمثَّلت في تقسيمه إلى الثلاثيات والرباعيات، وحافظ الأزهر الشريف على قضية التواتر في علوم الكتاب والسنة النبوية من خلال إنشائه لكليَّة أصول الدين التي تُعنَى بالتفسير والحديث، والحمد لله لا يزال الأزهر يعج بعلماء الحديث الذين لا مثيل لهم في العالم الإسلامي، قديمًا وحديثًا، على سبيل المثال الشيخ المرحوم موسى شاهين لاشين الذي شرح صحيح مسلم شرحًا مطولًا سماه: «فتح المُنعم شرح صحيح مسلم». وغيره من العلماء الذين راعوا في علومهم التواتر، يتسمون بالدقة والتحري والحفاظ على قضية التواتر.

وظهر حديثا مصطلح يقابل مصطلح شروط الأئمَّة وهو ما نسميه اليوم بـ«مناهج المحدِّثين» ومن خلالها نعرف مناهجهم في تآليفهم وفي مجال الرواية والدراية.

3 - نظرية التأويل:

وفيها نجيب على التساؤل: كيف نفهم النصوص وما هي الأدوات، وفيه الحديث عن قضايا دلالات الألفاظ ومراتبها والمفهوم والمنطوق والحقيقة والمجاز والمجمل والمبين والأمر والنهي والناسخ والمنسوخ .

وتعتمد نظرية التأويل على الإحاطة بقواعد اللغة ومعرفة مفرداتها وخصائصها، إضافة إلى الإلمام بالأحكام الشرعية.

4 - نظرية الاستدلال:

فهم الكتاب والسنة: فبعد معرفةِ الحجَّة وهي المتمثلة في الكتاب والسنة، ومعرفة أهميَّة الثبوت والتَّوثيق في كلٍّ منهما، كان لابد من إيراد سؤال مهم وهو: كيف يمكن فَهْمُ هذه الألفاظ وتلك التَّركيبات؟ وهنا تتولَّد نظرية كبيرة تتناول اللفظ والمعنى،

وتسمَّى «نظرية الدلالة» أي كيف تدل الألفاظ سواء أكانت مفردة أم مركبة على معانيها؟ وبأي وسيلةٍ تكون تلك الدلالة؟ وما هي أقسام هذه الألفاظِ: خاصٌّ أم عامٌّ؟ مطلق أم مقيد؟ أمر أم نهي؟.. ثم ينتقلون إلى ما هو أبعد من ذلك فيقولون: هل هذا الأمر يفيد التكرار أم المرة الواحدة؟ وهل يفيد الفور أم يفيد التَّراخي؟ وهل يفيد الوجوب أم لا يفيد؟ وهكذا يتعمَّقونَ في هذا الجانب بما يمكِّن من تكوين نظرية عن كيفية فهم النصوص.

وحسب قواعد الاستدلال يميز الطالب بين ما يصح الاستدلال به وما لا يصح، ودرجة الترجيح عند التعارض، وما هو قطعي وما هو ظني من حيث الثبوت الإسنادي أو الدلالة التأويلية.

واشتق الأصوليون دليل الإجماع وحجيته، وهو الدليل الذي قام بدور في توسيع دائرة القطعي والمتفق عليه، ونقل كثيرا مما هو ظني إلى القطعي. ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾. فإن الأدوات اللغوية وحدها لا تكفي لتفسير فاء التعقيب في قوله: (فاغسلوا)، فقد يقع الظن من جهة اللغة بأن الوضوء يأتي بعد الصلاة، وليس في اللغة ما يمنع من هذا التأويل، ولكن الإجماع أخرج البحث أو الاستدلال بالآية من دائرة الظني إلى القطعي، فقال: إن الوضوء قبل الصلاة.

ومن مجالات التجديد في إطار نظرية الاستدلال هو خدمة السنة بإعادة قراءتها وفهمها جيدا، وتمييز ما كان منها وحيا وتشريعا لا يرتبط بزمان أو مكان أو أحوال فيصح الاستدلال به في كل قضية، وما كان على سبيل الاجتهاد أو الفتيا أو القيادة السياسية والعسكرية فلا يصح الاستدلال به إلا في القضايا المشابهة وقوعا، وتحديد الواقع والأحوال التي توجب أو تحتم العمل بما جاء في السنة الاجتهادية، وتجعل من العمل به هو الأصلح والأصوب.

5 - نظرية الإلحاق:

وجد الأصولي نفسه أمام مستجدَّات ووقائعَ متكاثرة تطرأُ كل يوم؛ فاضطرَّ إلى نظرية «الإلحاق» التي تُعرف عند الأكثرين بـ«القياس» والتي يسميها الظاهرية بـ«جريان النص على أفراده» والتي يسميها آخرون بـ«تطبيق المبدأ العام» ... إلى آخر ما هنالك من ألفاظ مختلفة. فمثلًا يقول صلى الله عليه وسلم: «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام»[1]. ونجد أنه في العصور المتلاحقة تظهر لنا أشياء ليست من الخمر في طبيعتها، ولكن يتم إلحاقها بذلك الخمر وتحريمها؛ وذلك لأنها في أثرها من الخمر؛ لأنها مُسكِرة.

فنحن عندنا النُّصوصُ محدودة، والوقائع كثيرةٌ، وعندما أحكمُ على واقعةٍ جديدةٍ في ظلِّ الشريعة لابدَّ من استخدام القياس، مع العلم أنَّ الشاذَّ يحفظ ولا يقاسُ عليه، فأنا عندما أقيسُ أقيسُ على ما كان على سَننِ القياس.

وحسب نظرية الإلحاق يتدرب المجتهد على ملكة القياس، وإلحاق الفروع المستحدثة بالأصول المتفقة معها في العلة والمنصوص عليها .

فإن النصوص محدودة بلفظها ولا تشتمل على كل الحوادث والمستجدات التي تطرأ على الواقع النسبي المتغير، وهنا يأتي دور القياس والإلحاق ليمكننا من التوصل إلى الحكم الشرعي في الوقائع المستجدة غير المنصوص على حكمها، باتباع القياس والإلحاق وإجراء الكلي على جزئياته، أو تطبيق المبدأ العام على أفراده.

6 - نظرية الترجيح:

فقد وجد الأصولي نفسَه في حاجة إلى أدلة أخرى يعتمد عليها، وتسهِّل له التعامل مع القضيَّة، وتوضح له الفهم، وتجعله أكثر تمكنًا في إصدار الأحكام بسرعة، ولكن

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأنَّ كل خمر حرام (2003) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

بناءً على الكتاب والسُّنة، وبها لا يعطِّل مصالح الناس وعمارة الأرض؛ أي تحري السرعة والدقة. ومن هنا نشأت أدلة جديدة اختلفوا بدورهم حولها: هل هي أدلة مستقلة عن الكتاب والسُّنة أم لا؟ هل لنا فيها حاجة أم لا؟ هل تتوفر لها الحجية؟ وما هي درجة حجيتها إن توفرت؟

وحسب نظرية الترجيح يتدرب المجتهد على آليات وأدوات لفك التعارض بين الأدلة حسب درجة حجيتها. يستخدم المجتهد مجموعة من الأدلة الشرعية كمعين له في فك التعارض، وهي: قول الصحابي، العرف، وشرع من قبلنا، الاستحسان، الاستصحاب وغير ذلك.

7 - **نظرية الإفتاء:**

وفيها يتدرب الدارس على تنمية ملكة الإفتاء، وتحقيق شروطه، بمعرفة الواقع، وكيفية الربط والإسقاط بين الحكم الشرعي والواقع الموافق له المطابق لحكمه. والإفتاء يحتاج إلى تكوين الملكة الأصولية القادرة على فهم المسائل التراثية، إضافة إلى فهم واقع المستفتي، إضافة إلى معرفة كيفية الوصل أو الربط بينهما بإيقاع المطلق على النسبي.

إن الأصولي وجد نفسه- رغم أنه حدد الحُجة وتأكد من ثبوتها، وفهم دلالتها، وبيَّن القطعيَّ والظني منها، وعرف كيف يتم الإلحاقُ، وكيف يتم الاستدلال- يريد أن يدرك الواقع؛ لأنه بإدراك الواقع تختلف «الفتوى» من حال إلى حال، فأراد أن يحقِّق مقاصد الشرع، وأراد أن يفكَّ التعارض بالترجيح، وأراد أن يقوم بإدراك للواقع حتى يوقع الوحي عليه، وهذا كوَّن لديه نظرية الإفتاء التي استلزمت بدورها ضرورة أخرى؛ هي توضيح شروط الباحث أو شروط المجتهد، ومن هو الذي يمكن أن يفتي؛ «ذلك الذي يكون قادرًا على إدراك الواقع، وقادرًا على إدراك النص، وقادرًا على إنزال

النص على الواقع» وهذه هي حقيقة المجتهد؛ فجاءت نظرية الإفتاء لتلم شعث هذه المتفرقات[1].

هذه هي النظريات السبع، وهي تعدُّ أبرز ما يميز مَنْ يفهم صحيح الدين الإسلامي عن غيره ممَّن لم يفهمْه؛ ولذلك عندما نذكر لتلك الجماعة المتشددة هذه النظريات نجد أنهم يعرفونها شكلًا واسمًا، لكنهم لن يستطيعوا تطبيقَها؛ لأنَّهم لو طبقوها فلن يقترفوا كل هذه الأفعال الإجرامية من إهدار للدماء تدمير للنفس البشريَّة.

***

(1) أوضحنا هذه الأمور وغيرها بشيء من التفصيل في كتابنا: الطريق إلى التراث الإسلامي. فلينظر هناك.

المبحث الثاني

البناء التعليمي في الأزهر ونتيجة عدم اتباعه

اتبع هذا البناء شكلا هرميا يبدأ من قاعدة عامة ويذهب إلى القمة حيث التخصص، ولا يمكن الوصول إلى القمة إلا بعد المرور بمراحل متعددة وخطوات في البناء تؤسس المجتهد وتمده بالعلوم والمعارف الضرورية للوصول إلى قمة هذا البناء، يتشكل خلال هذه المراحل فكره، فيصبح قادرا على التمييز بين الأمور فيضعها في نصابها الصحيح وموقعها المناسب من فهم الدين وأحكامه.

ولو ضربنا مثلا بتعليم البسملة، فقد شَرَحَها المشايخ في الأزهر الشريف باهتمام شديد وعرضوها على الطلاب على أنها نقطة الانطلاق العلمي وكانت معانيهم وشروحهم لها تذهب بالطالب إلى نقاء الفِكر وتهذيب الرُّوح، وتجعل البدايات دائمًا وأبدًا مبنية على أسس صحيحة وسليمة، فقد كانت طبيعة الدراسة الأزهرية في بدايتها تقتضي دراسة البسملة على مدار ستة أشهر، ومرورها على كافة العلوم، فيتناولها الشيخ مع طلابه من ناحية المنطق واللغة والتصوف وبقية العلوم التي تُدرس في الأزهر، وهنا تظهر أهمية التحلية بالصبر لدى الأزهري أمام شيخه حتى يخرج منه العالم الصبور الذي يتحلى بالأخلاق ويخدم العلم.

وتعليم البسملة يمثل نموذجًا من الطَّاعة للمشايخ في العلم، وهذا هو أساس التَّربية، ومَنْ يلتزم به يخرج إنسانًا مستقيمًا، وهذا الأمر يشبه الشاب المدني الذي يتقدم كي يؤدي الخدمةَ العسكرية الوطنيةَ فيأمره القائد مثلًا بحفر حفرة فيحفرها، وبعد أن يتمَّها وينتهي من الحفر يقول له قائده: أعد الرمل الذي أخرجتَه منها إليها أي أعدها كما كانت. فيتضجر الشاب المجنَّد الجديد، لكن القائد يفعل هذا الأمر من أجل أن يُعوِّدَه على طاعةِ الأوامر حتَّى إذا جاء وقت الحرب وهجم العدو نَفَّذَ كلام قائدِه، فنحن كذلك في الأزهر عندما دخلنا وتعلمنَّا بسم الله الرحمن الرحيم، وعرفنا الأصول

والفروع، وأنعم الله علينا بصفات الجمال وهي صفة الرَّحمانيَّة المتمثلة في الرَّحمن والرحيم من البسملة التي هي من أسماء الله الحسنى.

وأسماء الله الحسنى مائة وثلاثة وخمسون اسمًا في القرآن الكريم، ومائة وأربعة وستون اسمًا في السُّنَّة المطهرة، وعند الإجمال 150 + 164= 314 اسمًا، لكن بعد حذف المكرر منها تكون أسماؤه سبحانه مائتين وعشرين اسمًا، وهي تمثل منظومة القيم التي عاشها المؤمنون، فهناك أسماء غير التِّسعة والتسعين اسمًا المعروفة، والدليل على ذلك قول النبيِّ ﷺ: **«اللّٰهم إني أسألك بكل اسم هو لك سمَّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك....»**[1]. فإذًا يوجد غير تلك الأسماء المعروفة بالتسعة والتسعين اسمًا.

والحديث عن البسملة يجرنا إلى سؤال وهو: لماذا قال الرَّحمن الرحيم؟ والإجابة هي أنه جلَّ وعلا قالَها لأنَّ هذه الأسماء تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم للجمال، وقسم للجلال، وقسم للكمال. فمن قسم الجمال: الرحمن الرحيم الرؤوف العفو الغفور. ومن قسم الجلال: المنتقم الجبار المتكبر العظيم جل جلاله، ومن قسم الكمال: الضارُّ النافع السميع البصير، ويدخل فيها ما يُسمَّى بالأسماء المزدوجة مثل الأول الآخر فكلاهما اسم، وكذلك الضار النافع هما اسم واحد، فرب العزة جاء في البسملة باسمين من قسم الجمال وهما الرحمن الرحيم.

فبجانب تعليم البسملة التي تشتمل على الجمال يُعلِّم الشيخ في الأزهر أيضًا تلاميذه مفهوم الرحمة من خلال حديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **«الرَّاحمون يرحمهم الرحمن ارحمُوا مَنْ في الأرض يرحمكم من في السماء»**[2].

---

(1) أخرجه ابن حبان في صحيحه (972)، (3/253) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين (1924) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

وهذا الحديث قد رُوي في قوله: «**يرحمكم**» بضم الميم وسكونها؛ أما على رواية الضم فجملة يرحمكم تكون للاستئناف ويكون المعنى حينئذٍ أنها للدعاء؛ فمعنى الحديث أن رسول الله ﷺ يأمرُنا أن نرحم مَنْ في الأرض ثم يدعو لنا برحمة الله سبحانه وتعالى، أما رواية السُّكون فيكون الفعل فيها مجزومًا لأنه في جواب الأمر، وكما هو مقرر في النحو فجواب الأمر مجزوم وعلامة جزمه السكون؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: 4]. بسكون ينقلب؛ لأنه في جواب الأمر، فتقرر أن جواب الأمر في قوة الشرط، والمعنى: إن ترحموا من الأرض يرحمكم من في السماء، ومقتضاه: أنكم إذا لم ترحموا مَن في الأرض لا يرحمكم من في السماء، وذلك للقاعدة الشهيرة أن: الشروط اللغوية أسباب شرعية. والسبب هو ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم لذاته، وبِناءً عليه يُفهم الحديث على أننا إذا نفَّذنا الرَّحمة كما أمرنا استحققنا الرحمة من الله، وإذا لم نرحم لا نستحق الرحمة من الله، ويؤيِّد هذا المعنى قول النبي ﷺ: «**مَنْ لا يَرحمُ لا يُرحم**»[1].

يجلس الطَّالب الأزهري يدرس على مدار ستة أشهر البَسلمة ويغوص مع الشيخ في معاني الرحمن الرحيم، ويعرف ما الاسم وما الصِّفة، ويعلم أن الاسم علم على الذات، والصفة معنى قائم بالذات، فالرَّحمة معنى قائم بالذات فلذلك هي صفة، والاسم «الله» هو علم على الذات الواجب الوجود.

وبعد الرحمة ينتقل الطَّالب إلى تعلم الرفق، فيتعلم حديثَ عائشة رضي الله عنها عندما كانَ النَّبيُّ عندها ومَرَّ يهودي فقال للنبي ﷺ: السام عليك يا محمد- يعني الموت، فقال النبي ﷺ: «**وعليك**». فغضبت السيدة عائشة من ردِّ النبي ﷺ عليه

(1) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (5997)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (2318) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقالت: إنه يقول لك السام عليك وأنت ترد عليه قال لها: وماذا قلت له؟ قلت له: «وعليكَ». ثم قال لها: **«إنَّ الله يحبُّ الرفق في الأمرِ كلِّه»**[1]. وبعد ذلك نتعلَّم حديثَ: **«إنَّما الأعمالُ بالنِّياتِ»**[2]. ومن خلال هذا الحديثِ نأخذ النَّظارة التي نلبسها حتى نكشف ما أمامنا ونعلم أن كل الأمور لا بد فيها من نية.

ثم بعد ذلك ينتقل الطالب إلى تعلم حديث جبريل: ما الإسلام؟ وما الإيمان؟ وما الإحسان؟[3]، ويتعلم أن الإسلام له خمسة أركان وقواعد يقوم عليها، وبعد ذلك يتعلم أن الجهاد ذروة سنام الدين فيدرسه ويفقه أحكامه، ويعلم أنه موجه لصد عدوان المعتدين كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة:190]. فيفهم أن الجهاد أمر موجه ومحدود بجهاد للمعتدين، الذين يقاتلونكم فقط، فهو إذا استثناء من القاعدة العامة وهي قاعدة الرحمة والرفق والسلام، لأن الأمر فيه قتال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾. فقاتلوا في الآية ليس أمرا مطلقا موجها لأي فئة وفي أي وقت كما يفعل المجرمون من الجماعات المتطرفة التي خرجت عن الدين وهو منها براء.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾. تفسيرها : لا تتمادوا في الجهاد إلى غير غاية، وإنما غايتكم رد العدوان والانتصار من الظالم، أما الانسياق وراء رغبات الانتقام وشهوات السادية والتدمير فهو أمر محرم ومُجَرَّم، فإن انتصرت وأقدرك الله على من ظلمك

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله (6024)، ومسلم في كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (1706).

(2) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في مقدِّمة صحيحِه، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ (1)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية (1907) من حديث عمر رضي الله عنه.

(3) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان (50)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (9) و(10) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالعفو أجدر بك، والرحمة هي سبيل المؤمن وغايته، يحرم عليه المثلة، ويحرم عليه قتل النفس بغير حق، ويحرم عليه إيذاء الأسير.

ويتعلم الطالب الأزهري تقسيمات الأحكام ونسبتها في الأوامر، ويعلم أن حظ ما تعلم بالأخلاق والقيم هو النصيب الأكبر في الأوامر، فالأحكام الفقهية من بيع وشراء وطعام وشراب وصلاة وعبادات في الأحاديث النبوية نسبتها 3٪ فقط تترجم بألفا حديث فقط من مجموع ستين ألف حديث وردت بالأمر والنهي، وفي القرآن لا يزيد عدد الآيات التي تعلقت بالأحكام الفقهية عن ثلاثمائة آية فقط بنسبة 5 ٪ وباقي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تعالج أمر التزكية والأخلاق والقيم.

وما سبق بيانه يوضح الفارق الحقيقي بين الدراسة التي يكتسبها الطالب في الأزهر الشريف وكيف تتشكل شخصيته الفكرية والعلمية على العقل والحكمة، وبين الدراسة على أيدي قادة الجماعات المتطرفة التي نبتت في أمتنا فقلبت الأصول فروعا والفروع أصولا، فخربت الدين وصورته لأتباعها على أنه العبوس والقتل، وأن ذلك طريق يؤدي بصاحبه إلى الجنة. ويستدلون خطأ بأقوال الرسول وأحاديثه مثل قوله: «**أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله....**»[1]. وهذا الحديث صحيح في سنده ومتنه، لكنه يقول: أُمِرْتُ. ولم يقل: أُمِرْتُم.

بمعنى أنه ليس أمرا لأفراد المسلمين وعوامهم، بل هو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بصفته قائدا وإماما لجماعة المسلمين، وبما أن كل خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم هو خطاب لأمته ولكن الخطاب هنا تعلق بأفراد معينين وهم من لهم صفة الإمامة

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم» (25)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (22) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

والرئاسة، فهم المعنيون بالخطاب، وهو أمر محدود كالأمر في الآية السابقة، أمر له ضوابط وحدود وليس مطلقا، ولا يمكن أبدا فهمه على إطلاقه، فقد عايش النبي صلى الله عليه وسلم اليهود والمشركين والمنافقين، ولم يأمر بقتلهم ولا قتالهم، توفي وهو راهن درعه عن بقال يهودي يفتح حانوتا بجوار منزله، وتوفي وقد أسر لحافظ سره حذيفة بن اليمان بأسماء المنافقين الذين هموا بقتله حال حياته، لم يأمر بقتلهم ولا قتالهم، وإنما لأجل الامتناع عن الصلاة عليهم عند موتهم امتثالا لأمر الله ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ **[التوبة:84]**

أما أن تأتي جماعات التطرف والإرهاب فتفسر كلام الله عز وجل وكلام رسوله على غير مراد الله وعلى غير هديه ومقاصده، فتدعو أتباعها وتحثهم على تخريب الديار وتدمير الحضارة وقتل الأنفس بغير حق، ويزينون لهم ذلك تحت مسمى الدين والتضحية بالنفس والمال من أجله، وما الدين إلا أمر بعمار الدنيا وهداية الخلق إلى باريهم وتزكية الأنفس من ضلال الشهوات والإحن والأحقاد.

وفي سبيل تحقيق مآربهم يشوهون منهج الأزهر الشريف ويحاربون أهله ويسخرون من علمائه، حيث لا صبر عندهم ولا مثابرة على تحمل المشاق في سبيل العلم الصحيح بالمنهج السديد، فينسلخون من هذا الطريق ويسهلون على أتباعهم اعتلاء منصة الفتوى والحكم باسم الدين بغير علم ولا هدى.

وهم أبعد الناس عن إدراك الواقع ومعرفة تأثيره في الفتوى والأحكام، يستدلون بأفعال للنبي صلى الله عليه وسلم لا يحسنون توجيهها ولا معرفة مغزاها وهديها، ولا

يدركون جهات التغيير الأربع: الزمان المكان الأشخاص الأحوال، كما أدركها العالم النحرير الإمام القرافي فقال: «وهذه سنة الله تعالى في خلقه فأول بدء الإنسان في زمن آدم كان الحال ضعيفًا ضيقًا فأبيحت الأخت لأخيها وأشياء كثيرة وسع فيها فلما اتسع الحال وكثرت الذرية وعتت النفوس حرم ذلك في زمان بني إسرائيل وحرم السبت... وفرض عليهم خمسون صلاة...إلى غير ذلك من التَّشديدات، ثم جاء آخر الزمان فهرمت الدنيا وضعف الجسد وقل الحبيب ولان النفوس أحلت تلك المحرمات وعملت الصلوات خمسا وخففت الواجبات فقد اختلفت الأحكام والشرائع بحسب اختلاف الأزمان والأحوال وظهر أنها سنة الله في سائر الأمم وشرع من قبلنا شرع لنا فيكون ذلك بيانا على الاختلاف عند اختلاف الأحوال في زماننا وظهر أنها من قواعد الشرع وأصول القواعد ولم يكن بدعا عما جاء به الشرع»(1).

وعوام المسلمين يمتثلون لأمر الله عز وجل فيسئلون إذ جهلوا عن الحكم والفتوى، يسئلون الفئة التي نفرت لتتفقه في الدين كما أمر ربنا فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ **[التوبة: 122]**

وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل:43]. فيقلد العوام العالم المخلص فينجون وتصح عبادتهم ومعاملاتهم، أما الجماعات الشاذة فيربون أتباعهم على الكبر والغرور، لا يظهرون لأنفسهم ولا لغيرهم الجهل أبدا، ولا يقدمون على السؤال، وإن هموا بالسؤال فيسألون خفية الجاهل على شكلهم ومن عصبتهم، فيضلون أنفسهم وغيرهم ، مصداقا لقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه

(1) الذخيرة (10/46، 47) لشهاب الدين القرافي- تحقيق: د. محمد حجي- الطبعة الأولى- دار الغرب الإسلامي- 1994م.

وسلم الذي قال: "**إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**".(1)

وهم في كثيرٍ من الأحيان يرون أنفسهم أهلَ ذِكر، مع أنّهم يخالفون السَّواد الأعظم، والنَّبي ﷺ قال: «**إذا رأيتَ اختلافًا فعليْكَ بالسواد الأعظم ومن شذَّ شَذ في النار**»(2). والآيات والأحاديث التي يستدلون بها موجودة ويوجد غيرها ويوجد ما يؤيدها من أقوال، لكنهم لابد أن يهدءوا قليلًا حتى يفهموا تلك الآيات وهذه الأحاديث فهمًا صحيحًا تابعًا لفهم أئمة الدين.

ونظرة عامة على واقع عهد النبي ﷺ تجعلنا نفهم أن تفكير تلك الجماعات تفكير شاذ خارج عن الإطار العام للدين وخاصة في قضية الجهاد وتعطيله، فنحن نعلم أن وقعةَ بدر الكبرى التي دارتْ بين المسلمين والمشركين وقعت في المدينة، وكذلك وقعة أحد التي وقعت عند جبل أحد وهو جبل بالمدينة النبوية، وحَفْر الخندق كان بالمدينة، عندما ندرك هذا نفهم منه أن الكفَّار في ذلك الوقت كان يهاجمونَ النَّبيَّ ﷺ ويأتونَه فيواجههم، ولم يَعتدِ ﷺ عليهم بل هم المعتدون، ففي بدر انتصر المسلمون، وفي أحد هزم المسلمون بسبب أخطاء الرماة، وهذا أيضًا درس لنا حتى نتعلم الالتزام بالمواقع إلى أن يصرح القائد بالانصراف.

ثم إننا نسأل تلك الجماعات ونقول لهم: هل تعرفُون أن خيبرَ كانت في أعلى المدينة وتبعد من المدينة بمسافة 160 كيلو متر. وأن مكة في الجنوب، وبنو تميم الذين كان منهم مسيلمة الكذاب كانوا في الشرق؟ فإذا أقروا بتلك الأمور نقول لهم: أما لاحظتم هذه الحصار الجغرافي حول النبي ﷺ، الذي من خلاله يريدون انتهاز فرصة الهجوم

(1) صحيح البخاري:ج1/ص50، ح100.

(2) تقدم تخريجه.

عليه ﷺ وأصحابه، فخيبر تريد أن تنزل عليهم، ومشركو مكة يريدون أن يصعدوا إليهم كي يهجموا عليهم، وبنو تميم من الشرق يريدون أن يهجموا عليه هو وأصحابه، أليست هذه الحالة تستدعي أنه لابدَّ أن يبدأ فيباغت العدو للدفاع عن نفسه وعن مدينته وأصحابه وأهل المدينة ونسائها وأطفالها. وهنا نستطيع أن نفهم قولَه ﷺ: «**أمرتُ أن أقاتل الناس...**»[1].

لكنَّ النابتة يفهمون من قوله ﷺ: «**أقاتل الناس**» أن نقاتل كل الناس، لا يقصرونه على العدو الذي يتربص بنا ويكيد لنا، فنقول لهم: لا، ليس المراد كل الناس، إنما المراد بالناس هنا مشركو العرب الذين ناصبوا النبي صلى الله عليه وسلم العداء والمعاداة والحرب؛ لأنه عام أريد به خاص، فهناك فرق بين الناس التي تعني المشركين، والناس التي تعني العالمين، وهنا يقصد المشركين المعتدين.

فإذا ما سألنا عن الدليل على هذا الكلام قلنا له يقول الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣**﴾ [آل عمران:173]. والمقصود في الآية بقوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ**﴾ أي: مَن وصلهم الخبر، وهو فرد واحد هو نعيم بن مسعود، عبر عنه بالَّذين، وهو اسم موصول موضوع للجمع، والناس الذين قالوا ما قالوا هُم نفرٌ من المشركين، والذين جَمَعُوا هم المشركونَ.[2]

لكنهم يقولون: أنتم تريدون منَّا أن نَعصيَ الله ورسوله ونعطل الجهاد. أقول لهم: لا، ليس الأمر كما تفهمون ولكنا نريدكم أن تطيعوا رسول الله، وأن لا تقاتلوا الخلق تحت راية جاهلية عمية؛ لأنَّ تلك الراية هي التي ينتج عنها ما نراه من صد عن سبيل

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تفسير الطبري 402/7، وانظر تقريره الإخبار عن الواحد بمذهب الجمع 364/6.

الله، وضياع لمصالح المسلمين وتهديد لأمنهم وتدمير لعمرانهم، وزيادة الحجب بين الخلق والخالق.

ويتهم أرباب التطرف والإرهاب علماء الدين بالجبن وتعطيل الجهاد، بالاستجابة إلى الاتفاقات الدولية والعالمية التي ارتضتها كل دول العالم وصدقت عليها، مثل اتفاقية جنيف الأولى وجنيف الثانية، ويقولون: نحن لا نريد جنيف الأولى ولا جنيف الثانية، نحن نريد كتاب الله وسنة رسوله فقط.

والسؤال أيضًا يتوجه لهم: وهل نحن لم نرد كتاب الله ولا سنة رسوله؟ في الحقيقة نحن نريدهما معًا، وهذا أمر، وهذه الاتفاقات أمر آخر، فهي اتفاقات لم تنقض كتاب الله ولا سنة رسوله، وجميع العقلاء يقولون بهذا الأمر، ولعل هذا أمر يجعلنا نفرق بين الشخصية الأزهرية وغيرها ممن لم يتمتع بتلك الدراسة في الأزهر الشريف ومعاهد العلم في العالم بذلك المنهج السُّنيِّ السَّنيِّ.

***

المبحث الثالث

فروق بين العقلية الفارقة التي أسستها المناهج الأزهرية والعقلية الخرافية التي أسستها جماعات التطرف والإرهاب

الفرقُ يتضح بين مَن يدرس النظريات المنهجية السابق ذكرها فتكون لديه صنعة وملكة يتحكم بها، وبين من لم يسمع أصلا بتلك النظريات، فيخرج على الناس بكذبه وهو يظن في نفسه العلم والصدق والمعرفة، فالنابتة يمثِّلون كثيرًا حتى يصدقون تمثيلهم ويعتقدون أنهم بتمثيلهم أصبحوا حقيقةً، بل إن الممثلين الحقيقيين الذين نراهم بالشاشات يرفضون أن يندمجُوا في الأدوارِ التي يمثلونها ويقولون: إن هذا جنون وليس تمثيلًا، والممثل الحقيقي في غالب حياته يرفض تكرار الشخصية المخترعة أو نفس الدور، أمَّا هؤلاء المتشددون فهم يندمجون في أدوارهم ويكررون نفس الشخصيات مراتٍ ومرات، حتى يغدو الالتزام تمثيلًا، لأن ما لديهم معلوماتٍ، وليس علمًا.

ويتضح أيضًا الفرق بين الأزهريِّ الحقيقي المتمسك بتعاليم الأزهر والإخواني الَّذي ينتمي إلى الإخوان في أن الأول عنده فَهم النص، وإدراك الواقع، ويملك توجهًا معتدلًا، وعنده جسر يَصل به بين النَّصِّ والواقع، ويملك تربية وأخلاقًا يتعامل بها مع الخلق، ويملك تعاملًا علميًّا مع اللغة العربية، وفهمًا في تناول المصادر الشَّرعية الأمر الذي يقدر مآلات الأمور عنده والحكم على أي شيء.

من هذا المنطلق فإنه لا يصحُّ أن يأتي أحدٌ ويكذب علينا ويقول: إن لديه مشروعًا يُسمَّى مشروع النهضة؛ لأن مشروع النهضة الحقيقي هو الذي وجدناه عند عبد القادر البغدادي، الَّذي أراد أن يُعِيدَ ملكة اللغة؛ لأنَّه رأى أن اللُّغة والفِكر وجهان لعملة واحدة.

والأزهريُّ عندما يتحلَّى بهذه الأمور ويقرأ فإنه يستخلصُ الأمر المفيد للناس كما تستخلص النحلة الرحيق من الزهور ثم تفرزه لنا عسلًا، وهذا على عكس الشخص

الآخر الذي لا يستطيع أن يستخلص شيئًا، بل يورطنا ويهلكنا في فهم خاطئ ويضعنا في سفينة تكون غارقة.

وقد أَوضحنا لك فيما سبق أن الأمور السبعة أو النظريات السبعة استخلصتْ من الرسالة للإمام الشافعيِّ وهي أمور تساعد على التفكير السليم، مع بيان طرف من البناء التعليمي في الأزهر الشريف، الأمر الذي جعل هناك فروقًا واضحة بين الشخصية الأزهرية المتعمقة في العلوم والمعارف وبين الشخصية المتشددة، وهي أمور كان لابد من إيضاحها وبيانها كي نتكلم فيما بعد عن الدين الموازي الذي ظهر في حياتنا بعد التخلِّي عما سبق مما تكلمنا فيه، وقبل أن نتكلم عن النموذج الحقيقي للدين الموازي وهم الإخوان المسلمون وتكوينهم على يد مؤسسهم حسن البنا، ينبغي أن نشير إلى آخر نَفَس في أنفاس محاولات التقدم بأمتنا والنهضة بها مع وضوح حقيقة الدين الموازي.

***

المبحث الرابع

حقيقة الدين الموازي وخصائصه

تعرَّضنا فيما سبق من الحديث إلى أهم ما يمكن أن يجعل الشخص المسلم يفكر بطريقةٍ سليمةٍ، وأشرنا إلى نظريات سبعة ينبغي على كل عاقل أن يدركها، ونبهنا أنه عند إدراك تلك الأمور فلن يحدث ما نراه من إراقة للدماء ودمار للنفس الإنسانية مما نراه اليوم من قِبَل تلك الجماعات المتشددة، فالفكر والعلم يجعلان الإنسان يقف عند فعل يفعله ويتريث في التفكير فيه كثيرًا حتى لا يندرج في متاهات الضياع متأولًا أنه على النهج السليم وهو في الحقيقة يخلق من أفعاله تلك دينًا موازيًا يضاهي دين الإسلام.

ونأتي إلى الكلام على التغير الذي حدث في الحياة الدينية في مصر بشكل عام، من خلال إلقاء نظرة على نشأة تلك الجماعات المتشددة، والتي عملت أو صنعت ما يسمى بالدين الموازي وقلبت النظام العلمي الذي أوضحنا كيف يمكن أن يسير، فأصبح كالهرم المقلوب، مما أثَّر تأثيرًا كبيرًا في حياة الأمة بعد ذلك، وتغيَّرت المفاهيم الدينية بشكل كبير، فكان لابدَّ من بيان حقيقة هذا النهج وهذه الطَّريق.

فنقول في هذا الصدد: ينبغي لكل عاقل أن يعلم أن تلك الجماعات المتشددة غيَّرت المفاهيم والمصطلحات العلمية، الأمر الذين يمكن أنْ يقالَ عنه إنَّها قلبت الهرم العلمي المعروف منذُ سنين وقرونٍ، وبدلت الصورة الذهنية المعهودة، وجعلت هناك دينًا موازيًا يُضاهي دينَنا الحنيف ويحاول أن يكون مكانَه والله متمٌّ نوره سبحانه.

وطريقةُ الهرم المقلوب اتبعتها الجماعات التي ظهرتْ على السَّاحة وادَّعت التدين؛ وذلك نظرًا لفهمهم الخاطئ للنصوصِ، فهم لا يعرفون طرق العلم ومنهجيته الصَّحيحة، ويجهلونَ الهدف الأسمى الذي جاءتْ من أجله الرسالةُ المحمدية ومن أجله بُعِثَ سيدنا محمد ﷺ.

والهرمُ معروف كيف يكون، وهو أن قاعدته لابد أن تكون واسعة من الأسفل وتأخذ في الانضمام كلما تمَّ الصعود بها، حتَّى إذا وصلنا إلى القمة لا يكادُ يَسعُ إلا واحدًا يستطيع أن يقف فوقه، هذه هي الصورة الذهنية التي يتخيلها من يعرف شكل الهرم، فإذا ما قُلِبَ ذلك البناء وجُعلت القاعدة في الأعلى والقِمَّة في الأسفل فإن هذا يخالف ناموس الكون، ولابدَّ لهذا البناء من الانهيار في يومٍ من الأيَّام مهما كانتِ المادَّة التي صُنِع منها، فهو في هذه الحالة سيشبه الطير الذي يحوم حول النَّار ولابدَّ له من السقوط فيها، فالذي يتمسَّك بالهرم المقلوب يتمسَّك بالأوهام ويخرج عن سنَّة الله في كونِه وعن منهجِ الله لعبادِه.

فمِنْ خلال تغيير المفاهيم وقلب الحقائق واصطناع هرمٍ مقلوبٍ لا يتماشى والنظام العلمي المعهود نشأ ما يسمى بالدين الموازي، الذي هو عبارة عن فكرة انتهجتها الجماعات التي ظهرتْ على السَّاحة، وانتهجتْ منهجًا مخالفًا لما جاءنا به النبي ﷺ، متخذةً خطًّا موازيًا للدِّين الحقِّ.

والمقصود بالدِّين الموازي هو ما له ظاهر وباطن، وهو الذي يساوي بين العنف والسلم، وبين الصدق والكذب، وبين النفاق والإخلاص، ويتَّسم بأن من مظاهره التصدر للمشهد الإسلامي حتى يرى النَّاس أن أتباع تلك الجماعات هم الذين يقدمون الخير للنَّاس وهم يضمرون الرغبة والشهوة في التسلط على الخلق والتحكم في مصيرهم.

ومن أجل الوقوف على مكمن الدَّاء نوضح للقارئ أن المشكلة الكبيرة التي تظهر في هذا الأمر والتي أدَّت إلى وجود ما يسمى بالدين الموازي، والتي أوصلت هذه الجماعات إلى ما هم فيه هي أنهم لم يفهموا الكتاب والسنة مطلقًا، لا بعمق ولا بغير عمق، بل إنهم لم يهتموا بكثيرٍ من العلوم إلا عندما وجدوا أن هناك فرقًا بينهم وبين غيرهم ممَّن اهتموا بتلك العلوم؛ فعلى سبيل المثال هم كانوا لا يهتمون بعلم التجويد

أبدًا إلى أن وجدوا فرقًا بينهم وبين المشايخ الكبار في التجويد، فبدءوا يهتمون بهذا العلم في الثلاثين سنة الأخيرة، فاهتمامهم بالعلوم غير دالٍّ على حب كتاب الله عزَّ وجلَّ؛ لأن النبي ﷺ أخبر عن الخوارج أنهم: «**يقرءونَ القرآن لا يجاوز تراقيهم**»[1].

والمشكلةُ ليستْ في قِراءة القرآن لأنه قد يقرأ الشَّخص القرآن لكن لم يَبْقَ عنده من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رَسمه، وهذا ما يتحقق عند هؤلاء المتشددين، وليس حفظُ القرآن هو الذي يجعل الإنسانَ متدينًا، وإنَّما الذي يجعله متدينًا بجانب حفظه للقرآن هو انضباط فكره واتزان عقله، وفي هذا الأمر نحن لنا سلف فسيدنا عمر لم يحفظ الزهراوين البقرة وآل عمران إلا في ثمان سنوات، وكان لا يغادر الآيات إلا إذا طبقها وأقامها على نحو ما يَحفظ.

والسبب في انتهاج هذه الجماعات مسلك الدين الموازي هو أن هذا في النِّهاية عمل تابع للسِّياسة، فالمعروف في السياسة أن أيَّ حزبٍ سياسيٍّ ضعيف في بدايته يقومُ بِعَملِ أيِّ شيء حتَّى يروِّج لنفسه، بل يأتي ويتسلَّط على أعمال غيرِه وينسبها لنفسه، وهذا الأمر يعدُّ من الأفعال القبيحة في المجتمع والتي لا يرضى بها أحد.

- ومن هنا كان لا بد من وضوح خصائص الدين الموازي؛ لأن بيان خصائصه تجعلُه واضحًا لكثيرٍ من النَّاس، وخصائصه تكمن في أنه يتسم بالرياء، فهو له ظاهر وباطن، أي أن ما يظهرونه غير ما يبطنونه.

- ومن خصائصه أيضًا الحيرة، فالفرد فيه يكون حائرًا بين العمل المدني والسياسيِّ والديني، وحائرًا بين وسيلة العنف ووسيلة السلم، كما أنه يرى في مرشده نبيا وفي المتبعين صحابة وفي عموم مالناس جاهلية من قريش.

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (3610)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (1064) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

- بجانب ذلك فإن تلك الجماعات فقدوا معنى التَّربية، هذه التربية التي صنعت المشايخِ الكبار.

- الاعتراض المطلق والانتقاد غير المبرر أو المسبب، فممَّا يتَّصفُ به دعاة التدين والالتزام أصحاب الدين الموازي الاعتراض المطلق، يعترضون من أجل الاعتراض وليس بقصد تقويم أمر معوجٍّ، ولا بقصد فَهم أمر قد التبس عليهم ولم يفهموا معناه، ومن أمثلة ذلك ما ذكرت لك في الفصل السابق من اعتراض حسن الهضيبي على القانون الذي وضعَه السنهوريُّ باشا، وعندما سئل عن ذلك قال: إنه ضد فكرة أن يضع أحدٌ من الناس القانون، سواء أكان واحدًا أو لجنة كاملة؛ وسواء عنده أصابوا فوافقوا الشريعة أو أخطأوا.

- ثم بعد ذلك يترتبُ على الاعتراض المطلق أنَّ المعترضين الذين يُكثرون من الاعتراض ضد من يخالفهم يكافئون على اعتراضِهم، وهذا أمر أيضًا من خصائص هذا الدين الموازي؛ لأنَّ هذه الاعتراضات التي يفعلونها والخلاف مع كل مَن ليس معهم تكون سببًا في حشد كثير من الناس وانضمامهم تحت رايتهم، وربما كان اعتراض الهضيبي أمرًا مؤكِّدًا لدى حسن البنا بأنه جدير أن يكون مرشدًا للإخوان بعده، فقد كان الهضيبي الرجل الوحيد بجانب حسن البنا في أيامه الأخيرة بل إن البنا اتخذه مستشارًا وموضع سره يقول محمود عبد الحليم: «ويبدو أن الأستاذ الإمام قد أفضى إليه بكل ما عنده وشرح له جميع المواقف وحلل له كل الشخصيات؛ بدليل أنه منذ أول يوم فوتح فيه في خلافة الأستاذ الإمام تحدث عن بعض شخصيات الإخوان حديث العليم الخبير»[1].

(1) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ (2/ 481، 482) تأليف: محمود عبد الحليم- دار الدعوة- الطَّبعة الأولى- 2013م.

فاعتراض حسن الهضيبي على السنهوري باشا كان سببًا من أسباب ترشيحه لخلافة البنا في إرشاد الجماعة، وهو أمر لقيَ قبولًا عند معاشر الإخوان في ذلك الوقت؛ لأنهم يرون أن هذه مواقف مشرفة في الدفاع عن الإسلام والشريعة الإسلامية، على الرغم من أنه لم يكن أحد يعرف الهضيبي وقتها، وهذا الأمر أحدث مشكلة عند كثير من الإخوان وقتها، وثارت الشبه حول المرشد الجديد الذي سيتولّى بعد حسن البنا، ولخص محمود عبد الحليم تلك الشبه في خبرته في الشئون السياسية والاجتماعية، ومدى اتصاله ومدى سابقته في الدعوة، ومدى استعداده الخطابي أو اللساني[1].

ومثال آخر على الاعتراض عندما نتذكّر التحديثات التي قام بها الخديوي إسماعيل في النظام القانوني يقول طارق البشري في هذا الصدد: «ويبدو أن هدف تحويل مصر إلى النظام القانوني الفرنسي قد بيِّتَ بليل، منذ منتصف الستينات من القرن الماضي، في بواكير عهد الخديوي إسماعيل فقد صدر الأمر العالي من الخديوي بتعريب مجموعات القوانين الفرنسية».

ثم ساق كلامًا يوضح فيه اعتراضه على بناء مدرسة الحقوق التي عمل الخديوي إسماعيل على إنشائها عن طريق أحد المهندسين الفرنسيين واسمه: فيكتور فيدال. يقول البشري وكأنه يعتبر أن هناك مؤامرة على البلد من إنشاء هذه المدرسة: «وإن

(1) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ (2/473). وانظر كلام الشيخ محمد الغزالي عن الهضيبي عندما فصله عن جماعة الإخوان في: من معالم الحق (ص 226) دار الحديث- 1963م. قال: استقدمت الجماعة رجلا غريبا عنها ليتولى قيادتها ، وأكاد أوقن أن من وراء هذا الاستقدام أصابع هيئات سرية عالمية ... وقد سمعنا كلاما كثيرا عن انتساب عدد من الماسون بينهم الأستاذ حسن الهضيبي نفسه لجماعة الإخوان". كما قال سيد قطب: إن الدكتور محمد خميس حميدة كان ماسونيا، وعلى درجة عالية من الماسونية، ورغم ذلك ارتقى إلى أن أصبح وكيلا عاما لجماعة الإخوان المسلمين في عهد الأستاذ حسن الهضيبي وأن الحاج حلمي المنياوي كان ممثلا للمخابرات الإنجليزية داخل الجماعة، وقد ترك حسن البنا مع علمه بحالهم المجال لهم ليترقوا للدرجات العليا. [نقلا عن علي عشماوي في التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين ص170 – 175]

دلالة هذا الأمر لا تتراءى فقط من إنشاء مدرسة تدرس مناهج القوانين الغربية، فقد يكفي تفسيرًا لذلك ما كانت الحكومة تفكر فيه من إنشاء المحاكم المختلطة وإعداد من يساهم فيها من المصريين ولكن تبقى دلالة أخرى تتراءى من التخفي الذي أنشئت به المدرسة والذي يكشف عنه اسمها وهدفها الصوريان وقد يصلح تفسيرًا لذلك أن أنشئت المدرسة على هذه الصورة استنباتًا للفكر القانوني الغربي في البيئة المصرية، وحذرًا في الوقت نفسه من أن تلقى المدرسة مقاومة الأزهر ورجال الشريعة»[1]. فانظر إلى هذا الاعتراض على ما صنعه الخديوي إسماعيل، وكأن طارق البشري يريد أن يقول: إنهم ما أنشأوا هذه المدرسة إلا ذرا للرماد في العيون.

- ومن خصائصه أيضًا التَّكفير لكل مَنْ ليس معهم ولكل مَنْ لم يحكم بما أنزل الله بوجهة نظرهم، فإن أصحاب هذا الفكر من هذه الجماعات لم يقرءوا ولم يعرفوا كيفيَّة التعامل مع النُّصوص، فضلًا عن معرفة القراءة ابتداءً، ومع ذلك لا يزالون يتشدقونَ ويتهموننا بأنَّنا كفار؛ لأننا لا نَحكمُ بما أنزل الله ويرموننا بهذا الأمر بهتانًا وزُورًا، ويَستشهدونَ بقوله تعالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:44].

- يدخل أيضًا ضمن خصائصهم عدم اهتمامهم باللغة، فربما تجدهم يهتمون بعلوم اللغة كالنحو والبلاغة والبيان وغير ذلك إلا أنهم يفتقدون فهم لغة العلوم الأخرى، فكل علم له لغته التي لا تدرك إلا بالنظر والتريث فيه، وهذا أمر يستدعي وقتًا من الزَّمن وجلوسًا تحت أقدام العلماء، وعدم الفهم لهذا الأمر يدعو إلى الانحراف عن الطريق الصحيح والحيدة عن الجادة ويَؤُول إلى عدم فهمهم للنصوص.

---

(1) انظر: الوضع القانوني المعاصر بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي (ص 17، 18) دار الشروق- الطبعة الأولى- 1996م.

ومعلوم أن فهم النصوص لا يتأتي إلَّا من شخص يفهم اللغة الَّتي جاء بها النص، والقرآن والسنة ما نزلا وما جاءا إلا باللغة العربية، فمَنْ لم يكن محبًّا ومتقنًا للغة العربية لن يفهم مراد الله من قوله ولا مراد سيدنا رسول الله ﷺ.

والعرب من غير المسلمين اهتموا باللغة العربية اهتماما كبيرا لأنهم شعروا بالانتماء إلى هذه اللغة وهذه الأوطان أكثر من هؤلاء النابتة الذين انسلخوا من انتمائهم للأرض والوطن واللغة، فعلى سبيل المثال في لبنان نجد المسيحيين بذلوا مجهودًا كبيرًا في عمل الموسوعاتِ والقواميسِ التي تخدم اللغة وتهتم بالشعر العربي، وأدل دليل على ذلك أحمد فارس الشدياق الذي كان مسيحيًّا شاعرًا ثم أسلم، وقد وصل إلى درجة عالية من التمكن في اللغة العربية، الأمر الذي جعلهم في بلده يستعينون به في ترجمة الكتاب المقدَّس، وألَّف كتاب الجاسوس على القاموس، واستدرك فيه أشياء على قاموس الفيروزآبادي الذي شرحه المرتضى الزَّبيدي في تاج العروس، كما أنه لدينا كتب مؤلفة في تراجم شعراء النصرانية.

ولكن أصحاب الدين الموازي يعبرون عن نموذج الخروج وقد اتضح ذلك في ظهور جماعة الإخوان المسلمين بمصر على يد مؤسسهم حسن البنا، وهو ما سنعرض للكلام عنه في الصفحات القادمة.

***

الفصل الثالث

حسن البنا

ونشأة الإخوان المسلمون

تمهيد

إن الكلام عن الدين الموازي استدعي الكلام عن جماعة ظهرت وتمسحت بالمسوح الدينية، وهذه الجماعة هي جماعة الإخوان، التي عمل على تأسيسها حسن البنا ابن الشيخ أحمد عبد الرَّحمن البنا الساعاتي، وقد سعى البنا إلى التميز والتمايز فصار كيانه موازيا وصار أمر أفكاره ومبادئه وجماعته وتقاليدهم وأسرارهم يتضخم على مدار الوقت حتى صار دينا موازيا يتمسكون به أكثر مما يتمسكون بها في فرائض الإسلام وسننه.

وكانت أخطر مرحلة في التمايز هي نشأة الجهاز السري، وتقاليد القسم والبيعة السرية التي أشبهت الإخوان بالباطنية والقرامطة، تتبنى العنف في الباطن وتدَّعي السلم في الظاهر، وهم في كلا الحالين يؤول أمرهم إلى التخريب والعنف والتدمير والفرقة، على عكس ما يظهرون أو ينادون، وهذه السرية وصلت بهم الحال أن يتآمر بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضا ويتشكك بعضهم في بعض، وهكذا إلى آخر العيوب والمصائب التي تحدثها الشرذمة والتفرق والشذوذ عن عامة المسلمين .

وسيكون الحديثُ عن حسن البنا والإخوان المسلمين من خلال أربعة مباحث:

المبحث الأول: النشأة الدينيَّة لحسن البنا.

المبحث الثاني: استقطاب علماء الدين ورموزه للدخول في الإخوان المسلمين.

المبحث الثالث: من مرحلة المأثورات إلى الانحراف والتبديل.

المبحث الرابع: الإخوان المسلمون والصراع السياسي في مصر.

المبحث الأول

النَّشأة الدينية لحسن البنا

نشأ في عصر كان به كثير من العلماء والدعاة الكبار، نشأ نشأة دينية كعادة الأطفال في ذلك الزمان يذهبون إلى الكتاب ويحفظون القرآن، وُلد حسن البنا في بداية القرن العشرين سنة 1906م، ذلك القرن الذي فاته قرنان من الزمان حاول المسلمون فيهما استعادة نهضة أمتنا في شتى مناحي الحياة، وكان البنا بطبيعة الحال يسير على نفس الخطى في تلقي العلوم فنشأ تلميذًا لرشيد رضا، الذي كان من أهم أفكاره التي تمسَّك بها وتعلمها من شيخه محمد عبده وورثها عنه أن المجتمع قبل الدولة، ونحن نكرر الأمر دائمًا في التمسك بفكرة المجتمع قبل الدولة؛ لأن عكس هذه الفكرة هو الذي نتج عنه ظهور الجماعات المتشددة والمتطرفة التي ضحت بالمجتمع من أجل تأسيس الدولة من وجهة نظرها.

مَكَثَ البنا فترة من عمره ملازمًا لشيخٍ من مشايخ التصوف الكبار كان من أصدقاء والده الشيخ أحمد عبد الرحمن الساعاتي، وهو الشيخ محمد عبد الوهاب الحصافي، وأخذ على شيخه الشيخ محمد الحصافي الطريقة الحصافيَّة الشاذلية نسبة لسيدنا الشيخ أبي الحسن الشاذلي[1]، وكان يقرأ أوراد الطريق وأذكاره كغيره من أتباع الطريق.

(1) كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله من كبارِ أولياء الله الصالحين، ودرس العلوم الدينية الوسائل والغايات ثم أخذ الطريق عن الولي الصالح الشيخ عبد السلام بن بشيش أو ابن مشيش، وتوفي عندما كان عازمًا على الحجِّ وقد دعا الله أن يقبضَه في مكان لم يُعص فيه قط، فمات في صحراء عيذاب التي تقع في الجنوب الشرقي لمصر بينها وبين البحر الأحمر 30 كيلومتر وهو في طريقه للحج بمنطقة اسمها حميثرى سنة (656 هـ).

انظر: قضية التصوف المدرسة الشاذلية (ص 20) تأليف: د. عبد الحليم محمود- دار المعارف- الطبعة الثالثة- 1999م.

وقد تتلمذ على يد الشيخ أبي الحسن الشاذلي كثير من الأولياء منهم سيدنا أبو العباس المرسي الذي أخذ عنه سيدنا ابن عطاء الله السكندري، وهناك كثير أيضًا تتلمذ على سيدنا ابن عطاء الله إلى أن وصلنا إلى الشيخ أحمد زروق الفاسي المتوفى سنة (899 هـ) الذي أضاف بجانب أوراد الطريقة الشاذلية وظيفة عبارة عن أوراد أيضًا سميت بعد ذلك بالوظيفة الزروقيَّة نسبة إليه.

والوظيفية الزُّروقية- كما تقدم- عبارة عن مجموعة أوراد قائمة على ذكر الله من الكتاب والسنةِ، وبعض العلماء يسميها: «**سفينة النَّجا لمن إلى الله التجا**». بمعنى أنَّك عندما تداوم عليها كل يوم في الصباح والمساء تكون من أصحاب القلوب الضَّارعة.

ووالد حسن البنا الشيخ عبد الرحمن الساعاتي كتب رسالة خاصة عليها سميت بـ: «**تنوير الأفئدة الزكية بأدلة أذكار الزروقية**». وكان حسن البنا يواظب على تلك الوظيفة بجانب العهد الذي أخذه على شيخه الحصافي[1].

كان نتاج هذه النشأة الدينية الصوفية التي تمتع بها البنَّا في صغره أن جعلتْه يفكِّر عندما كبر بالالتحاق بكيان يكون فيه اهتمام بالعلوم الدينية والعربية؛ فالتحق حسن البنا بكلية دار العلوم التي كانت تسمى مدرسة دار العلوم.

(1) انظر: مذكرات الدعوة والداعية (ص 22) تأليف: حسن البنا- دار الكلمة- الطبعة الثانية- 2011م. نشرت هذه المذكرات سنة 1950م، مع مقدمةٍ لأبي الحسن الندوي، الذي لم ير حسن البنا؛ لأنه قَدِم مصر سنة 1950م أي بعد مقتل حسن البنا.

المبحث الثاني

استقطاب علماء الدين ورموزه للدخول في الإخوان المسلمين

هذه النقطة ستعتمد على أمرين؛ الأمر الأول: سعي حسن البنا لتكوين الجماعة. الأمر الثاني: دعوة رموز الدين والفكر لتأييد ذلك التَّكوين.

المطلب الأول: سعي حسن البنا لتكوين الجماعة.

من أهم تلك الأسباب الداعية للتفكير في نشأة هذا التكوين، الذي أحدث اضطرابًا كبيرًا في الحياة بعد ذلك، هو النظرة العامة للحال الذي آلت عليه الخلافة الإسلامية وآل إليه حال المسلمين أنفسهم، فقد فكَّر البنا في تكوين هذه الحركة سنة 1928م، أي بعد زوال الخلافة بأربعِ سنوات سنة 1924م، وكان آخر خليفة للدولة العثمانية هو وحيد الدين اختفى بعدها، ولم يسمع عبر التاريخ منذ خلافة سيدنا أبي بكر أن هناك خليفة اختفى فجأة؛ فعندما سقطت الخلافة في بغداد ودخل التتار فرَّ الخليفة إلى مصر، وبايعَه الناس بها واستمرت الخلافة، وبعد دخول سليم الأول القاهرة أخذ الخليفة المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس إلى أسطنبول ونصبَّه هناك خليفة للمسلمين.

في هذه الأيام كان حاكم مصر هو الملك فؤاد الأول، الذي حكم مصر بعد تنازل أخيه حسين كامل له، وكان كمال أتاتورك قد عمل على إلغاء الخلافة العثمانية، فسعى الملك فؤاد إلى أن يكون خليفة للمسلمين وهو حاكم على مصر من خلال مؤتمر عقده في 13 مايو سنة 1926م في الهند تحت رعاية الإنجليز، لكن هذا المؤتمر باء بالفشل(1).

وفي سنة 1928م كان الاحتلال الإنجليزي لا يزال موجودًا، وحَدَثَ في تلك السنة أن حاولَ الإنجليز واليهود الاستيلاء على حائط البراق وهو براق النبي ﷺ، ولذلك

---

(1) انظر: مجلة المنار مجلد 25- ربيع أول 1343هـ- أكتوبر 1924م. مقال بعنوان: «مؤتمر الخلافة».

اجتمعت لجان ومحاكم عربية وإسلامية وأوروبية وحكمت للمسلمين بحائط البراق[1].

السبب الثاني في هذا الأمر نظرة حسن البنا للمجتمع حوله في ذلك الوقت، فقد تغير شكل الحياة المصرية في هذا الوقت من الناحية الدينية، فقد هجر كثير من الناس المساجد، وباتت المساجد في حالة سيئة للغاية، مع المعاناة من الاحتلال وتغييرِ المصريين لنظامهم في الملبس؛ فقد استبدلوا الزي الإفرنجي والياقات البيضاء بالسراويل المغربية، ولبس هذا الزي نظر إليه بعض المتدينين حينها على أنه من علامات الفسق، وثَبَتَ في ذهن العوام وقتها أنَّ فلانًا كفر؛ لأنه لبس الجورب؛ لأنه دليل على أنه لا يتوضأ، وخروجه على النسق المعهود عند المسلمين، وترك الناس صلاتهم شيئًا فشيئًا، وخاصة بعد دخول الأوبرا مصر، فأصبحوا يذهبون إلى الأوبرا وتضيع عليهم الصلوات فانتظرهم البوَّاب والطباخ والسائق الذين أيضًا ضاعت عليهم الصلاة.

كانت هذه الأمور وغيرها مما دعا حسن البنا إلى إنشاء تلك الجماعة بعد التحاقه بمدرسة دار العلوم، فقد بدأ في السعي لتكوين تلك الحركة أو الجماعة، من باب قول الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:2]. وكان في هذا الوقت في مدينة الإسماعيلية جمعية موجودة تنتمي إلى الطريقة الحصافية الشاذلية أنشأها أحمد السكري، وعندما عَلِمَ السكري بعزم البنا على إنشاء جماعة دعاه للدخول في تلك الجمعية بدلًا من أن ينشئ جمعية جديدةً.

فتكونت تلك الجماعة في بداية الأمر على أسس تدعو إلى البرِّ والتقوى، وأمور تتناول صلاح المجتمع، الأمر الذي جعل أحمد السكري يُدخل البنا في هذه الجمعية

---

(1) انظر: حائط البراق الذي سماه اليهود ظلمًا وعدوانًا حائط المبكى (ص 88، 89) تأليف: أ.د. زينب عبد العزيز- تقديم: أ.د. علي جمعة- دار الحرمين- القاهرة- 2000م.

التي حوَّلها البنا بعد ذلك إلى جماعة الإخوان المسلمين، فالبدايات دائمًا تتسم بالشفافية ونزاهة المسلك[1].

ولم يستمر الأمر على ما هو عليه بين البنا والسكري، فقد دبَّ الخلاف بينهما في فضيحة عبد الحكيم عابدين زوج شقيقة حسن البنا، وهي عبارة عن فضائح أخلاقية، ووافق وقتها أعضاء مكتب الإرشاد على فصل عبد الحكيم عابدين من الجماعة، وهنا ثار البنا على هذا القرار، وعلى إثر ذلك دب الخلاف بين البنا والسكري، الأمر الذي جعل البنا يعمل على فصل السكري نفسه من جماعته التي هو أساسها؛ لأنه كان واقفا ضد عبد الحكيم عابدين، وعلى هذا الأساس ترك السكري جماعة الإخوان المسلمين[2].

وبعد أن استقل حسن البنا بتلك الجماعة وحده كان لابدَّ من تأييدٍ حقيقيٍّ من أشخاص يمثلون الدين والعلم في هذا الوقت، فعَمِل البنا على دعوة رموز العلماء والمفكِّرين في الانضمام إلى جماعته، وهذا ما نتعرض له في الأمر الثاني من هذه النقطة.

---

(1) وأذكر أن عمر التلمساني وكان يعمل محاميًا، وكان معروفا عنه أنَّه كان صوفيًّا، وقد جمع أوراد الطَّريقة الخلوتية سنة 1942م، ووصل إلى منصب المرشد العام للإخوان في السبعينيات، ألَّفَ عمر التلمساني كتابًا بعنوان: «شهيد المحراب». وأتاني شخص اسمه أسعد كان خادمًا لحسن البنَّا بهذا الكتابِ وطلب منِّي أن أخرِّج أحاديثه وأحقِّقه، ووقتها كنت شابًّا في الحادية والعشرين من عمري. فقلت له: لا بأس. وعندما أخذت الكتاب وقرأته انتقدت بعض ما فيه، ودونت ملاحظاتي، وأخبرت الوسيط بهذا الأمر. فقال لي: نذهب له سويًّا، فذهبنا له قبل الجمعةِ وجلسنا معه عشر دقائق. فقال لي: اعمل أي شيءٍ في الكتاب لكن لا تتعرض لعقيدتي في أولياء الله الصالحين اتركها كما هي. فقلت له: سأفعل. ولم يكن التلمساني في هذا الوقت وهو يوجه لي هذا الطلب يعرف توجهي ولا صوفيتي؛ وقد حقَّقت له الكتاب وخرجت له الأحاديث . والشاهد في القصة أن الإخوان في جيلهم الأول كان منهم من يحرص على الآخرة والتمسك بالديانة، ولكن تبعا لنظرية تتالي الأجيال فإن الأجيال التي ظهرت بعد، لم ترعوي عن التوسع في الدين المواز، وترك عالم المأثورات وفترته.

(2) انظر: الإخوان المسلمون «قراءة في الملفات السرية» (ص 387- 398) تأليف: عبد الرحيم علي- الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة الأولى- 2011م.

المطلب الثاني

دعوة رموز الدين والفكر لتأييد هذا التكوين.

أولًا: الشيخ محمد عبد الوهاب الحصافي.

عندما عزم البنا على إنشاء هذه الجماعة ذهب إلى شيخِهِ الحصافي وعرض عليه الأمر، وكان الشيخ الحصافي رحمه الله وليًّا من أولياء الله الصالحين، يرى بنور الله، عرض عليه البنا فكرة الانضمام إلى الإخوان المسلمين بغرض الدعوة إلى الأخلاق ومقاومة المنكرات، فعارضه الشيخ الحصافي، فلم يلتفت البنا إلى اعتراض الشيخ الحصافي عليه، بل قال في مذكراته: «كان له رأي فيها ولنا رأي، وانحاز كل إلى رأيه»[1]. وهنا علينا أن نقفَ ونقول: إن رأي الشيخ الحصافي هو السلوك في طريق ذكر الله وتربية الخلق، وطريق حسن البنا البحث عن الزعامة والتصدر، فتعالى التلميذ على الشيخ وخرج عن طوعه من أجل تحقيق مأربه.

ثانيًا: الشيخ يوسف الدجوي (ت 1946م).

بعد رفض الشيخ الحصافي دعوة البنا وإصرار البنا على المضي في تكوين جماعته واستقطاب العلماء لتأييدها، سعى إلى الشيخ المالكي يوسف الدجوي، وأوضح له ضعف المعسكر الإسلامي أمام المتربصين للإسلام وأن الأزهر حاول التصدي لتيارات الإلحاد فلم يستطع، فنصحه الشيخ الدجوي وقتها بأن بحسب الإنسان أن ينجو من هذا البلاء وأن يعمل قدر الاستطاعة ويدع النتائج لله، فيقول البنا عن كلام الشيخ الدجوي: «لم يعجبني طبعًا هذا القول، وأخذتني فورة الحماسة، وتمثل أمامي شبح الإخفاق المرعب». ثم أبدى للشيخ مخالفته من هذا الأمر، ورأى في نفسه قوة وقدرة واستبصارا لفعل ما قعد عنه شيخه، الذي فسر موقفه خطأ على أنه جبن أو تقصير ، وقد كان بصيرة وخبرة ودينا وكشفا.

---

(1) مذكرات الدعوة والداعية (ص 27، 28).

ثم أراد الشيخ الدجوي أن يدع حسن البنا ويذهب إلى بيت الشيخ محمد سعد، لكن البنا ظل وراءه، وهناك في بيت الشيخ أحمد سعد جلس بجوار الشيخ الدجوي وكان الشيخ محمد سعد قد قدم بعض حلويات رمضان فأراد البنا الكلام في الأمر فأخذ الشيخ مجموعة من الحلوى وناولها له قائلا: خذ وإن شاء الله نفكر.

وبعد ذلك رأى الشيخ الدجوي من خلال كلام البنا أن دعوته تريد الإصلاح، فتعاون معه وطلب وقتها البنا من الشيخ الدجوي أن يحصر أسماء من يتوسم فيهم الغيرة على الدين من ذوي الوجاهة والعلم والمنزلة، فبدءوا يكتبونَ أسماء العلماء الذين سيساعدونهم في دعوتهم، وكان منهم: الشيخ محمد الخضر حسين والشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ عبد الوهاب النجار والشيخ محمد الخضري، والشيخ محمد أحمد إبراهيم، ومن بين الأسماء جاء اسم محمد رشيد رضا صاحب المنار، فقال الشيخ الدجوي: «اكتبوه اكتبوه؛ فإن الأمر ليس أمرًا فرعيًّا نختلف فيه». وهنا يقول حسن البنا: «وكانت هذه شهادة طيبة من الشيخ للسيد رشيد رضا رحمهما الله، مع ما كان بينهما من خلاف في الرأي حول بعض الشئون»[1]

والمستخلص من هذه القصة هو الإشارة إلى ما قام به حسن البنا من ترتيبات لجمع واستقطاب العالم الشيخ الدجوي، وذلك بطول الإلحاح وكثرة الطلب، والتلوين في العرض والترغيب في المساعي والأهداف، فالشيخ الدجوي لأول وهلة رفض عرض البنا للانضمام إليه، إلا أن البنا لإدراكه أهمية انضمام الشيخ الدجوي إلى حركته حتى تنهض ويكون لها شأن استمر في الإلحاح عليه، وصوَّر له الأمرَ على أنه دفاع عن العقيدة ودعوة إلى التمسك بأصول الشريعة والقيام بالإصلاحات الاجتماعية والتربوية والثقافية والدينية في المجتمع، وحث الناس على ترك الرذائل والفواحش، وقد استجاب له الشيخ الدجوي في هذا الجانب المشرق من الدعوة المغرية المزيفة،

(1) مذكرات الدعوة والداعية (ص 68- 72).

وقد بانت النفعية فيها؛ لأنه من إن تم المراد واتسعت دعوة البنا وعرف الناس بها وانضم إليها من يحقق مآرب البنا في مراحل متقدمة من جماعته حتى ترك الشيخَ وأمثالَه من الناصحين، وحاد عن التربية والإصلاح الديني والدعوي الذي أقام عليه جماعته ورغَّب العلماءَ في الانضمام إليها حتى يحققوا هذا الهدف، والتي كان يسميها مرحلة المأثورات ، وسعى البنا وراء المطالب السياسية وإقامة الدولة الموازية والدين الموازي والمفاهيم الموازية التي تصنع التميز والتمايز لدعوته وجماعته وحزبه.

وحتى يجمع البنا في جماعته الأطياف والألوان المتباينة من الناس؛ لأجل الكثرة الغثائية التي تحقق له الزيع والانتشار ومأرب الإمامة، سعى إلى الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب التوجُّه السلفي التيمي، وكان دائم الدفاع عن مذهب الوهابية السلفي، واختيار البنا له كان على أساس أنه صاحب مطبعة ومشتغل بنشر الكتب والفكر وعمل المجلات، والتي يمكن للبنا من خلالها الوصول إلى عموم الناس وتبليغ دعوته والحصول على التأييد لجماعته، وقد تم المراد فأصدر الخطيب له مجلتين؛ الأولى: مجلة الفتح. والثانية مجلة الزهراء. من المطبعة السلفية.

وفي مرحلة تالية أنشأ البنا جريدتين مستقلتين للتعبير عن فكر الجماعة والدعوة إليها وهما : جريدة الدعوة، وجريدة الإخوان المسلمين ، أي أن الخطيب كان عند البنا عبارة عن مرحلة في بناء جماعته، كما كانت مجلة المنار أيضا لصاحبها رشيد رضا عبارة عن مرحلة، والشيخ الدجوي نفسه كان عبارة عن مرحلة ، وأما الشيخ الحصافي والذي كان يرى بنور ربه رفض أن يكون. وهو الشيخ والأستاذ المربي. مرحلة في حياة تلميذه، أو يكون مؤيدا لرغبة ملئوها الشهوة في السطوع والظهور والسلطان، يحيد بها مريده عن طريق التصوف والزهد والتربية، ورأى الشيخ الحصافي أن الفتنة تجلبها مثل تلك الرغبات التي تترك الإصلاح وتسعى للسلطة.

وهو ما صدق بالفعل حينما حاد حسن البنا وانحراف بطائفته بعد السنين التي قضاها في الدعوة، وأصبح لا يستمع إلى نصائح المشايخ الذين آزروه في بدايته؛ لأن رؤيته الداخلية لنفسه وذاته اتسعت وتضخمت فرأى نفسه وجماعته. وقد كثرت. أكبر من كل عالم أو مفكر أو ناصح أمين، فبدأ بالتعالى مما نفر منه كثيرا من المخلصين بعد سنة 1942م. وقد خسر بسبب ذلك رفيق دربه أحمد السكري.

فعلى الشباب أن يعي جيدا ويتنبه إلى أن سبب الانحراف كان اعتماد البنا على حوله وقوته، وعدم التفاته إلى النصائح النبوية التي وردت في أحاديثه تشرح للأمة المحجة البيضاء التي تهدينا في أوقات الفتنة وفي ظل هذا التهارج الذي يشبه الأمواج المتلاطمة، وهذا الإعراض عن نهج النبوة هو سبب في كل انحرف عن الطريق السوي، إذ قد أمرنا بأن يكون الله أسوة حسنة لنا في كل أفعالنا.

ثالثًا: مقارنة بين تجربة البنا وتجربة الشيخ محمود خطاب السبكي (ت 1933).

كان الشيخ محمود خطاب معاصرا لحسن البنا، وقد اشتغل بالدعوة، واهتم لشأن المسلمين، وحرص على نشر تعاليم الدين بينهم، ودعوتهم للتمسك بأحكام الشريعة، وحينما توفي كتب البنا في جريدة الإخوان المسلمين معزيا له مقالا بعنوان: «عزاء آل خطاب» يقول فيه: «قضي العالم الجليل والمربي الكبير الأستاذ الشيخ محمود خطاب السبكي ونُعي إلي مريديه وأحبائه وأتباعه وأبنائه فانهدَّ بفقده ركن من أركان الدعوة وانطفأ بفقده سراج من سروج الإرشاد، فلقد شغل الشيخ رحمه الله أوقاته مجدًا في دعوته سائرا الي غايته لا يسأم ولا يمل مهما أوذي في سبيلها أو وقفت في طريقه العوائق والعقبات...»[1].

(1) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ (512/1). أوراق من تاريخ الإخوان (ص 102) جمعه: أمين عبد العزيز- دار التوزيع والنشر الإسلامية- 1985م.

كان الشيخ السبكي من الواعين الساعين، وكان من كبار فقهاء المالكية في عصره، وقد استكمل دراسة المذاهب الأربعة[1]، وكان من أوائل مَنْ نادوا في الدعاة والمربين بأنَّ يجتنبوا السياسة الحزبية، أسس الجمعية الشرعية لتعاون الدعاة العاملين بالكتاب والسنة، فأثمرت دعوته ونجحت وآتت أكلها، ومضى عليها السنون مجتنبة لفتنة السياسة وغيرها، إلا ما ظهر في الآونة الأخيرة من التحاق التيار الإخواني والسلفي وسيطرته على أنشطتها، وهو أمر حاد بها عما رضيه لها سلفها.

تعلم الشَّيخ السبكي رحمه الله القراءة والكتابة بعد سنِّ الثلاثين، وقد كان في صغره إلى أن وصل إلى الثلاثين من عمره يعمل في الحقل مع والده، وكان أخوه يتلقى العلم في الأزهر، فكان أخوه يقول له: لعلها تسبق العرجاء.

وبالفِعل كان فحفظ الشيخ السبكي كتاب الله، وتمتع بالهمة العالية، فكان يتنقل بين دروس العلم في الأزهر على يد المشايخ حتى صار فقيهًا كبيرًا وإماما للمالكية.

حرص الشيخ السبكي رحمه الله على الإصلاح الديني والاجتماعي، فكوَّن الشيخ السبكي لجنةً علمية لجمع الفقه على المذاهب من كتب الفقه ومناقشتها لاستخلاص الأدلة ودراستها، وبدأ في كتابة الكتب، وبدأ على هذا النهج وأنهى في ذلك ثمانية أجزاء بمساعدة اللجنة التي أنشأها، واللجنة بَقِيتْ كما هي إلى أنِ انتقل الشيخ السبكي إلى رحمة الله تعالى سنة 1936م.

عندما انتقل الشيخ السبكي لم تستطع اللجنة إخراج سوى جزء واحد في ثلاثين سنة تلت وفاة الشيخ المؤسس لها، مع أنهم في أيام الشيخ أخرجت ثمانية أجزاء، بجانب شرح سنن أبي داود.

(1) المقصود باستكماله المذاهب الأربعة أن الشيخ السبكي رحمه الله بعد دراسته الفقه المالكي على كبار علماء المالكية في ذلك الوقت كالشيخ محمد عليش والشيخ عبد الحافظ الصعيدي والشيخ سليم البشري، درس بقية المذاهب على أربابها وكان ثمرة ذلك كتابه الماتع: «الدين الخالص».

وقامت تلك اللجنة بدور فقهي اجتماعي فقد كان بعض الناس يلبس الحرير خطأً، ولُبس الحرير فيه خِلاف فقهي، فقد أجازه المذهب الحنفي، ولكن الشيخ محمُود خطاب السبكي يرى أن لبسه حرام[1]، فقام الشيخ السبكي بشِراء بيت في حيٍّ الخيامية بالقاهرة وتحت البيت مسجدا ومكتبة وأتى بالشيخ درويش الشافعي وكان رجلًا بصيرًا، والشيخ حلوة وكان حنفيًّا، وأنشأ الشيخ وقتَها مصنعًا للملابس القطنية حتَّى ينتج لهم القماش الذي يصنع منه القفطان، وحتى لا يقع الناس في لبس الحرير الذي كان عليه الخلاف، وهو يريد بهذا الفعل أن يصرف الناس عن هذا الخلاف، وكان رحمه الله يتابع إنتاج القماش بنفسه، وإن وجد به عيبًا في ثوبٍ من الأثواب يُصلحه بنفسه، وبيده، ثم يجلس ويدرِّس ويحدث الناس بأقوال سيدنا النبي ﷺ وهو يعمل، فكانت همته عالية ونموذجًا عظيمًا للأزهر[2].

فهذا منهج إصلاحي جمع فيه الشيخ بين العمل والدعوة والعلم، لم يصطدم بالخلق، ولم يزعق عليهم برأيه المخالف، بل صبر وأوجد البدائل ودعى بالعلم والعمل، وفي مقابل ذلك حاد حسن عن نهج الأزهر الشريف واصطدم بالواقع ، وسعى لفرض رأيه بالقوة والتسلط، وأهمل الإصلاح والدعوة، والعمل والتربية، فنجح الأول واستمر، وفشل الثاني حيث تفككت جماعته وشردت مرة بعد مرة، وقاسى أتباعها وأرهقوا وأفسدوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

---

(1) انظر: الدر المختار بحاشية ابن عابدين (6/354) وما بعدها. دار الفكر- بيروت- 1992م. وانظر: الدين الخالص (6/128) تأليف: الشيخ محمود خطاب السبكي- المكتبة المحمودية السبكية- الطبعة الخامسة- 1991م

(2) انظر ترجمة الشيخ محمود خطاب السبكي في: معجم المؤلفين (12/193) تأليف: عمر رضا كحَّالة- دار القلم- بيروت- الطبعة الرابعة عشر- 1988م. وترجم له حفيده «سبطه» د. عبد العظيم حامد خطاب في كتابه: لمحات من تاريخ الإمام محمود خطَّاب السُّبكي- دار الاعتصام- 1986م.

المبحث الثالث

من مرحلة المأثورات إلى الانحراف والتبديل

ولي الله الكاندهلوي يشهد على حسن البنا بالتبديل وبداية الاختلاط والخلط في فكره وسلوكه، وهي رواية شفوية سمعناها من ثقات تلاميذ أبي الحسن الندوي وهو ينقلها عن شيخه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم البلياوي، فقد كان البلياوي تلميذا مصاحبا للشيخ محمد زكريا الكاندهولي[1] شيخ الهنود في الحديث وكان ينزل عليه في المدينة المنورة في موسم الحج، فجاء حسن البناء والتقاه ، وعندما سمعه الشيخ زكريا أبدى رأيه فيه، فقال: إنه متحمس لكنه ليس عالمًا.

ودار الزمان ثم عاد حسن البنا ليلتقي الشيخ الكاندهلوي وينزل عنده بالمدينة، وذلك بعد سنتين حيث كان الهنود يحجُّون البيت الحرام مرة كل سنتين، وكان مع البنا حوالي خمسون شخصًا من أتباعه. فقال عنه الشيخ زكريا: هذا الشاب بدأ يخلِطُ فانصحوه.

ودار الزمان فلقيه مرة بعد سنتين فقال عنه: بدأ ينحرف فهل نصحتموه. فقالوا: نصحناه، لكنه لم يقبل النصيحة. فقال الشيخ زكريا: لا ترونَه عام قابل. وكان هذا عام 1947م، وقد صدق فإن حسن البنا قتل سنة 1948م [2].

(1) صنع أبو الحسن الندوي ترجمة وافية للشيخ محمد زكريا الكاندهولي بعنوان: «الإمام المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهولي ومآثره العلمية» دار القلم- الطبعة الأولى- 2012م. ذكر فيها فضائله وحجه لبيت الله الحرام وغير ذلك من مآثره. فراجعها.

(2) هذه القصَّة يرويها عن الشيخ أبي الحسن الندوي الشيخ عبد الحفيظ ملك عبد الحق المكي، رواها في مجلس المحدِّث مصطفى الندوي المصري في مدينة المنصورة، وقد صدقه السيد/مصطفى الندوي وأنَّه سَمِعَها من أبي الحسن الندوي أيضًا، وكان الشيخ مصطفى الندوي قد دَرَسَ على أبي الحسن الندوي من سنة 1977 حتَّى سنة 1986 بالهند.

والهنود يعظمون شأن مصر وعلمائها، ويعرفون أن صلاح الإسلام يأتي من مصر، فكانوا يقدرون قيمة هذا البلد الذي يحوى الأزهر الشريف، قلعة العلم والعلماء، وكانوا يتمنون ألا تنحرف دعوة حسن البنا عن الطريق المستقيم.

أ - التأثر بفكر الشيعة:

تأثر حسن البنا بالشيعة وأفكارهم على إثر لقائه واجتماعه بهم في موسم الحج من بعد عام 1940م، وكذا تأثر بأفكار شيخه جمال الدين الأفغاني، وذلك في عدة أمور على رأسها الانصراف عن الإصلاح الاجتماعي من القاعدة إلى القمة والرأس، إلى الثورة وتغيير الهرم من رأسه، بالسيطرة على الدولة ثم التفكير والشروع في إصلاح المجتمع، الدولة قبل المجتمع، على عكس المجتمع قبل الدولة.

يزعم الإخوان أن جماعتهم إنما أسست وأنشأ بها النظام السري الخاص، الذي يتولى حمل السلاح والمحاربة والتدريب، لمقاومة الصهيونية ومحاربة الاستعمار الإنجليزي، ولكن خرج هذا النظام عن السيطرة، وصار كالسرطان يأكل بعضه، ويهدد كيان الجماعة ذاتها.

واصطنع حسن البنا لنفسه دورا في القيام بالتقريب بين مذهب السنة والشيعة، وهذا التقارب بدأ في مصر حضرها عالم شيعي يدعى محمد تقي القمي ، فأنشأ بها دارا للتقريب بين المذاهب الإسلامية، وانضمَّ إلى هذا الأمر الشيخ محمد محمد المدني الذي أصبح عميدًا لكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر بالقاهرة، والشيخ محمود شلتوت الإمام الأكبر شيخ الأزهر، والشيخ أحمد حسن الباقوري الذي أصبح فيما بعد مديرًا لجامعة الأزهر ووزيرًا للأوقاف، ووقتها تولى الشيخ المدني رئاسة تحرير مجلة رسالة الإسلام التي صدرت في نفس السنة التي أنشئت فيها الدار بعد وفاة البنا، وضمت بين كُتَّابها مجموعة كبيرة من علماء السنة والشيعة ووضعت أساسًا لمعني التقريب ومبادئه، وأخذت في الصدور في القاهرة لمدة تقارب خمسة عشر عامًا من سنة 1949م إلى سنة

1964م، وكتب فيها العديد من العلماء وصدرت في دار التقريب بين المذاهب في مصر، ومجلة رسالة الإسلام مطبوعة في هذه المدة، قد حلَّت أغلب ما بين السنة والشيعة نظريًّا، ولكن لم يتعد الأمر إلى عموم الناس.

يحكي عمر التلمساني في كتاب «**ذكريات لا مذكرات**» عن دخول حسن البنا إلى دار التقريب: «فقال رضوان الله عليه: اعلموا أن السنة والشيعة مسلمون تجمعهم كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهذا أصل العقيدة والسنة والشيعة فيه سواء وعلى النقاء، أما الخلاف بينهما فهو في أمور من الممكن التقريب بينهما فيها»[1].

وقد انقلب على النبا بسبب فكرة التقريب محب الدين الخطيب حيث كان يرى التقريب مستحيلا، وأن الشيعة أشد على المسلمين من الكفار أنفسهم، [2].

ب - التأثر بالماسونية:

مِن أكثر الأشياء الدَّالة على انحرافِ جماعة الإخوان عمَّا كانوا عليه في بدايتهم تأثرهم بفِكر الماسونيَّة، وهذا أمر قد صرَّح به كثير من الكتَّاب والأدباء، وصفوهم بأنهم يسيرون على نفس ما يسير عليه الماسونيَّةِ، وخاصة أنهم لهم ظاهر وباطن، والماسونية معروف عنها أن لها طقوسًا وخطة معلنة وخطة غير معلنة؛ أما الخطة المعلنة فهي تدعو إلى الإنسانية وخدمة المجتمع والسلام العالمي، وأما غير المعلنة فهي التي تتلخص في السيطرة الصهيونية على العالم، وكذلك جماعة حسن البنا لهم ظاهر وباطن ربما يختلف الباطن إلا أنه غير متفق مع ما جاءت به الشريعة.

---

(1) ذكريات لا مذكرات (ص 249) تأليف: عمر التلمساني- دار الاعتصام- 1985م.

(2) نشر محب الدين الخطيب في مجلة الفتح العدد 862 مقالًا علق فيه على قضية التقريب التي كانت مثارة في ذلك الوقت وموقف جماعة الإخوان منها، وقد ردت عليه الإخوان في مجلتهم التي كانت باسم «الإخوان المسلمين» في العدد 217 في السنة السادسة جاء في ردهم: «وبما أن المسألة مسألة دين والكلام في الدين يجب أن يكون صريحًا واضحًا فلابد لنا أن كون صرحاء في تفهم الغرض المقصود من العمل على إزالة الفوارق أو بعضها ما أمكن...».

عندما أنشأ حسن البنا النظام الخاص وغلب أمر السرية على تلك الجماعة كان نظام البيعة للإخوان يدور كما يدور عند الماسونية، وطريقتها أن المبايع يدخل وسط هذه الطقوس الظلامية ويأتي شخص مقنَّع يخفي وجهه وسط هذا الظلام الدامس، والمبايع لا يعرف من يبايع، وعند أداء قسم البيعة يضع يده على المصحف واليد الأخرى على المسدس ويقسم على الولاء والطاعة، وتتضمن البيعة الشخص المبايع بحق الجماعة في قتله إذا خرج عنها، وهذه الطقوس نفسها هي التي تأخذ بها الماسونية، وأمر البيعة لم يكن هكذا في جمعيات أهل السنة مثل الجمعية الشرعية، فعندما يذهب الفرد إليهم لا يطالبونه بشيء من تلك الأمور، وهذا أمر عهدناه ورأيناه ونعرفه جيدًا.[1]

جـ - التعاون مع النازيين:

يدخل ضمن انحرافات حسن البنا بجماعة الإخوان المسلمين التعاون مع النَّازيين والتأثر بهم، ففي خضم الدراسة التي كان يتبناها البنا لحياة الأمم تأثر بالشيوعية، وهي التي مرت بأفكار ماركس وفريدريك إنجلز وتطبيق تلك الأفكار عند لينين، وكل هؤلاء كانوا يدعُون إلى الأممية، وكان شغل البنا الشاغل هو دراسة الأمور العالمية من أجل أن يصنع نموذجًا إسلاميًّا مثلها، وهذا يعد طلبًا للهداية من غير الكتاب والسنة، وهذا محل الخلاف بيننا وبنيهم، يذهبون ويأتون بأي شيء فيما تتوصل إليه عقولهم وأفكارهم ويضعون عليه من الخارج لافتة إسلامية، وهو ليس من الدين؛ لأن الدين لا يصلحُ أن يُلعب به في المسائل الحزبية، وكل من يقول هذا صواب وهذا خطأ، فلا بد أن يكون على مقياس الإسلام.

تعاون البنا مع كل مَن يدعو إلى الأممية من أجل أن ينشئ جماعته، تعاون مع النازيين وأخذ منهم الأموال أيضًا، كما أخذ من قبل من الإنجليز خمسمائة جنيه، وهي ما سماها

---

[1] - حقيقة التنظيم الخاص ودوره في دعوة الإخوان ص32.

حسن البنا في مذكراته: هبة شركة القنال[1]، والحديث عن التعاون مع النازيين سيأخذ شكلًا موسعًا عن غيره؛ نظرًا لكثرة الأحداث فيه من البداية حتى الآن.

تكمُنُ المشكلة في أن النازيين كان بينهم وبين الروس صراعات، أتعبت النازيين وجعلتهم يفكرون بطريقة أخرى في مقابلة الروس بالسياسة، من ضمن تفكيرهم البحث عن قِيادات دينية في الشرق حتى يُستغلَّ المسلمون في روسيا ضد الحكومة الروسية، وهذا أمر ساعد عليه وأزكى ناره إيذاء الروس للمسلمين في روسيا، إيذاءً شديدًا، ومات منهم الكثير خاصة في أحداث الثورة البلشفية.

وعند البحث أثناء حرب ألمانيا مع الرُّوس أَسَرَ الروس بعض المسلمين في مقاطعة «بروسيا» فقام بزيارة هؤلاء المسلمين الأسرى: غريب سلطان، وولي قيوم عليم خان[2] ووعدا الأسرى بتحسين حالهم، ومن هنا انضم إليه من ألمانيا حوالي ثمانية ألف شخص من المسلمين القِرم والمسلمين في روسيا على استعداد لتقديم الخدمات لهتلر، في هذه الأثناء ظهر شخص كان مفتيًا للقدس اسمه أمين الحسيني، وأخوه هو كامل الحسيني، وكان أمين الحسيني منبهرًا بشخصية حسن البنا انبهارًا كبيرًا، وهو الذي يكبره بسنوات عديدة، فأمين الحسيني ولد سنة 1896م، وحسن ولد سنة 1906م وبينهما عشر سنوات، لكن الحسيني كان عند حسن البنا كالتلميذ بين يدي أستاذه.

وكشفت الوثائق السرية أن أمين الحسيني استطاع باتصالاته الوصول إلى موسوليني، وأمين الحسيني يفعل هذه الأمور؛ لأنه ضد الإنجليز فيتعاون مع العدو

---

(1) انظر: مذكرات الدعوة والداعية (ص 121). وانظر: حقيقة الخلاف بين الإخوان المسلمون وعبد الناصر (ص 29- 30) يرويها: محمد حامد أبو النصر «المرشد الأسبق» دار التوزيع والنشر الإسلامية- الطبعة الثانية- 1988م

(2) انظر: مؤامرات الإخوان من واقع ملفات CIA وملفات MI6- منتهى السرية (ص 7) وما بعدها- تأليف: توحيد مجدي- دار أخبار اليوم- القاهرة- 2014م. وانظر: مسجد في ميونيخ (ص 29- 36) و(ص 59-62).

من أجل الإطاحة بالعدو الأساسي، وعندما قابل موسوليني أرسله إلى هتلر، وهتلر أعطاه قبل المقابلة من وقته نصف ساعة؛ لأنه لا يعرف ماذا يطلب منه هذا المفتي، جلس معه أمين الحسيني ست ساعات، أوضح له هتلر مدى خطورة الإخوان، لكنه أقر أن من باب السياسة أنه لابد من التعاون معهم.

اتفق هتلر مع أمين الحسيني على التعاون، وكان يشرف على تلك الأمور رجل ألماني يُدْعَى فون منده، اتصل فون منده بحسن البنا وكتبوا ورقة، وبهذه الكتابة دفع هتلر ثمن إنشاء النظام الخاص، هذا النظام الذي قتل الخازندار وغيره ممن ذكرناهم، بتمويل من هتلر، وهذا الكلام ثابت في الوثائق التي لديهم التي فضحتْهم بعد ذلك، وتدرَّب على يد الجيش الألماني ثلاثمائة شخص مصري أرسلهم البنا، واستطاع أمين الحسيني أن يجعل الثمانية ألفا الذين كانوا مع هتلر من المسلمين خمسةَ عشر ألفًا من أجل أن يستطيع هتلر إيذاء الروس، فنخلص من ذلك إلى أن الأمر الأول هو تسلم المال من أي جهة والقبول بإنشاء التنظيم الخاص. والثاني فهو تدريب بعض المصريين في ألمانيا، وأصبحت هناك علاقة وثيقة بين حسن البنا وهؤلاء[1]. هذه هي البداية[2].

وبعد ذلك بدءوا في تأسيس مسجد للألمان في مدينة ميونخ، في نفس التوقيت الذي تعاون فيه حسن البنا، والمسجد اسمه مسجد ميونخ، وتم بناؤه ليكون البوابة التي يتسلل الإخوان من خلالها إلى ألمانيا والغرب وأمريكا، وكان مدير هذا المسجد مهدي عاكف في شبابه عندما كان حامد أبو النصر مرشدًا للجماعة، ويحكي مهدي عاكف

(1) ولعل كثيرا من الإخوان ينفي هذا الكلام أو يتشكك فيه، وذلك لأنه لا يعرفه، وبطبيعة الحال مثل هذه الأمور لا يعرفها إلا القلة، وهم يتكتمون عليها، ولكن الشبهات التي وضع البنا نفسه فيها بسلوكه غير طريق النبوة، وما فعله نظامه الخاص من قتل وحرق، كل ذلك لا يعفي رجلا من التصديق التام لهم والاعتقاد الجازم بصفائهم ونقائهم وغير ذلك من الأوهام.

(2) راجع مقال بجريدة الصباح بعنوان: «وثائق ألمانية سرية تكشف تعاون حسن البنا مع هتلر أثناء الحرب العالمية الثانية». بتاريخ الأحد 20 أبريل 2014م.

قصة بناء هذا المسجد الذي يعد صرح الإخوان في الغربِ والذي تكفل ببنائه وإحضار المال له يوسف ندا، وبناء المسجد في بلاد الغرب خير ولكن تسخير بيت الله من أجل نصرة دعوة جماعة معينة، دون نصرة دين الله ذاته، هذا هو الخطأ وهذا ما نرفضه.

وعليه فقد اتهم بعض رواد المسجد من أفراد جماعة الإخوان بالعمالة والخيانة وتورُّطهم في بعض أحداث قتل أخرى في أوروبا، وهذا ما حكاه مؤلف كتاب: «**مسجد في ميونخ**» ففي ختام كتابه يخبرنا جونسون أن سعيد رمضان كان متهمًا بتدبير اغتيال ثانٍ لعبد الناصر، ويقول: وقدمت السلطات المصرية آلاف الوثائق التي تثبت تورطه في هذا إلا أننا لا نأخذ بها، انظر إلى رسم الصورة وصناعة الصورة أن كل تلك الوثائق لا نعتبرها.

أمر آخر يتعلق بسعيد رمضان وهو أمر يعد دليلًا على أنهم يأوون القَتلة، ما حدث في سنة 1980م عندما قتل داود صلاح الدين الإيراني علي أكبر الطبطبائي وهو من رجال الشام في واشنطن، اتُّهم فيها سعيد رمضان وهو في الحقيقة بريء منها، وهذا الكلام يعترف به داود صلاح الدين ويبرئه، لكن الذي فعله سعيد رمضان أنه سعى لتهريب داود إلى جنيف ثم من جنيف إلى طهران، فأصبح بهذا الشكل مشاركا في قتل علي أكبر الطبطبائي.

هُزمت ألمانيا في الحرب العالمية الثانية وورث أرشيف التعامل مع الإخوان المخابراتُ الأمريكية بكل من فيه من شخصيات بما فيهم فون منده وجماعته، وعندما استلمت أمريكا تلك المعلومات تعاون معها من الإخوان المسلمين سعيد رمضان، فعل ذلك لأنه يرى من وجهة نظره أن هذا من أجل مصلحة الإسلام والمسلمين، وهو أيضًا ما نختلف معه فيه، وهو ليس له شأن بمصر ولا بالعرب، وهم دائمًا في حالة تبرير لأفعالهم.

وبعدما قسِّمت ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية إلى الشرقية والغربية استُعمل سعيد رمضان ضد ألمانيا الشرقية، لأنَّ ألمانيا الغربية كانت تابعة للولايات المتحدة الأمريكية، وطلبوا وقتها منه أن يعمل منظمة سرية من أجل تخريب ألمانيا الشرقية، فبدأ يعمل على هذا الأمر وقيد عندهم أنه عميل جيد، وعاش مع المخابرات الأمريكية مدة والبريطانية مدة ثم آلَ الحال أن مكث في جنيف وأسس هناك المركز الإسلامي وبقي بها إلى أن مات سنة 1995م[1].

والشاهد من كل هذا أن هؤلاء الناس يشاركون في الدم بخبث، وأن عقليتهم ونفسيتهم هشة، والشاهد أيضًا أن هذه الأمور ليس لها شأن بالمحجة البيضاء التي تركها لنا رسول الله ﷺ، هذه العقلية التي جاءت منها كل هذه المشكلات، وكلامهم مخالف لسيدنا رسول الله ﷺ، منحرفين عن الطريق المستقيم وإن ظهر للناس غير ذلك.

انحرفت الجماعة ودخلت الفتنة والتحزب والسياسة، واستغلت الدين في كل حروبها على أبشع الوجوه، فصاروا أصحاب دين مواز، يسعون لنصرة قضية الجماعة ومصالحها، بداية من التأثر بالشيعة ثم الماسونية في السلوك والأفكار والتنظيم، ثم التعاون مع النازيين وغيرهم، فتحولت من جماعة قائمة على الذكر والعبادة إلى جماعة تدعو في كثير من أعمالها إلى القتل والإبادة.

حتى جاء اليوم الذي تعلن فيه جماعة الإخوان المسلمين الحرب صريحة على المجتمع المصري والدولة المصرية بدون مواربة أو تستر، فقد وقع تحت أيدينا ملف يتداوله أفراد الجماعة الإرهابية فيما بينهم في شكل إلكتروني، ينسب إلى المجرم مجدي شلش مفتي جماعة الدم، وهذا الملف يتداولونه أيضا في صفحات التواصل الاجتماعي.

وسوف نعرض على القارئ بعض ما جاء فيه من تحريض على القتل وسفك الدماء:

---

(1) انظر: مسجد في ميونخ (ص 379، 381).

قال: لقد بات مباحا للشعوب استخدام القوة كسبيل بديل للتغيير على حسب ما يقتضيه الموقف في ضوء المصالح والمفاسد . فالقرآن الكريم الذي قال : "كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة". في مرحلة ما ، وكان رفع السيف محظورا ومخالفا لله ورسوله، وجاء في وقت لاحق يقول: "أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا". فأباح المحظور ، ثم جاء بعدها مُرَغِّبا "هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم". فتحول من الإباحة إلى الندب ، ثم جعله فريضة وواجبا "كُتب عليكم القتال وهو كره لكم" ، ثم شن القران حملة على القاعدين والخوالف الذين تركوا الجهاد ولم يخرجوا مع إخوانهم !!

فهذا القتال دارت عليه الأحكام التكليفية من المنع إلى الوجوب، وبعدما كان المقاتل خارجا عن السياق ومخالفا للتكليف، عاد الأمر ليصبح القاعد هو الخارج عن السياق ومخالفا للتكليف .

فالمرحلة التى تعيشها الأمة بهذا الضعف والوهن، والمرحلة التي لا تُحترم فيها إلا القوة، والمرحلة التى لا يعاملك فيها العالم بالسلم إلا باستعدادك أنت للحرب، تحتاج إلى رؤية جديدة وانطلاقة جديدة . فالمقاومة دين وشريعة.

فقد وصل حال شعوبنا مع الأعداء أن إيذاءنا دينيا واقتصاديا وصحيا بات في متناول أيديهم ليل نهار، ولا يمكننا أن نصل إليهم بما يؤذيهم بشيء، وذلك لأن أنظمتنا هل التي تقوم بدور الحيلولة بين الشعوب وبين عدوها، فإذا كانت الدائرة على الأعداء تدخلت الأنظمة بكل ما تملك لإنقاذ حلفائها منهم، واستخدمت موارد بلادنا لحمايتهم والدفاع عنهم ، لأنها باتت تقدم مصلحتهم على مصلحة شعوبهم ، ولما كان رد اعتداء المعتدين واجبا شرعيا ، وكان هذا الواجب معطلا بسبب الأنظمة المستبدة والعميلة والموالية للأعداء ، فإنه لا بد من مناوشة هذه الأنظمة أولا، فتعتدل أو تعتزل، وما لا يتأتى الواجب إلا به فهو واجب .

إن الأمة فرطت في الجهاد حتى وصفه الواصفون بالفريضة الغائبة ، ومن أعظم ألوان الجهاد التي يراد لها أن تغيب ، مناصحة الحكام ، وإن الشهادة لها طريقان رئيسان، الاستشهاد على يد الكفار (مثل حمزة) والاستشهاد على أيدي فجرة الحكام ، وقد جمع الصنفين الحديث الشريف : " سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله ". [أخرجه الحاكم 215/3 ، رقم 4884، وقال : صحيح الإسناد]

إن الناس يذكرون شهداءنا في المعارك مع اليهود، وينسون شهدءنا على أعواد المشانق وفي المعتقلات والذين قدمهم الحكام الظالمون قربانا لأسيادهم، والحديث لم يفرق بينهما.

كلمة لابن تيمية في هذا المقام:

ولتعلم أن حكم من والى الأعداء من المسلمين حكم العدو المحارب ، وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله : (وكل من نفر اليهم – أي : إلى الأعداء – من أمراء العسكر وغير الأمراء فحكمه حكمهم وفيهم من الردة عن شرائع الإسلام بقدر ما ارتدّ عنه من شرائع الاسلام ، واذا كان السلف قد سموا مانعي الزكاة مرتدين مع كونهم يصومون ويصلون ولم يكونوا يقاتلون جماعة المسلمين، فكيف بمن صار مع أعداء الله ورسوله قاتلا للمسلمين؟!) [مجموع فتاوى ابن تيمية 530/28، وانظر : فتاوى الأزهر 378/7]

فالمهمة التغييرية مهمة شاقة، بل إن الأيام تزيدها مشقة،لأن القيادات السياسية القائمة في العالم الإسلامي والقابضة على الزمام فيه تعمق لونها العقائدي المناهض للإسلام والمرتبط بأعدائه.

إن القوى الظاهرة والخفية القابضة على الزمام في العالم الإسلامي قوى شريرة، مغسولة الأدمغة، قد هيأها أعداء الإسلام لهذا الدور منذ زمن بعيد.. هذه القوى لا

يمكن قهرها والتغلب عليها بغير جهاد وبغير حركة جهادية وبغير تربية جهادية.. هذه القوى تمتلك كل أسباب القهر والتنكيل والإبادة، ومعطى لها الضوء الأخضر من كل أعداء الإسلام في الداخل والخارج وعلى رأسهم القوى الدولية (الصهيونية والصليبية العالمية).

إن إزالة هذه القوى وإقامة الإسلام مكانها ليس بالأمر السهل الهين، فهي ستتشبث بمواقعها حتى النفس الأخير.. وإن تحقيق ذلك يحتاج إلى حركة أعدت نفسها للجهاد الطويل والمرير ولكل أنواع المعاناة والمواجهات..

فينبغي أن تكون لأصحاب الحق المستضعفين وقفات حاسمة مع الباطل، تحد من غلوائه وتوقفه عن حده، وربما يكون الأليق التهديد أو الاشتباك بالأيدي وانتزاع المشروعية ، كما في حادثة الطواف والصلاة عند الكعبة، أو الجراحات كما في حادثة سعد، أو التهديد كما في حادثة أبي بن خلف، أو بالعمليات النوعية كحادثة تلويث الأصنام أو كسرها، وهكذا. لكن ينبغي أن تكون الخطوات محسوبة.

كما دلتنا هذه الأحداث على أن هندسة الصراع تقتضي تطويل النفس إلى أبعد مدى، والحرص على ألا تصل الأمور إلى الصراع المسلح، لأن الصدام المسلح ليس من مصلحة المسلمين آنذاك، والسلمية والمظلومية قد تكسب الدعوة أنصارًا أكثر .

وبذلك يكون السيسي ومن معه من الوزراء والإعلاميين وقضاة الزور وشيوخ الانقلاب كل هؤلاء في حكم المحاربين ويجب تطبيق حد الحرابة عليهم، لاشتراكهم في القتل والغصب بالقرار والقضاء والفتيا والقنص والتغطية الإعلامية.

وفي غير أوقات ممارسة الظلم، أو فترة استخفائهم عندما يكونون بعيدين عن سلطانهم، كضباط الشرطة الذين يغيرون ملابسهم في غير مكان وزمان عملهم، كل ذلك لا يسقط حق الاستيفاء منهم. أي قتلهم. سواءا كانوا في عقر دارهم أو بيوتهم أو في الطرقات أم داخل أقسام الشرطة ، وفي وقت الاعتداء أو بعده اختفوا أم ظهروا. أهـ

إلى آخر ما يسوقه لأتباعه من تحريض على الإجرام وتسويغ له مما قطع الشك باليقين في خبل تلك الجماعات الضالة وخروجها عن كل الأطر القانونية والشرعية والاجتماعية، حتى يحرضوا على سفك الدماء في الشوارع والمنازل والمؤسسات وغير ذلك.

***

المبحث الرابع

الإخوان المسلمون والصراع السياسي في مصر

ستتناول هذه النقطة من خلال شقين؛ الشق الأول: بداية الاتجاه إلى السياسة. الشق الثاني: التحول إلى القتل والإبادة وإزهاق الدماء.

المطلب الأول: بداية الاتجاه إلى السياسة.

عندما اتَّجهت جماعة الإخوان بقيادة حسن البنا إلى الجانب السياسي نبَّههم العلماء العارفون بعدم التدخل في السياسة حتى لا تنحرف الجماعة عن مسارها الصَّحيح، وإلا فليُعلنوها حزبًا سياسيًّا، أو تكون جمعيَّة إسلامية دعوية، وقتها رفض البنَّا أن تكون جمعية فقط أو حزبًا سياسيًّا فقط.

وهذا الرفض من ناحية حسن البنا نَتَج عنه أن شاركت جماعته في العمل السياسي في مصر، وهذه المشاركات السياسية تعد تطبيقًا لنظرية الهرم المقلوب التي تكلمنا عنها، فحسن البنا لم يلبث أن تحوَّل عن طريق الذكر والعبادة ومواظبته على المأثورات التي قام بإعدادِها وجمعها من الكتاب والسنة إلى المشاركة في العمل السياسي وإقحام نفسه فيها على طريقة السياسة الحالية، وليست السياسة الشرعية التي يعرفها العلماء، والواضحة في كتب الفقه والمذاهب المعتمدة.

وكان التحول نتاجًا لما حدث له ولجماعته من انحراف وتأثر بغيرها من التيارات سواء أكانت دينية أم تيارات عالمية معروفة كالماسونية الصهيونية والشيوعية والنازية، فبدأ البنَّا يسعى لأن يَحكم هو ولا يحكمُه غيره، بحجَّةِ أنه سيحكم بما أنزل الله، وأنَّ الحكم السائر الموجود في ذلك الوقت على غير مراد الله تعالى، والحاكم الموجود أيضًا لا يحكم بما أنزل الله؛ كما هي نظرتهم وفكرتهم.

ومن المعلوم أنَّ من يدخل طريق السياسة هذا لابدَّ أن يتخذ الكذبَ والنِّفاق مطيَّةً لما يصبو إليه، ولا بد أن تبدأ الصِّراعات على المناصب، فيبدأ كل فريقٍ يعادي الآخر

ويُماريه، بل وقدْ تصل الأمر إلى تكفير الخَصمِ، وهذه هي طريقة السياسة التي يعلمها الجميع، وهو الأمرُ الذي أحدث الصراع بين الإخوانِ المسلمين وبين الأحزاب الأخرى، ومعلوم أيضًا في عالم السياسة أن الحزب الضعيف ليس له مجال إلا التدبير السري والتآمر والاغتيالات لكل مَن يوقف مسيرته السياسية.

وعندما بدأ حسن البنَّا يدخل العملية السياسية بدأ بالمشاركة في الانتخاباتِ، وقتها أرسل إليْه مصطفى النحاس واتفق معه أن تقتصر دعوته على الدعوة للإسلام والتزام حدوده، والبعد عن السياسة والاشتغال بها حتى تظل الدعوة خالصة لله، وهذا ما أورده النحاس في مذكراته، مع اعتراضه على حوادث القتل التي سيأتي ذكرها بعد: «إن الإسلام لا يقر شيئًا من هذا ولكن يدعو إلى مقارعة الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق والدليل بالدليل وهو براء من الغدر والخيانة وتطبيق شريعة الغاب»[1].

في هذا الوقت تشتت حزب الوفد؛ فمحمد باشا محمود عمل الأحرار الدستوريين، وبعده إبراهيم باشا عبد الهادي وأحمد بك جودة وأحمد باشا ماهر ومنهم محمود فهمي النقراشي هؤلاء كوَّنُوا الهيئة السعدية نسبةً إلى سعدِ زغلول، وبدأ السعديون يلاعِبونَ الإخوانَ المسلمينَ والإخوانُ المسلمونَ يلاعبونَ السَّعديِّينَ.

وقد كان من المفروضِ أن تكون جماعة الإخوان المسلمين جمعية دعويَّة، وهذا نابعٌ من قضيَّة كذب الإخوان فهم متهمون ولا يزالون يكذبون، وقد تقدم أن حسن البنا لم يسمع نصيحة العلماء في جعل هذه الجماعة جماعة دعوية، وهو الذي لم يكن عالمًا وكان عليه أن يسند الأمر إلى أهلِه.

---

(1) انظر: مذكرات مصطفى النحاس. ربع قرن من السياسة في مصر (202/2) دراسة وتحقيق: أحمد عز الدين- العصور الجديدة- 2000م. وراجع: الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ (381/2) وما بعدها. وكيف يؤول الإخوان توجه البنا للسياسة.

وهنا علينا أن نزيل عن أفهام بعض الناس لَبْسًا يحدث عندما نتكلم عن تلك الجماعة بهذا الشكل من اتهامهم بالكذب والخديعة وممالأة كل الجبهات من أجل الوصول إلى أغراضهم، والغرض مرض، هذا اللبس يتمثل في قول القائل: كيف تقولون عليهم هذا الكلام وهم مجاهدون؟ ونحن أيضًا نوجه سؤالًا في هذا الأمر: هم في أي شيء يجاهدون؟! فالخوارجُ كانوا يقولون عن أنفسهم إنَّهم مجاهدون، والذين يسألون تلك الأسئلة يخطئون الفهم، فالجماعة لم تفهم الدين الصحيح، ولا صحيح الدين، فالجهاد الذي يعرفونه هو الخروج على السلطة الشرعية، وعندما آتاهم الله الحكم في مصر وهو الذي انتظروه أكثر من ثمانين سنة ثم نُزِعَ منهم بطريقة شرعية أبَوْا هذا النزع، وبدءوا يقولون كلامًا يُشبه الكلام الذي كانوا يعملونه، وهذا ما يسمَّى في الشريعة الإسلامية بالضَّلال البعيد.

وزهد بعضهم في الحياة لا يعني أنه على الطريق الصحيحة في الدين، فزهد الإنسان لا يعبر عن أي شيء يتصل بحق أو باطل، فليس هناك ما يدعو إلى إلقاء صفة المجاهدين عليهم؛ لأن فهم الجهاد يحتاج إلى فهم صحيح الدين، وليس زهد بعضهم في الحياة يجعلنا نؤيد دخولهم في الحياة السياسية واتِّباعهم أساليب السياسة، فكل هذا دين مواز انتُهِجَ على خلاف ما أمرنا به النبي ﷺ، وتلك الجماعة دلَّ فِعلُ غيرها على خطئها وتسرعها في انتهاج سبلها في الحياة وعدم تعايشها مع الأنظمة التي عاصرتها، وفِعلُ غيرها متمثل في الجمعية الشرعية التي أنشأها الشيخ السبكي التي تعايشت مع كل النظم، واتضح لنا من موجب الجمعية الشرعية أن الإخوان كاذبون.

المطلب الثاني

التحول إلى القتل والإبادة وإزهاق الدماء

التحول إلى القتل والإبادة أمر مُسلَّم به في ظل انتهاج تلك الجماعة الأساليب السياسية بقيادة مرشدها حسن البنا، فطبيعة الحال تقتضي التنافس والتناحر والبغض والكره، وهي أمور كلها ربما تؤدي في كثير من الأحيان إلى القتل والكذب والخديعة واستحلال ما حرم الله والخوض في أمور أمرنا الشرع بالابتعاد عنها.

والكلام عن القتل والإبادة يستدعي سردًا لبعض محاولات الجماعة المتشددة قَتْل بعض الشخصيات الذين عارضوها وحاولوا إيقاف نشاطهم السياسي، وهذا القتل لم يكن محدودًا في قتل شخصيات من خارج الجماعة، بل إنَّه طال شخصيات داخل الجماعة، وهذا أمر سنبينه في الكلمات التالية.

كانت دعوة حسن البنا أمام الناس تقول إنَّهم سيقاتلون المحتل الإنجليزي، ثم بعد ذلك تحول إلى النظام الخاص، ومن وقتها بدأ نظام التطرف والعنف والإرهاب والدَّم، وبدأت فكرة الدولة قبل المجتمع تتغلغل في التطبيق السياسي في المجتمع، الأمر الذي جعله يتحول من المأثورات التي هي مجموعة الأذكار المنتقاة من الكتاب والسنة وعن منهج الشيخ الحصافي الذي نصحه ولم يتقبل نصيحته إلى المقاومة بالسلاح وتدريب جماعته على استخدام السلاح.

وفكرة الدولة قبل المجتمع من أخطر الأمور التي تبناها البنا وهي التي أدت به إلى ارتكاب كل هذه الجرائم باسم الدين، ولم يكن المشايخ الذين دعموه في بداية أمره كالشيخ الدجوي يدركون هذا الأمر عنده، وهذه الفكرة ناقشها الشيخ محمد الغزالي رحمه الله عندما قال: «ولقد عجبتُ لخلاف وقع بين شباب من المسلمين أثاره بعضُهم بتشاؤم هو: نحنُ جماعة المسلمين أم نحن جماعة من المسلمين؟ والإجابة على هذا السؤال لها نتائج ذات بال. بل نتائج ترتبط بها صيانة دماء وأموال! فإن الذين يحسبون

أنفسهم جماعة المسلمين يرونَ مخالفة قائدهم ضربًا من مخالفة الله ورسوله، وطريقًا ممهدة إلى النار وبئس القرار! إلا أنني عزَّ على أن يلعب بالإسلام وأبنائه بهذه الطريقة السمجة، وأن تتجدد سياسة الخوارج مرة أخرى، فيلعن أهل الإيمان ويترك أهل الطغيان»[1].

فانظر إلى تفرقة الشيخ الغزالي بين أمرين، الأول إن كانوا جماعة المسلمين فإن ذلك احتكار لصفة الإسلام فيكون ما دونهم خارج عنه، وأما جماعة المسلمين أي جماعة داخلة في المسلمين وغير خارجة عنهم، تقبل غيرها كقبول الجزء للكل.

وهذا الموقف من الشيخ الغزالي لم يذكره القرضاوي فيما ذكره من مذكرات الغزالي، وهذا نقص للأمانة، وتغمية للأحداث، فقد حكى القصة ولكنه أغفل الحوار السابق ذكره[2].

وقد رأينا القرضاوي يدعو أتباعه إلى الحرب ويأججها نارا مشتعلة، ثم يقول لهم سلمية. إنه رجل واهم يضحك على نفسه وعلى إخوانه، ويزج بهم في الهلكة، حتى يسعر الفتنة ويهلك الحرث والنسل، فأشبه بإبراهيم الهلباوي الذي كان محاميًا كبيرًا وبارعًا وله لسان فصيح، وعندما وقف كمدع ضدَّ وطنه في حادثة دنشواي ضاع الهلباوي من وقتها وضاع تاريخه ومكانته، وكرهه الشعب.[3] ولم تسلم مصر من تحامل أبنائها عليها واتهامهم لها بعدم الإسلام والانفصال عن الواقع المتمثل في دعوة أبناء تلك الجماعات المتشددة إلى السلمية.

---

(1) الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية (ص 63، 64) تأليف: محمد الغزالي السقا- نهضة مصر- الطبعة الأولى- 2005م.

(2) انظر ما كتبه القرضاوي في مذكراته «ابن القرية والكتَّاب» (1/358) وما بعدها- دار الشروق- مصر- الطبعة الثانية- 2008م. وقد كتب القرضاوي أيضا كتابًا بعنوان: «الشيخ الغزالي كما عرفته». ومع ذلك لم يتأثر به في تحديد موقفه من جماعة الإخوان.

(3) انظر: فتنة القرضاوي (ص 13).

أ- مقتل أحمد بك الخازندار.

حدث خلاف بين حسن البنا وقتها وبين عبد الرحمن السندي رئيس التنظيم الخاص بسبب قتل القاضي أحمد بك الخازندار؛ ويحكي لنا ما حدث بين البنا والسندي بعد مقتل الخازندار عبد العزيز كامل في كتابه «**في نهر الحياة**» يقول: وجدت المرشد حسن البنا في حالة يُرثى لها لما حدث من ضجة في البلد بسبب قتل الخازندار باشا. فسأله عبد العزيز كامل قائلًا: يا فضيلة المرشد هل أمرت بقتل الخازندار؟

قال حسن البنا: أقسم بالله العلي العظيم لم أقل لأحد اقتله.

قال له عبد العزيز: فمن إذن؟

قال البنأ: من الممكن أن يكون عبد الرحمن السندي، أَرْسِلُوا في طلب عبد الرحمن السندي.

فعندما جاء قال له: هل أنت الذي قتلته يا عبد الرحمن؟

قال له: نعم أنا الذي قتلته، أنا مَنْ أرسلت الشابَّين(1) لإنفاذ هذه المهمة.

فقال له: يا عبد الرحمن هل قتلته بالفعل؟ قال: نعم يا عبد العزيز. قال له: أنت بهذه الفعلة أضعتنا. قال له عبد الرحمن: أنا ما فعلت شيئًا إلا بأمر المرشد. قال كامل:

---

(1) الشَّابان اللذان قتلا المستشار الخازندار هما حسين عبد الحافظ ومحمود زينهم، وكان أحدهما سمينًا والآخر نحيفًا، وقد ذكر مرتضى المراغي الذي كان وزيرًا للداخلية وقتها أن هذين الشابين لم يكن يعرفان المستشار الخازندار، فعندما حُقِّق معهما سأل المحقق الشابين: هل تعرفان من الذي قتلتماه؟ فأسَرَّ أحدهما للآخر فاستغرق الثاني في ضحكٍ استمر طويلًا وأخذا يضحكان كثيرًا وهُما في التحقيق. فقال لهما الوزير: ما الذي يضحككما؟ فأجابه أحدهما: بأنَّه دائما يقول لي طُرَفًا وأنا ضحكت على طرفةٍ قالها لي. فقال له: هل تعرفان الذي قتلتماه مَن يكون؟ قالا: لا، نحن قتلنا شخصًا من حلوان. فقال لهما: أنتما قتلتما المستشار أحمد الخازندار؟ فقالا: مَنِ المستشارُ أحمد الخازندار؟ فقال مرتضى المراغي وقتها: تذكرت مذكرة كان كتبَها لي ضابط بأن هذه الجماعة تغسل عقول الشبابِ وتفهمهم أنَّ هذا دين وأن هذا في سبيل الله. وما ذكره مرتضى المراغي هو عين الدين الموازي، فلم يبق لهم إلا التكذيب والادعاءات الكاذبة.

المرشد أقسم لي أنه لم يعلم ولم يقل لأحد. قال عبد الرحمن: وأنا أقسم بالله العلي العظيم هو الذي قال لي اقتله.

وهنا تحير عبد العزيز كامل في الأمر فقال: دعونا نعرف ما حدث وما دار ربما اختلط على واحد منكما الأمر فأنا لم أستوعب أنكما تُقسمان كذبًا.

فقال عبد الرحمن: المرشد لم يقل لي مباشرة.

قال عبد العزيز كامل: وماذا قال لك؟

قال: سمعته وهو خارج من مكتبه يقول: يا رب، أما يوجد مَنْ يخلصنا من هذا الشخص؛ ويقصد بهذا الشخص الخازندار، وأنا لم أطق أن أسمع فضيلة المرشد يقول مثل هذا الكلام ولم أطبقه[1].

قال حسن البنا لعبد الرحمن: أنا لم أقل لك مباشرة.

قال عبد الرحمن السندي: قلت ذلك مرة ثانية عندما قلت ألا يوجد من عنده الشهامة ويخلصنا من هذا الشخص، وأنا خلصتك منه.

فقال عبد العزيز كامل: أرجو ألا تفعلوا فعلًا حتى نعود فيه لشيخ معنا ونتخذه مفتيًا؟ ومن هذا الوقت اتَّجهوا إلى اتخاذ مفتيًا للجماعة، لقب وقتها في وسائل الإعلام مفتي الدِّماء.

- مفتي الدماء:

بعد أن حدث ما حدث بين حسن البنا والسندي في شأن مقتل الخازندار لم يكن بوسع تلك الجماعة إلا أن تتخذ خطوة جريئة في حياتها وهي تعيين من يُرجع إليه في كل

(1) وكأنَّ السنديَّ يحاول أن يوصل لنا أنَّه سَمِعَ الكلام من رسول الله فطبَّق ما قال، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وهل حسن البنا كلامه وحيًا حتَّى يُطبَّقَ؟

الأمور الدينية أو الأمور المتعلقة بالجماعة، اتجهت الأنظار في هذا الوقت إلى سيد سابق صاحب كتاب فقه السنة، والذي لُقِّب وقتها بمفتي الدماء.

اتَّفقت الكلمة على اتخاذ سيد سابق مفتيًا لهذه الجماعة، واتفقوا أنهم لا يقطعون أمرًا إلا بعد الرجوع إليه، وفي ذلك الوقت كلفه حسن البنا بعمل كتاب فقه السنة، وصنع حسنُ البنا مقدمة لهذا الكتاب عند صدور أول مجلد منه، وقتها لم يطمئن علماء الأزهر لهذا الكتاب لأنه تتعارض الأدلة فيه مع القواعد الفقهية التي تعارف عليها الفقهاء، كما أنه يوجد به خلط بين المذاهب. وبعدما قتل الإخوان النقراشي باشا قالوا: مَن قال بقتله؟ فذهبوا ليسألوا مفتي الدماء هل أنت الذي قلت بقتل النقراشي؟ قال: لا، أنا لم أُفتِ بقتله. فقالوا: ومن الذي قال إنه يوجد من يسمى بمفتي الجماعة؟[1].

وهذا شأنهم الكذب والخداع المستمر والنفاق والتدليس وقلب الحقائق، فنحن لم نعهد من هذه الجماعة إلا هذه الأمور حتى بين بعضهم بعضًا عند حدوث خلاف بينهم، والكذب عندهم منهج ظاهر وباطن، فالظاهر ليس موافقًا للباطن، وهم في الظَّاهر أهل دين، أمَّا الباطن فعلى خلاف الظاهر، ففيه المؤامرات والقتل والتفجير والترويع وما إلى غير ذلك.

ب- مقتل النقراشي باشا.

ثم نعود بعد ذلك إلى محاولات القتل والإبادة، ففي خضم المعترك السياسي بين الدولة والإخوان ارتكب الجهاز الخاص بالجماعة حادث قتل محمود باشا النقراشي الذي تولى رئاسة وزراء مصر، جاء مقتله على يد طالب من طلاب كلية الطب البيطري اسمه عبد المجيد أحمد حسن، وتم قتله بعدما أصدر قرار حل جماعة الإخوان المسلمين في 8 ديسمبر من عام 1948م، ورأت تلك الجماعة أن هذا القرار لا يمكن أن يصدر

(1) أقسم سيد سابق أنه لم يرجع إليه أحد من الإخوان في أي فتوى وإنما اتخذوه صورة وستارا.

عن مؤمن، فقتلوه صباح يوم الثلاثاء في الثامن والعشرين من ديسمبر نهاية عام 1948م.

جـ- مقتل اللواء سليم زكي ومسئول التنظيم الخاص سيد فايز:

قبل مقتل النقراشي باشا على يد تلك الجماعة المتشددة، وتحديدًا في الرابع من ديسمبر من عام 1948م وأثناء وجود مظاهرة في كلية الطب بجامعة القاهرة (فؤاد الأول سابقًا) قُتِلَ اللواء سليم زكي على يد طالب ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين وهو يحاول فض المظاهرة بالكلية.

تعدى الأمر حدود القتل خارج الجماعة، فلم يكن مقتصرًا على مَن عادى الجماعة خارجها، فقد قُتِلَ سيد فايز مسئول التنظيم الخاص لجماعة الإخوان بالقاهرة[1] على يد عبد الرحمن السندي، ووقع مقتله في عهد وجود حسن الهضيبي مرشدًا لجماعة الإخوان المسلمين، ولم يكن فايز راضيًا عن تصرفات السندي في التنظيم الخاص، وحدث نزاع بينهما على تولِّي رئاسة التنظيم الخاص وضمِّ أفراد له، وفي يوم الخميس الموافق 20 من نوفمبر عام 1953م قُتِلَ سيد فايز بواسطة صندوق من الديناميت وصل إلى منزله على أنه هدية علبة حلوى المولد النبوي، ووُجِّه الاتهام وقتها إلى عبد الرحمن السندي، وهذا مثال جديد يبين لنا قتل الجماعة أفرادها من أجل مصالح دنيئة لا تتصل إلى الدين بأي شكل من الأشكال[2].

(1) الجدير بالذِّكر أن الجهاز الخاص عندما كان تحت قيادة سيد فايز قام بعملية قتل النقراشي.

(2) ذكر هذه الأحداث الإجرامية د: عبد العزيز كامل في كتابه: «في نهر الحياة» من ص (45) إلى ص (62). وانظر: النقط فوق الحروف (ص 217) و(ص 279) تأليف: أحمد عادل كمال- الزهراء للإعلام العربي- الطبعة الأولى- 1989م. وحقيقة التنظيم الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين (ص 450) تأليف: محمود الصباغ- دار الاعتصام.

د- محاولة اغتيال جمال عبد الناصر.

حادثة المنشية الشهيرة، احتدم الصراع بين الضباط الأحرار وجماعة الإخوان المسلمين، فقد ظن الإخوان أن الثورة ثورتهم وأنهم يملون رغباتهم على الضباط الأحرار فيستجيبوا، ولكن سارت الأمر على غير ما اشتهوا، فالضباط الأحرار استقلوا بأنفسهم وبقراراتهم، ولم يعيروا الجماعة اهتماما إذا خالفتهم، ثم تولى عبد الناصر الحكم بعد محمد نجيب، فطمعت كذلك الجماعة مرة أخرى في السيطرة عليه، ولكنه أبى، فدبروا حادثة الاغتيال في المنشية، وحينما فشلوا وكشف أمرهم راحوا يكذبون ويقولون: نحن لم نفعل. لا نعرف . ليسوا منا. نحن لم نأمر بذلك.

والحقيقة أن محمود عبد اللطيف منفذ الضرب، كان ضمن مجموعة من الإخوان هم هنداوي دوير الذي كان يسكن في إمبابة ومتزوجًا من المنيا، وأعطى المسدس لمحمود عبد اللطيف كي يقتل عبد الناصر.

وبعدما تم القبض على محمود عبد اللطيف تأكد هنداوي أنه سيتم القبض عليه فأرسل زوجته إلى المنيا، ثم ذهب وسلم نفسه وقال: أعترف بكل شيء. وتم الحكم على هؤلاء وغيرهم في هذه القضية بالإعدام والأشغال الشاقة[1].

ونذكر القارئ بالمقارنة بين سلوك جماعة الإخوان وسلوك الجمعية الشرعية، إن الإخوان سعوا لقتل عبد الناصر والإطاحة بحكمه، فكان مصيرهم السجون والمعتقلات بين حبيس ومعدوم، أما الجمعية الشرعية فقد حافظت على دورها الديني والاجتماعي، فاستمرت ولم يمسها أحد بسوء، وكذلك جمعية أنصار السنة والتي أسسها حامد الفقي، استمرت ولم تغلق، وهي جمعية سلفية ولها مطبعة، وكان لها مجلة

(1) انظر: التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين (ص 29) وما بعدها- تأليف: علي عشماوي- دار الهلال. وقدِ التقيت مصطفى مشهور، وكان ينكر هذه الحادثة إنكارا شديدا، ويبرئ الإخوان منها.

تسمى اسمها الهدي النبوي ثم التوحيد، والجمعية الشرعية أيضا كان لها مجلة اسمها الاعتصام، ولم يصطدموا مع الدولة أو يحاولوا المنافسة على السلطة.

وقد نال المرشد الأول لجماعة الإخوان حسن البنا نصيب من عمليات الاغتيال والقتل، فاغتيل في فبراير عام 1949م، ودخلت من بعده الجماعة منعطفا آخر في مواجهة مع المجتمع والسلطة السياسية والدينية، في فترة من أحلك الفترات على أهلها.

***

الفصل الرابع
عرض وتحليل
لشخصية سيد قطب وفكره

تمهيد

إن التطرف في فكر سيد قطب كان مرحلة في تحوُّل جماعة الإخوان من السلم إلى العنف، وانحرافها الفكري والعملي في طريق القتل والتخريب، فلنلقي الضَّوء على مرحلة من أخطر المراحل التي مرَّت بها تلك الجماعة المتشددة، وهي مرحلة نشر سيد قطب لأفكار التكفير والجاهلية، وما تولد عن ذلك من ميلاد حركاتٍ إسلامية أكثر تطرفا وعنفا وإرهابا، عانى المجتمع المصري ويلاتها سنوات عديدة.

المبحث الأول: سيد قطب بين الحقيقة والوهم.

المبحث الثاني: الخلل في التفكير والرَّبط السَّاذج بين الأحداث.

المبحث الثالث: تكفير المجتمعات الإسلامية والحكم عليها بالجاهليَّة.

المبحث الأول

سيد قطب بين الحقيقة والوهم

يظنُّ بعضُ الناس في غالب الأحيان أن الشخصيات العامة التي كانت تَقف في وجه السلطة وتعارضها؛ أنَّها على الحق، وأنها تتبع الطريق القويم؛ خاصة إذا صاحب ذلك إذاعة ونشرا وتمجيدا، فما روجه الإخوان لسنوات عديدة عن شجاعة سيد قطب واستبساله في وجه الطغاة الظالمين، وكيف أنه ضحى بنفسه ورغب في الشهادة على قولة الحق التي قالها، وموقفه الذي وقفه في وجه عبد الناصر، فغبش ما فعله الإخوان على ما زرعه سيد قطب من بذور للخروج والتطرف في تكفيره جماعة المسلمين، فاغتر به جيل من الشباب المسلم فانخرط في جماعات إرهابية نشرت الكراهية والبغضاء وسط المسلمين وغيرهم.

أفضى سيد قطب إلى ربه، وهو حسيبه إن أحسن فهو لاقيه، وإن أساء فعليها، ولكن الذي يعنينا ما خلفه لنا وأورثه من أفكار ورؤى، نمحصها ونضعها في ميزان الشريعة، نصرف الناس عما جاء بها من ضلال وزيغ، وإن وجدنا في كلامه صلاحا وهدى. وهو غير متفرد به. نعرض عنه، ونأخذ ممن تقدم عليه وسبقه ممن كان مخلصا في وجهته قليل الخطأ؛ خشية الفتنة بشخص سيد قطب والذي صنع منه الإخوان عجلا معظما.

***

المطلب الأول

الحياة الأدبيَّة عند سيد قطب ومسيرة التحولات

سيد قطب إبراهيم حسين شاذلي، وُلد في قرية موشا بمحافظة أسيوط بصعيد مصر، في شهر شعبان 1324هـ الموافق 9/10/ 1906م، كان له أربعة من الأشقاء هم نفيسة وأمينة وحميدة ومحمد قطب، ومن المستغرب أنه أغفل ذكر أخته نفيسه في كتابه الذي سماه بالأطياف الأربعة، وهي أخته الكبيرة؛ ربما السبب في ذلك كونها لم تقدم معه إلى مصر، وربما لأنها كانت معترضة على سلوكه وتصرفاته وأفكاره. [1].

حفظ سيد قطب في القريةِ القرآن الكريم ونال شهادتَه الابتدائية، ثم انتقل بعد ذلك إلى القاهرة، وأثَّر حفظ القرآن على لغته العربية التي كان مهتمًّا بها غاية الاهتمام، فصار مفوها بليغا[2].

التحق سيد في القاهرة بالمدرسة الثانوية، التي أعقبها دخوله دار العلوم سنة 1929م، وتخرَّج في كلية دار العلوم سنة 1933م وعَمِلَ مدرسًا في وزارة المعارف لمدة ست سنواتٍ، وتقلَّد عدةَ وظائف في وزارة المعارف، وانشغل في تلك الفترة بالأدب والنَّقدِ العربي والشعر ممَّا جعله يكتب في بعض الصحف والمجلات كالأهرام والأسبوع والرسالة والشرق الجديد والعالم العربي وغيرها، وكتب ديوانَ شعر ومقالات، وظهرت له بعض الصِّراعات الأدبية والنقديَّة مع مجموعة من رُواد ذلك العصر كالشيخ الغزالي فقد كانا كفرسي رهانٍ، فهذا يكتب مقالًا وهذا يكتب مقالًا

---

(1) راجع: الأطياف الأربعة (حميدة قطب، أمينة قطب، محمد قطب، سيد قطب) مطبعة مكتبة مصر.

(2) قال سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه ابن حبان (1/281) من حديث حذيفة بن اليمان: «**إنَّ ما أتخوَّفُ عليكم رجلٌ قرأَ القرآنَ حتَّى إذا رُئيتْ بهجتُه عليه، وكانَ رِدئًا للإسلامِ، غيَّره إلى ما شاءَ الله، فانسلخَ منه ونبذَه وراءَ ظهرِه، وسعى على جارِه بالسيفِ، ورَماه بالشِّركِ**». قال: قلتُ: يا نبيَّ الله، أيُّهما أولى بالشِّركِ، المرميُّ أم الرامِي؟ قال: «**بل الرَّامي**».

آخر يرد عليه فيه، لكنه لم يكن عالمًا كالشيخ الغزالي الذي كان يستطيع أن يفهم النُّصوص، ويدرك المقصود من النص[1].

وإذا طالعنا أعداد مجلة الرسالة بتاريخ 1943/4/12م وما بعدها سنجد المعارك النقدية التي كانت بينه وبين الأستاذ دريني خشبة، هذه المعارك التي تطلعنا على شيء من الكبر الذي كان يتحلى به سيد قطب، فقد عدَّ دريني خشبة في مقال له عن الشعراء الجدد سيد قطب من هؤلاء الشعراء وذلك في العدد 561 في 1944/4/3م كتب دريني يقول: «وهل من العدل أن ينكر الأستاذ هذه العشرات من شعراء الشباب وهم أثمن قلادة يتحلَّى بها جِيدُ مصر الحديثة والشعر المصري الحديث؟ هل من العدل أن يجحد علي محمود طه وناجي والخفيف ومحمود حسن إسماعيل ورامي وجودت وغنيم وعبد الغني حسن وعبد الغني سلامة ونجا والعجمي والنشار وشيبوب والبشبيشي وقطب وغيرهم».

فرد عليه سيد قطب في العدد التالي من مجلة الرسالة 562، 1944/4/10م بقوله: «ولأن الأستاذ رائد من رواد الجيل، ولأنه راع للشباب بوجه خاص، فإن عطفه يتسع ويتسع حتى ليشمل الكثيرين، فيسلكهم في عداد الشعراء، والحمد لله والمنة على أنني كنت في مرتين أو أكثر ممن وسعهم عطف الأستاذ الذي وسع كل شيءٍ.... ولكن ما رأي الأستاذ المفضال، لو رجوته في ألا يشملني بعطفه الوسيع».

وكَتَب سيد قطب ديوان شعره: «الشاطئ المجهول» سنة 1935م[1]، وصنع مقدمةً لنفسِه في ديوانه فرَّقَ فيها بين شخصيتين؛ الأولى: سيد قطب الناقد. والثانية: سيد

---

(1) في سياق الحديث عن علم الشيخ الغزالي، فقد حدَّثني رحمه الله ذات مرة أنه عندما جاءَه التعيين في مسجد السبع بنات الموجود بشارع بورسعيد، كان الشيخ عبد الفتاح العناني عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر يصلِّي مع الشيخ الغزالي في مسجده وهو في طريق عودته من الجامع الأزهر، فكان الشيخ الغزالي يأخذُ الشيخ من يدِه حتى يجلسَه داخل المسجدِ ويغلق عليه باب حجرته ويقول له: علِّمْني يا مولانا. فكان يعلمه المنطق والأصولَ، وهذه العلوم هي الَّتي تعطي صاحبها القدرةَ على الغوص في النُّصوص وفهم المراد منها.

قطب الشاعر. وجعل سيد الناقد ينتقد سيدا الشاعر، وتوصل من خلال رؤيته النقدية لنفسه أن سيدا الشاعر بلغ الذروة العالية في الشعر وأطرى على نفسه إطراءً كثيرًا، ومن المعلوم أن النقد لا بدَّ أن يذكر السلبيات والإيجابيات، لكنه لم يذكر سلبيات وإنما ذكر الإيجابيات فقط، فقد بَيَّنَ سيد قطب في مقدمته للشاطئ المجهول إيجابياته لنفسه فقط، فصار كلامه مدحًا لنفسه(2).

وفي 1943/8/16م كتب الأستاذ زكريا إبراهيم أستاذ الفلسفة وصاحب كتاب «المشكلات الفلسفية» في مجلة الرسالة عدد 528، تحت عنوان: «**قضية تخسر**» كتب يقول: «إنَّ كلَّ من قرأ ديوان الشاطئ المجهول لا يذكر جيدًا كيف مهَّد الشاعر سيد قطب لديوانه بمقدمة نقديَّةٍ بقلم الشاعر سيد قطب، وكيف راح يُثني على نفسه في هذه المقدِّمة بكلماتٍ يعجب لها المرء عجبًا يستنفذُ كل عجبٍ».

وقد ورث هذا الكبر والغرور والاعتداد بالنفس الإخوان المسلمون كابرا عن كابر، فهو مرض قلبي ميزهم جيلا بعد جيل، في لحن القول وفي الإشاحة بالوجه وسرعة الغضب والانتقاد، والتسرع في الحكم على الناس، والتشكك والريبة في صدقهم، وندر فيهم من كان مخلصا أو متواضعا بحق.

ومشايخنا كانوا دائما يعلموننا التواضع، وأذكر أنه ذات مرة سألت الشيخ محمد الحافظ التِّيجاني(3) وقلت له: يا سيدنا الشيخ هناك حديث يقول: «تكبروا على المتكبرين فإن ذلك ذلة لهم». فقال لي: لا. لا يوجد هذا الحديث. فقلت له: أو ليس

---

(1) لم يُطبع هذا الديوان إلا مرة واحدة، وقد جمعت له بعض القصائد المتناثرة وطبعت في الأعمال الكاملة لشعر سيد قطب بالهيئة المصرية العامة للكتاب في مجلدٍ واحدٍ، وفيها كلام زكريا إبراهيم ودريني خشبة.

(2) مقدمة الشاطئ المجهول (ص 29) جمعه ووثقه: عبد الباقي محمد حسين- دار الوفاء- الطبعة الأولى- 1989م.

(3) كان رحمه الله من العلماء العارفين والأولياء الصالحين، يجلس يكتب الحديث من العشاء إلى الفجر وكان يصلِّي الفجر بوضوء العشاء ولا تزال الزاوية موجودة إلى الآن وابنه أحمد يقوم عليها إلى الآن.

حكمة؟ قال: لا. فقلت له: يا سيدنا أنتكبر على من يتكبر ؟ قال: لا. إياك والكبر؛ لأنه يخرب القلوب.

والحمد لله أن مَنَّ الله علينا بالأزهر وتربينا على يد المشايخ والصالحين وجالسناهم وتعلمنا منهم التواضع والرحمة فحضرنا لسيدنا الشيخ صالح الجعفري وسيدنا الشيخ الحافظ التيجاني وتعلمنا على يد سيدنا الشيخ أبي العلا الشهير بجامد، وكانوا أكابر، وعلَّمونا كيف نتعامل مع الناس حتى إن سيدنا الشيخ أحمد المرسي يقول: إياك أن تحتقر العاصي أو تكرهه، لكن اكره المعصية؛ لأنك لا تعرف ما بين الناس وبين الله.

انضمَّ سيد قطب إلى العقاد وتابع مدرستَه الأدبية ونهل وتعلم منه، وكان العقاد مهتمًّا كذلك بالفلسفة على نَسق المدرسة الألمانية التابعة لشوبنهاور ونيتشه وغيرهما[1]، وكان سيد تابعًا له على تلك الأفكار فترةً من الزَّمن، ويدافعُ عنه دفاعًا شديدًا، الأمر الذي يجعله يثير بعض المشاكل بين العقاد وبين غيره من أدباء ذلك العصر، وهو الأمر الذي كشف عنه الشيخ محمود شاكر في جمهرة مقالاتِه في مقالات معنونة بـ«بين الرافعي والعقاد» نشر سيد قطب مجموعة مقالات له في مجلة الرسالة أثار فيها الإحن والأحقاد بين العقاد والرافعي، فكتب الشيخ محمود شاكر مقالاته تلك في الرد عليه.

ومن ضمن الصراعات التي أحدثها سيد قطب مع غيره، ما حدث بينه وبين حسن البنا نفسه، فقد كان هناك شخص اسمه محمد حلمي المنياوي حاول حسن البنا من خلاله نشر بعض الرسائل؛ لأنه كان يملك مجلة اسمها «الفكر الجديد» وكان رئيس تحريرها سيد قطب، وقتها رفض سيد قطب نشر رسالة لحسن البنا تشيد باتجاه المجلة،

(1) انظر: في صالون العقاد كانت لنا أيام (ص 382، 383) و(437، 438) و(ص 524).

وهنا عمل حسن البنا على خنق المجلة عن طريق تعليمات لأتباعه بعدم شرائها، وعدم تعامل شركة الإعلانات العربية التابعة لهم مع المجلة، فأفلست المجلة.[1]

وأما عن تأثير العقاد في شخصية سيد قطب فقد كشفت المصادر أن العقاد أنقذه من الإلحاد الذي غرق فيه فترةً من الزمن كانت إحدى عشرة سنة من عمره، وهو ما صرَّح به أبو الحسن الندوي في مذكراته: «سائح في الشرق» عندما جاء إلى مصر سنة 1951م والذي أنقذه من هذا الأمر هو العقاد.

إن قضية إلحاد سيد قطب ليست هي الأولى والأخيرة في مسيرته التي انتهت بالانضمام للإخوان المسلمين، بل هي قضية تجرُّنا إلى الحديث عن ماسونية سيد قطب التي اعترف بها على نفسه؛ فقد كتب مقالًا بعنوان: «لماذا صرتُ ماسونيًّا». بجريدة التاج المصري في العدد الذي صدر منها في 23 أبريل من سنة 1943م، العدد 787، السنة السادسة عشرة، ووأوضح في هذا العدد أن الماسونية صارت جزءًا من شخصيته، وكتب سيد قطب هذه المقالة ليعبر عن مجريات حياته التي كان فيها نوع من الاضطراب.

بيد أن الأمر لم يقف عند حدود الإلحاد والتبعية للماسونية، فسيد قطب له كتابات واضحة تعبر عن تأثره الشديد بأفكار الهندوسيَّة، وهذا أمرٌ غريب جدًّا ربما يعبر عن تلك النفسية الضعيفة أو إن شئنا أن نقول الهشة، والعقلية الساذجة المفككة، والنصوص التي تدل على ذلك كتبها بخط يده سنة 1939م في مقدمة ديوانه: «الشاطئ المجهول» فيقول في كلام عجيب عليه كثير من علامات الاستفهام: «القوى الرُّوحية عند الشاعر هي التي تربطُه بالوحدة الكونية الكبرى في حين تقصر القوى

(1) انظر: سيد قطب والأصولية الإسلامية (ص 219) تأليف: شريف يونس- الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة الأولى- 2014م.

العقلية عن ذلك»[1]. وهذا هو فحوى كلام البوذيِّين؛ لأن الدِّيانات الشرقية يكثر حديثها عن الطاقة الكبرى لهذا الكون وأنه لا يوجد إله مفارق، أما نحن فنعتقد بوجود إله مفارق للأكوان ونؤمن به، فالرب رب والعبد عبد وهناك فارق بين المخلوق والخالق، وهذه عقيدتنا، أما أن الكون طاقة ونستطيع أن نتصل بالكون بالنيرفانا هذه كلها أمور هندوسية ليست عندنا.

وهو هنا يوضح أنه ليس عنده إيمان بالغيب وإنَّما عنده العقل يقف عند حد معين، ثم تعمل الروح مع الطاقة العظمى فيقول: «إن الشعور بالزمن نتيجة لوجود الجسم والقوى الواعية وأن الروح تحس بالوجود المطلق لا يقيده الزمن وبالبداهة لا يقيده المكان»[2].

هذه النصوص التي يذكرها هي نصوص مترجمة من الديانات الشرقية، وهي نصوص أيضًا ربما تعبر عن عدم علم ناقلها بها؛ ولذلك نقول: إنه من الممكن أن يكون خانتْه الألفاظ، بيد أننا عندما نستمر في قراءتنا للنصوص أو للكتاب نجده يقول: «في مرَّتين اثنتين كل منهما لحظة خاطفة كما يُومِضُ البرق، مرة وأنا في عمق المحيط في الباخرة، ومرة وأنا على قمة جبل لحظة خاطفة كالرؤية لحظة يتجمع فيها الأزل والأبد لحظة الشهود خطرت لي في تلك اللحظة لحظة الإشراق في نفس بوذا تحت الشجرة المقدسة لحظة النيرفانا ولم أرد أن أتسامَى إلى تصور هذه اللحظات في روح محمد وهو في غار حراء لحظة اتصاله بالملأ الأعلى، إنه لأفق صعب الملتقى حين تومض هذه اللحظة النَّادرة في روح بشريَّة تفنى هذه الروح عن كل موسيقى البشر ولكن اللحظات تتصل لتغطي اليوم كله مثل النهر يتجمع قطرة قطرة».

---

(1) ديوان الشاطئ المجهول (ص 31).

(2) ديوان الشاطئ المجهول (ص 31).

والمتأمل في هذا الكلام يجد سيد قطب يدَّعي فيه النبوة، وعلى أساس كلامه يستلزم أن نقول: هل سيدنا محمد اكتسب النبوة اكتسابا؟ وهل سيدنا محمد ﷺ مارس رياضات روحية معينة حتى وصل إلى النبوة؟! فهذه أمور كلها تعبِّر عن اضطراب في الفكر، وتشتت في التفكير، وتعبر عن نفسية تحتاج إلى تحليل نفسي عميق.

ويأتي أمرٌ آخر متعلِّق بسيد قطب وهي الرومانسيَّة المفرطة التي كانت لديه، تجلَّتْ هذه الرُّومانسيَّة في رواية «أشواك» التي كانت تعبِّر عن ملمح دقيقٍ في حياة سيد قطب، وكونت عقليته، وتلك الرومانسية هي التي انبنى عليها أشياء مدمِّرة للمجتمع.

ففي حادثة الحب التي وقع سيد قطب؛ فقد أحبَّ امرأةً، وكان يقابلها في حديقةِ الأندلس وصُدِمَ من رفضها إيَّاه عندما عرض عليها الزواج، فأحدث هذا الأمر عنده صراعًا نفسيًّا، الأمر الذي جعله يقلع عن فكرة الزواج إلى أن مات، وعلى إثر هذه القضية كتب رواية «أشواك» سَرَدَ فيها دون زيادة ولا نقص ما دار بينه وبين حبيبتِه، وكتب في مقدمتها هذا الإهداء إليها: «إلى التي خاضت معي في الأشواك، فدميتْ ودميتُ، وشقيتْ وشقيتُ ثم سارت في طريق وسرت في طريق جريحين بعد المعركة، لا نفسها إلى قرار، ولا نفسي إلى استقرار».

سمَّى سيد نفسه في الرواية: سامي، وسمَّى حبيبته: سميرة، والشاب الذي أحبته ضياء، في الرِّواية، وبمطالعة الرواية نجد بها مشاهد قد كشف عنها سيد قطب لا تليق بنفس حبيب بحبيبته، فالبطل سامي- الذي هو سيد قطب- يذهب إلى (سميرة) خطيبته وحبيبته في المنزل ويراها في حجرة نومها شبه عارية، ثم يمضي سيد قطب في روايته بأن سميرة صدمته عندما صارحته بأنها أحبَّت قبله شابًّا غيره هو (ضياء) وكان حبًّا عنيفًا، ثم يبين سيد قطب أن سامي عاش في حياة من الأشواك عدة سنوات غير قادر على إتمام الزواج بعدما صارحته به، وغير قادر على الابتعاد عنها، لأنه يحبّها ولا

يمكن أن يعيش دونها[1].

هذه الرومانسية الزَّائدة المفرطة عند سيد قطب التي جعلته في معاناة وحيرة وعذاب بسبب الفتاة التي كتب فيها رواية أشواك والتي على إثرها لم يتزوج ولم يحب، يقول الخالدي: «وبَقِيَ يشعر بالألم والحرمان كلما تذكرها؛ ولهذا صرف النظر عن الحبِّ والخطوبة والزَّواج فترةً طويلةً»[2].

وفهم شخصية سيد قطب وتحليل أفكاره وتقلباته وتحولاته يستلزم الدراسة لهذه الفترة من حياته التي شكلت وجدانه ورسمت معالم اللاوعي فيه، فإن حياة سيد قطب أديبا متفلتا لم ينسلخ تماما منها، بل على العكس فإن فيها تفسيرا لكثير من المواقف الغامضة، وما نود الوقوف عنده كيف ارتضاه الإخوان المسلمون عضوا فاعلا في جماعتهم، ثم قياديا ثم رمزا وقدوة، وهذا يكشف مدى النفعية في فكر هذه الجماعة وإدارتها، فشخصية عامة كسيد قطب قريب من الثورة، ويكتب في عدة مجلات، تستفيد منه الجماعة. كما ظنت. فلا بأس من كونه كان ملحدا أو ماسونيا أو متفلتا، طالما أنه سيخدم الجماعة.

(1) انظر: مقدمة رواية أشواك، وكذلك (ص 59، 60) و(ص 82، 83) و(ص 94، 95) و(ص 143) تقديم: شعبان يوسف- الهيئة المصرية العامة للكتاب- 2011م.

(2) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد (ص 252، 253).

المطلب الثاني

الجوانب السياسية في حياة سيد قطب

بدأ سيد قطب حياته السياسية بالانضمام إلى حزبِ الوفد الذي أَسَّسه سعد زغلول وكان يكتب في المجلَّات والصحف التي كانت تابعةً لهذا الحزب، وظلَّ به مدةً بلغت سبعة عشر عامًا إلى سنة 1942م، وانضمَّ بعد ذلك إلى السعديِّين وظلَّ معهم إلى سنة 1945م، ثم بعد ذلك ترك الأحزاب، وراح يعارض ويعترض حتى قامت ثورة يوليو فانضم إلى ركابها وأيدها[1].

كان سيد قطب شديد التَّعاطف مع الثَّورة المصرية بقيادة الضباط الأحرار، وكان يُعد المدنيَّ الوحيد الذي يحضر مجلس قيادة الثورة في ذلك الوقت، بل إنه وقف ضد من ينتقدُها، الأمر الذي جعله يطالبُ بإعدام مصطفى خميس ومحمد البقري العامليْنِ بكفرِ الدوَّار؛ لأنهما قاما بإضراب ضد الثورة بسبب خَفضِ أجورهم، وكان نتيجة هذا الإضراب أن قُتِلَ جنديان من أفراد الجيش وجندي من الشرطة، بالإضافة إلى ثلاثة عمال وإصابة ثمانية وعشرين.

وكان ذلك في يومي 12 و13 أغسطس من سنة 1952، وفي يوم 15 أغسطس كتب سيد قطب مقالته بجريدة الأخبار التي طالب فيها بتطبيق حدِّ الحرابة على العمال الذين قاموا بهذا الإضراب[2]. ودار الزمان وحكمت نفس الجهة التي طالبها قطب بإعدام العاملين بالحكم بالإعدام على سيد قطب نفسه.

فالعلاقة بين قطب ورجال ثورة 23 يوليو كانت وطيدة، وكذلك علاقة الإخوان بالثورة ورجالها كانت وطيدة في بداية الأمر، الأمر الذي جعل مجلس قيادة الثورة يُعيِّنَه

(1) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد (ص 265، 266).

(2) راجع مقال: حركات لا تخيفنا. لسيد قطب بنفس السنة بجريدة الأخبار. وكتاب سيد قطب وثورة يوليو (ص 65- 66) تأليف: حلمي النمنم- مكتبة مدبولي- القاهرة- الطبعة الثانية- 2013م.

سكرتيرًا عامًّا لهيئة التحرير التي لم يمكث فيها إلا شهرًا واحدًا بسبب نشوبِ خلاف بينه وبين زملائه مما اضطرَّه إلى الاستقالة، يقول: «استغرقت في العمل مع رجال ثورة 23 يوليو حتى في فبراير 1953، وعندما بدأ تفكيري وتفكيرهم يفترق حول هيئة التَّحرير ومنهج تكوينها وحول مسائل أخرى جاريةٍ في ذلك الحين لا داعي لتفصيلها...وفي الوقت نفسه كانت علاقتي بجماعة الإخوان تتوثق...»[1].

إلى نهاية هذا الكلام الذي يفيد انضمام سيد قطب للإخوان المسلمين وهي النقطة الثانية التي سنتكلم فيها.

***

(1) لماذا أعدموني (ص 12) الشركة السعودية للأبحاث والتسويق.

المطلب الثالث

انضمام سيد قطب لجماعة الإخوان المسلمين

سيد قطب كان يقارب حسن البنا في العمر، فقد وُلِدَ كلٌّ منهما في عام 1906م، إلا أنهما لم يكونا على وفاقٍ فيما بينهما، وقد تقدم ما حدث في مجلة الفكر الجديد، بل إن البنا كان يحذِّر من فكرِه الذي تبناه في بداية حياتِه بسبب سبه للصحابة في كتبه، وهو الأمر الذي جعل الشيخ محمود شاكر يردُّ على سيد قطب لما كتبه في بعض كتبه من سبٍّ للصحابة رضوان الله عليهم[1]. في مجلة المسلمون، كتب مقالة بعنوان: «لا تسبوا أصحابي» في العدد الثالث سنة 1371هـ، في ذلك الوقت كانت هناك ضدية ظاهرة بين سيد قطب وبين الإخوانِ المسلمين.

وإن هشاشة الشخصية واضطرابها في التفكير يجعلها تربط ربطا ساذجا بين المواقف والأحداث، ويكثر التقلب في حياتها بين جوانب من التفكير متناقضة ومتضادة أحيانا كثيرة، كالذي حدث في حياة سيد قطب، والذي كان رجل الثورة وأديبها وصديقا لعبد الناصر وأقرانه، وعدوا للإخوان المسلمين، ولكنه بين عشية وضحاها تغير موقفه وتبدل، وحينما فتَّشَ هو نفسه في مسيرته وسُئِلَ عن سبب تحوله ذلك، وفتَّشْنا عما دوَّنَه وكتبه خرجنا بالقصة التالية:

سئل سيد قطب كثيرا وسأل هو نفسه عن اللحظة الفارقة في حياته والتي أدت إلى

(1) لسيد قطب في بعض كتبه مواضع دلَّت على بغضه للصحابة وخصوصا عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص. انظر: العدالة الاجتماعية (ص 159) و(ص 174). كتب وشخصيات (ص 242، 243). وهذا الأمر على خلاف عادة المصريين في حبهم للصحابة وآل البيت، فالمصريون لهم فلسفة بها يمتلكونه من طبيعتهم الجميلة، وأنهم آووا أهل البيت بعد مذبحة كربلاء، ولم يقعوا في الرفض حينما حكم العبيديون مصر كانوا يكتبون على الحيطان ويقولون على المنابر: مَن لعن وسب فله دينار وإردب. ومع ذلك لم يستجب لهم مصري واحد، ولم يلعن مصري الصحابة كما أراد العبيديون، ولمدة مائتي سنة؛ لأن المصريين يحبون أهل البيت ويحبون أبا بكر وعمر.

هذا التحول الكبير والانقلاب الذي أدخله جماعة الإخوان المسلمين بعد أن كان أشد أعدائها، وذلك بعد مقتل زعيمها حسن البنا.

وهي قصة واحدة ولكن لها روايات متعددة، الأولى كتبها سيد قطب بنفسه في كتابه **"لماذا أعدموني"**

قال: سأختصر في بياني هذا النشاط من وقت التحاقي بالجماعة سنة 1953م إلى سنة 1962م لأتوسع فيما بعد ذلك، إذ **أن هذه الفترة الأولى ليس فيها – بالنسبة لي – شيء ذو أهمية، أكثر من أنه تمهيد للفترة التالية**، ثم إن أحداثها قد انتهى أمرها، فيما عدا حادثاً واحداً شديد الأهمية، **ولو ثبت**؛ فقد يغير وجه تاريخ العلاقات بين الدولة والإخوان المسلمين، ويغير وضع قضية 1954م، وسأذكره في مناسبة في سياق التقرير.

لم أكن أعرف إلا القليل عن الإخوان المسلمين، إلى أن سافرت إلى أمريكا في ربيع 1948م في بعثة لوزارة المعارف – كما كان اسمها في ذلك الحين – وقد قتل الشهيد حسن البنا وأنا هناك في عام 1949م، ولقد لفت نظري بشدة ما أبدته الصحف الأمريكية وكذلك الإنجليزية التي كانت تصل إلى أمريكا من اهتمام بالغ بالإخوان، ومن شماتة وراحة واضحة في حل جماعتهم وضربها وفي قتل مرشدها، ومن حديث عن خطر هذه الجماعة على مصالح الغرب في المنطقة وعلى ثقافة الغرب وحضارته فيها، وصدرت كتب بهذا المعنى سنة 1950م، أذكر منها كتاباً لـ **جيمس هيوارث دن** بعنوان: **"التيارات السياسية والدينية في مصر الحديثة"**... كل هذا لفت نظري إلى أهمية هذه الجماعة عند الصهيونية والاستعمار الغربي.

في الوقت ذاته صدر لي كتاب **"العدالة الاجتماعية في الإسلام"**، سنة 1949م مصدرًا بإهداء هذه الجملة: (إلى الفتية الذين ألمحهم في خيالي قادمين يردون هذا الدين جديدا كما بدأ، يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم... الخ)، **ففهم الإخوان في مصر أنني أعنيهم بهذا الإهداء، ولم يكن الأمر كذلك**، ولكنهم من جانبهم

تبنوا الكتاب، واعتبروا صاحبه صديقاً، وبدأوا يهتمون بأمره.

فلما عدت في نهاية عام 1950م؛ بدأ بعض شبابهم يزورني ويتحدث معي عن الكتاب، ولكن لم تكن لهم دار، لأن الجماعة كانت لا تزال مصادرة، واستغرقت أنا عام 1951م في صراع شديد بالقلم والخطابة والاجتماعات ضد الأوضاع الملكية القائمة والإقطاع والرأسمالية، وأصدرت كتابين في الموضوع غير مئات المقالات في صحف **"الحزب الوطني الجديد"** و **"الحزب الاشتراكي"** و**"مجلة الدعوة"** التي أصدرها الأستاذ صالح عشماوي ومجلة الرسالة وكل جريدة أو مجلة قبلت أن تنشر لي، بلا انضمام لحزب أو جماعة معينة، وظل الحال كذلك إلى أن قامت ثورة 23 يوليو سنة 1952م.

ومرة أخرى استغرقت كذلك في العمل مع رجال ثورة 23 يوليو حتى فبراير سنة 1953م عندما بدأ تفكيري وتفكيرهم يفترق حول هيئة التحرير ومنهج تكوينها وحول مسائل أخرى جارية في ذلك الحين لا داعي لتفصيلها. وفي الوقت نفسه كانت علاقاتي بجماعة الإخوان تتوثق باعتبارها في نظري حقلاً صالحاً للعمل للإسلام على نطاق واسع في المنطقة كلها بحركة إحياء وبعث شاملة، وهي الحركة التي ليس لها في نظري بديل يكافئها للوقوف في وجه المخططات الصهيونية والصليبية الاستعمارية التي كنت قد عرفت عنها الكثير وبخاصة في فترة وجودي في أمريكا.

وكانت نتيجة هذه الظروف مجتمعة انضمامي بالفعل سنة 1953م إلى جماعة الإخوان المسلمين.

ومع ترحيبهم - على وجه الإجمال- بانضمامي إلى جماعتهم إلا أن مجال العمل بالنسبة لي في نظرهم كان في الأمور الثقافية لقسم نشر الدعوة ودرس الثلاثاء والجريدة التي عملت رئيساً لتحريرها وكتابة بعض الرسائل الشهرية للثقافة الإسلامية. أما الأعمال الحركية كلها فقد ظللت بعيداً عنها.

ثم كانت حوادث 1954م فاعتقلت مع من اعتقلوا في يناير وأفرج عنهم في

مارس! ثم اعتقلت بعد حادث المنشية في 26 أكتوبر كذلك، واتهمت بأني في الجهاز السري ورئيس لقسم المنشورات به، ولم يكن شيء من هذا كله صحيحاً!.

وأرجو أن يلاحظ أنني لا أقصد تبرئة نفسي من عمل سجنت من أجله عشر سنوات وانتهى أمره ولا قيمة لتبرئة نفسي منه الآن. وإنما هذا جانب من الصورة التي لها دخل قوي في الوقائع الجديدة وهذه كل أهميتها. وهنا يجيء ذكر الحادث الوحيد ذي الأهمية البالغة في حوادث 1954م الذي أشرت إليه وهو حادث المنشية وما يحيط به، وأرجو أن يفسح السادة المشرفون على قضية اليوم صدورهم لسماع كل التفصيلات والمقدمات التي أحاطت به وسبقته وعندي عنها علم أو استنتاج، وألا يعتبروها متعلقة بقضية تاريخية انتهى أمرها ولا داعي لضياع الوقت في الحديث عنها، فإن لها علاقة قوية جداً بالقضية الجديدة وبكل وقائعها وحوادثها ودوافعها.

في عام 1951م سافر الدكتور أحمد حسين وزير الشؤون الاجتماعية في وزارة الوفد إلى أمريكا، وعاد منها مستقيلاً من الوزارة، ورغم كل الترضيات التي قدمها له النحاس باشا فقد أصر على الاستقالة ثم أخذ بعدها في تكوين (جمعية الفلاح) وفي مقدمة أهدافها تحقيق العدالة الاجتماعية للفلاحين والعمال وبرنامج ضخم حول هذه الأهداف. **وهللت الصحافة الأمريكية للجمعية بصورة كشفت عن طبيعة العلاقة بين الجمعية والسياسة الأمريكية في المنطقة.** ووضعت الهالات الكبيرة حول الشاب الدكتور أحمد حسين وحرمه المتخرجة **على ما أذكر من الجامعة الأمريكية** - وانضم إلى هذه الجمعية رجال كثيرون برياسة الشاب الدكتور أحمد حسين مع أنهم أكبر منه شأنا ومقاماً في ذلك الحين، منهم الدكتور محمد صلاح الدين وزير خارجية وزارة الوفد والدكتور عبد الرزاق السنهوري وزير المعارف في وزارة السعديين ورئيس مجلس الدولة من قبل وأمثالهم. وهي ظاهرة تلفت النظر. وكان الشيخ الباقوري ممن انضم إليها، المهم فيما يتعلق بالخلاف بين رجال الثورة والإخوان المسلمين. وكنت في ذلك الوقت ألاحظ نموه عن قرب، لأنني أعمل أكثر من اثنتي عشرة ساعة يومياً قريباً من

رجال الثورة ومعهم ومع من يحيط بهم. أقول المهم أن الأستاذ فؤاد جلال (توفي وكان وزيرا في أول وزارة برياسة الرئيس السابق محمد نجيب) كان من بين أعضاء جمعية الفلاح وكان وكيلاً للجمعية. وكنت ألاحظ في مناسبات كثيرة أنه يغذي الخلاف بين رجال الثورة والإخوان المسلمين، ويضخم المخاوف منهم. ويستغل ثقة الرئيس جمال عبد الناصر به، ويبث هذه الأفكار في مناسبات كثيرة لم يكن يخفيها عني لأنه كان يراني كذلك مقرباً من رجال الثورة وموضع ثقتهم مع ترشيحهم لي لبعض المناصب الكبيرة الهامة ومع تشاورنا كذلك على المفتوح في الأحوال الجارية إذ ذاك، مثل مسائل العمال والحركات الشيوعية التخريبية بينهم بل مثل مسألة الانتقال ومدتها والدستور الذي يصدر فيها. الخ..

المهم أنني كنت أربط بين خطة الأستاذ فؤاد وجمعية الفلاح كمنظمة أمريكية الاتجاه والاتصال وبين إشعال الخلاف بين الثورة والإخوان، وقد حاولت في وقتها ما أمكن منع التصادم الذي كنت ألمح بوادره، ولكني عجزت، وتغلب الاتجاه الآخر في النهاية.

ولكن ما علاقة هذه المقدمة الطويلة بحادث المنشية؟ والقضية الجديدة؟ منذ أن **وقع هذا الحادث وأنا أشك في تدبيره ولم أكن أعلم شيئاً يقينياً عن ذلك.** ولكن كل الظروف المحيطة كانت **تجعلني أشك في أنه ليس طبيعياً.** كان شيء ما يلح على تفكيري في أنه مدبر لتكملة الخطة التي تنتهي بالتصادم الضخم بين الثورة والإخوان تحقيقاً لأهداف أجنبية. **أرجح من استقراء الأحوال** ومن خطة الأستاذ فؤاد جلال وكيل جمعية الفلاح أنها أمريكية!.

وعندما كان السيد صلاح دسوقي يستجوبني هنا في السجن الحربي عام 1954 صارحته برأيي في تدبير الحادث. وقد انتفض وقتها بشدة وهو يقول لي: هل أنت كذلك بكل ثقافتك من الذين يقولون أنها تمثيلية؟ وقلت له: أنا لا أقول أنها تمثيلية

ولكني أقول أنها مدبرة لهدف معين وأن أصبعا أجنبياً ذات دخل فيها. قال لي وقتها وقد هدأ اضطرابه: جايز! ولكن واحداً من الإخوان المسلمين هو الذي قام بالحادث!

ثم أعود لسرد الأحداث المتعلقة بنشاطي بعد عام 1954م **أن شعوري وتقديري بأن حادث المنشية مدبر تدبيراً، جعل يملأ نفسي رغبة في معرفة الحقيقة غير أنني لم أجد أحداً ممن التقيت بهم في سجن طره عام 1955م وكانوا كثيرين قبل ترحيلهم إلى الواحات يدلني على هذه الحقيقة.** كل من سألتهم ومنهم ناس قريبون جداً من محمود عبد اللطيف الذي انطلقت الرصاصات من مسدسه ومن هنداوي دوير كذلك قالوا لي: **المسألة غامضة وموش عارفين الحكاية دي حصلت ازاي.** وبعضهم قال: **المسألة فيها سر لا يمكن الآن معرفته. وكانت كل الأجوبة لا تملك أن تعطيني الحقيقة..**

غير أن هذا كله كان يزيد نفسي شعوراً من ناحية أخرى بأن السياسة المخططة من جانب الصهيونية والصليبية الاستعمارية لتدمير حركة الإخوان المسلمين في المنطقة تحقيقاً لمصالح ومخططات تلك الجهات قد تحققت بنجاح. وأنه في الوقت ذاته لابد من محاولة الرد على تلك المخططات بإعادة حياة ونشاط الحركة الإسلامية حتى ولو كانت الدولة لسبب أو أكثر لا تريد. فالدولة تخطئ وتصيب!.

كما أنها كانت **تملأ نفسي شعوراً بالظلم** الذي أصاب آلاف الأفراد وآلاف الأسر والبيوت. بناء على حادث واضح جداً تدبيره- حتى ولو لم يعلم بالضبط في ذلك الوقت من دبره- وبناء على الرغبة من حماية النظام القائم من خطر ضخمته أجهزة غريبة الأهداف واضحة كذلك من كتبهم وجرائدهم وتقريراتهم وفي مقدمتها تقرير جونسون عن نهر الأردن. ثم تضخم هذا الشعور وأنا أرى النتائج الواقعية في حياة المجتمع المصري من **انتشار هائل للأفكار الإلحادية وللانحلال الأخلاقي نتيجة لتدمير حركة الإخوان المسلمين** ووقف نشاطها التربوي. وكأنما كان وجود هذه الجماعة سداً قد انهار وانطلق بعده التيار.

وكنت أسمع عن ذلك كله في السجن، ولما خرجت وجدت أن كل ما سمعت كان دون الحقيقة بكثير لقد تحول المجتمع إلى مستنقع كبير!.

إن المسألة أكبر بكثير مما يبسطها الذين ينظرون لما حدث على أنه مجرد تطور، إنها تتعلق بالمخططات الصهيونية والصليبية الاستعمارية في تدمير المقومات الأساسية للعناصر البشرية في المنطقة بحيث تصبح هذه الملايين حطاماً منهارا لا يملك المقاومة حتى لو وضعت في يده أقوى الأسلحة. فالرجال هم الذين يحركون الأسلحة وليست الأسلحة هي التي تحرك الرجال. والمجتمعات حين تنهار عقيدياً وخلقياً تصبح الملايين فيها غثاء لا يقف في وجه التيار.

ويستطيع الإنسان أن يلحظ بسهولة علاقة هذا الانحدار بتدمير حركة الإخوان المسلمين ومنع نشاطها، كما يستطيع أن يربط بين هذا التدمير وبين الخطط الصهيونية والصليبية الاستعمارية بخصوص هذه الجماعة وبخصوص المنطقة بجملتها.

هذه هي رؤيتي للموقف. أهـ[1].

أعدت قراءة هذه الكلمات والصفحات مرات ومرات أرغب في وضع صورة لهذه الشخصية، وأخيرا أصبت بالتعجب والاستغراب من اضطراب التفكير وهشاشة الشخصية، وحزنت على أجيال من شباب المسلمين الذين ضلوا وتحولوا إلى آلات هدم وتدمير لمجتمعاتهم وللعالم بسبب استلهامهم لأفكار التكفير والخروج والعنف التي أرساها سيد قطب.

والرواية السابقة للقصة المعنية دونها سيد قطب بناء على طلب من جهات التحقيق معه، ولكنه طالما سُئِلَ من قَبْلُ عن اللحظة الفارقة لتحوله ودخوله في الإخوان المسلمين، فكان يقص القصة والرواية شفاهيا لأقرانه وزملائه في المعتقل طوال مدة مكثه فيه، والرواية الشفاهية تزيد وتنقص وتختلف قليلا عن الرواية المدونة في كتابه

(1) لماذا أعدموني ص 10 وما بعدها.

لماذا أعدموني.

ويفاجأ الدارس بغياب المعلومات الدقيقة لدى كُتَّاب الإخوان واعتمادهم على الأساطير والخيالات حول علاقة سيد قطب بالجماعة، فبعضهم ذهب إلى أنه انضم سنة 1948م، وبعضهم قال: إنه انضم سنة 1951م، وحتى رجل مثل صلاح شادي ذهب إلى أن سيد قطب انتخب سنة 1952م عضوا بمكتب الإرشاد، ونعرف أن واحدة من أزمات سيد قطب، وهو في السجن أنه لم يكن عضوا بمكتب الإرشاد، ولذا فإن عددا من أعضاء الإخوان في السجن اعتبروه مصدرا غير شرعي ليأخذوا منه أفكارهم ومعلوماتهم.

وفيما يخص علاقته بهيئة التحرير وعبد الناصر، ذهب مؤرخ الجماعة محمود عبد الحليم إلى أن عبد الناصر عرض على سيد قطب أن يتولى هيئة التحرير وأن يصبح وزيرا للمعارف، ولكن سيد رفض تماما لبعد الهيئة عن الإسلام كما يقول.

والشيخ محمد الغزالي أكد للباحث شريف يونس أن سيد قطب كان يتطلع إلى منصب وزير المعارف أو أن يتولى إدارة الإذاعة المصرية، ولكن عبد الناصر أفاد بأنه يمكن أن يمنح سيد منصب وكيل وزارة المعارف، وكان سيد قطب مراقبا مساعدا في مكتب وزير المعارف، وهذا يعني أنه لم يكن وصل إلى درجة مدير، ومن ثم فإن ترقيته إلى وكيل وزارة كانت تعد قفزة وظيفية كبرى بالنسبة له، وقد أغضبه كثيرا أنه لم ينل المنصب الذي توقعه وحلم به.

والناقد عباس خضر صديق سيد قطب قطع بأن سيد قطب كان يريد منصب وزير المعارف، ولكنه لم يحصل عليه فغضب غضبا شديدا من الضباط الأحرار وانقلب عليهم.

وكتب سليمان فياض في الهلال أنه زار سيد قطب بعد الإفراج عنه سنة 1964م وأنه سمع منه أن ابتعاده عن الضباط كان بسبب محاولة الأمريكان السيطرة عليهم

والتأثير فيهم.

ويعلق حلمي النمنم على ذلك فيقول: ولا يمكننا أن نصدق ذلك، لأن علاقة الضباط الأحرار بالولايات المتحدة كانت قائمة منذ البداية، وكانت متصلة أكثر وأشد ودا حينما كان هو مقربا منهم، فالسفير الأمريكي كافري لعب دورا مهما في تأمين خروج الملك فاروق، بل وإقناع الملك بالاستجابة للضباط والتنازل عن العرش، والخارجية الأمريكية وجهت التحية في بيان لها إلى اللواء محمد نجيب بعد محاكمة وإعدام خميس والبقري. ولم يكن سيد نفسه بعيدا عن هذه العملية[1].

وأما عن الروايات الشفهية لقصة التحول التي حدثت لسيد قطب في أمريكا فيحكي عنها صلاح شادي فيقول: كان سيد مريضا في إحدى المستشفيات الأمريكية، فلاحظ بهجة وسرورا يغمران من حوله الممرضات والمرضى فظن أن القوم في عيد، غير أنه ذهل حين سألهم عن سبب بهجتهم تلك فكانت إجابتهم: >لقد تخلصنا من عدو الغرب الأول في ديار الشرق. لقد قتل حسن البنا<!!.

ولقد وجهت هذه الحادثة تفكيره ورسخت عنده أن يكون عضوا في جماعة الإخوان المسلمين!! ، وألا يكتفى بأن يكون كاتبا إسلاميا فحسب بل جنديا في كتيبة الإسلام.

وهكذا قدم الطبعة الثانية لكتابه >العدالة الاجتماعية في الإسلام< بقوله: >**إلى الفتية الذين ألمحهم بعين الخيال قادمين. فوجدتهم في واقع الحياة قائمين، يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. مؤمنين بقرارة نفوسهم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. إلى هؤلاء الفتية الذين كانوا في خيالى أمنية وحلما، فإذا هم حقيقة أعظم من الخيال. وواقع أكبر من الآمال. إلى هؤلاء الفتية الذين انبثقوا من ضمير الغيب كما تنبثق الحياة من ضمير العدم، وكما ينبثق النور من خلال الظلمات..**

إلى هؤلاء الفتية الذين يجاهدون باسم الله، في سبيل الله، على بركة الله، أهدى هذا

1 - حلمي النمنم سيد قطب: سيرة التحولات ص26 . الكرمة للنشر القاهرة 2014م.

الكتاب.

وهكذا عرف الشهيد سيد قطب دعوة الإخوان المسلمين، وبدأ يعمل لا بقلمه فحسب ولكن بكيانه كله وطاقاته الخلاقة في التنظيم ووجدانه النابض بالحياة ليحكم شرع الله في الأرض. [1].

وهذه الرواية التي يحكيها صلاح شادي هي رواية شفاهية؛ لأنه لم يوثقها في كتاب ألفه سيد قطب، والقصة فيها زيادات وتغييرات لم يذكرها صاحب القصة نفسه، مثل:

1 – سيد قطب كان مريضا محتجزا في المستشفى.

2 – أنه لاحظ البهجة والسرور يغمران الممرضات والمرضى.

3 – أن سيد سألهم.

4 – ذهل حينما علم سبب فرحهم.

5 – قالوا: لقد تخلصنا من عدو الغرب...

ونحن نتساءل أين كان يعالج سيد قطب حينئذ، هل كان يعالج في مستشفى تابعة للمخابرات الأمريكية، حتى يكون المرضى والممرضات ملمين بأحوال العالم بهذه الدقة، ويبتهجون البهجة الشديدة تلك لمقتل حسن البنا في مصر، مع الملاحظة أن ذلك كان عام 1949م.

فالذي نريد أن ننبه عليه هنا هو غياب منهج التوثيق، وسيطرت عقلية الخرافة التي تشيع الكذب وتستسيغه في رواياتها، وهذا كما سبق بيانه ميزة تلك العقلية الساذجة الهشة.

والأمر الآخر أن صلاح شادي ينقل لنا كيف وجهت تلك الحادثة تفكير سيد قطب ورسخت في وجدانه أن ينقلب على أصدقائه من الضباط الأحرار وينضم إلى الإخوان

1 - الشهيدان حسن البنا وسيد قطب ص6-7.

المسلمين، ولم يستغرب شادي هذا الأمر أو يتوقف عنده، كيف لموقف كهذا مليء بالظنون والتوهمات يؤثر في حياة الإنسان ويغير وجهته.

وهنا نرجع إلى العنوان الرئيس، وهو كيف أن الشخصية المتطرفة كثيرة التحولات وتتخذ مواقفها في الحياة بناء على عقدة الاضطهاد والظلم، أنا ـ هو ـ مظلوم مضطهد إذن أنا ـ هو ـ على الحق، والعكس أنا على الحق إذن من الطبيعي أن أكون مظلوما ومضطهدا، طالما الإخوان المسلمون مضطهدون فهم على الحق، وطالما الغرب يعاديهم فهم ضده وهم مع الإسلام والعروبة.

ونلفت الانتباه إلى أمر آخر وهو كيف يصر صلاح شادي بعد سنوات طويلة على أن كلام سيد قطب في مقدمة كتابه العدالة الاجتماعية كان المعنيُّ به الإخوان المسلمون، على الرغم من أن سيد قطب نفسه اعترف وصرح في كتابه لماذا أعدموني أن الوهم وحده هو الذي صور للإخوان حينئذ أنه يعنيهم بمقدمة كتابه، وأن الأمر على خلاف ما توهموا، فانظر إلى قوم يحرفون الكلم عن مواضعه حتى يفرحوا بالوهم والظن ويعيشوا فيه.

والرواية الشفاهية الثانية وهي التي حكاها عبد الفتاح الخالدي نقلا عن محمد قطب وذكر فيها:

وقد لاحظ سيد مظاهر الفرح والابتهاج ـ بل والشماتة ـ التي عند الأمريكيين لاغتيال المرشد حسن البنا، كما اطلع على سرور الصحفيين والمراقبين، كما بدا في تحليلاتهم وتعليقاتهم في الصحف الأوروبية والأمريكية. حيث اعتبروا حسن البنا أخطر رجل في الشرق، وبقتل حكومة مصر ـ العميلة ـ له، تخلصوا من خطره عليهم، كما اعتبروا جماعة الإخوان المسلمين، أخطر جماعة وتنظيم في بلاد المسلمين، لوقوفها في وجه المخططات الغربية والشرقية والصهيونية، ضد الإسلام والمسلمين[1].

1 - سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ص318.

وغير ذلك من الروايات الشفهية لهذه القصة والتي ترددت في أدبيات الإخوان وعلى لسان أقطابهم مثل: مصطفى كامل، وعبد الكريم الصفتي، وكمال السنانيري، وفي قصصهم أن الأمريكيين كانوا يتبادلون الهدايا ويوزعون الشيكولاته، ويهنئون بعضهم بالأحضان، والكنائس هي الأخرى تضرب أجراسها، وغير ذلك من الإدراجات والتتاليات المتوهمة والكاذبة.

فالخالدي نقص من رواية شادي مسألة أن قطب كان مريضا بالمستشفى، وحذف مسألة الممرضات، ووضع بدلا منها اطلاع سيد على فرح الأمريكيين وشماتتهم، ليخرج بالكادر من رجل مريض لا يطلع إلا على الممرضات والمرضى إلى رجل شاهد عموم الأمريكان في شوارعهم يشمتون بمقتل حسن البنا، وكذا الرجل المريض لا يمكنه أن يطلع على تحليلات وتعليقات ومقالات الصحفيين التي عَدَّت حسن البنا أخطر رجل في العالم كان يعوق مخططاتهم الصليبية من التنفيذ. والحديث ليس عن أمريكا وحدها بل عن أوروبا أيضا والشرق والغرب.

ويكمل الخالدي كلامه فيقول: الحادثة الثانية: جهود رجل المخابرات البريطاني جون هيوورث دن في تحذير سيد من خطر الإخوان المسلمين.

جاء جون هيورث دن من بريطانيا إلى مصر، وهناك درس في جامعتها، وتعرف على المسلمين فيها، بهدف الرصد وجمع المعلومات، ثم ادعى الإسلام، وتسمى باسم جمال الدين دن وتزوج من مصرية مسلمة تدعى فاطمة، ثم غادر مصر إلى أمريكا، واستقر هناك مدرسا في جامعاتها.

وقد التقى دن في أمريكا بسيد قطب أكثر من مرة، وحاول احتواءه لمصلحة المخابرات الإنجليزية! أهـ.

إن هذا الكلام يثير الريبة والشك في سيد قطب نفسه، ولا تدري هل المتحدث عن سيد أحد أبنائه وأتباعه أم عدو له يريد أن يلقي الشك في نفس القارئ عن شخصيته،

فرجل من المخابرات البريطانية صديق لسيد قطب، يذهب إليه في أمريكا عدة مرات ليلتقي به، ويحدثه عن الإخوان المسلمين، وعن حكام أمريكا.

ويشكك صلاح الخالدي في صدق هيورث دن في اعتناقه الإسلام، فيقول: ادعى الإسلام.

وكل ما سبق من رواية مكتوبة عن حادثة سيد قطب في أمريكا والروايات الشفوية المنقولة عنه، كلها ظنون وتوهمات، فعندما تعيد قراءة كلام سيد قطب السابق تجد أنه يظن ظنا، ويتخرص بأمور لا أصل لها، ويربط بين أحداث ليس فيها دلالة على ما توصل إليه، فَحَرَمُ فلانٍ تخرجت من الجامعة الأمريكية على ما يَذْكُر فهي إذن وزوجها وجماعته مؤيدة من أمريكا، فلانٌ يَكْرَهُ الإخوان ويحرض عليهم الثوار إذن فلان وجمعيته هُمْ من دبروا حادثة المنشية على ما يَظُنّ، وإخوانه في المعتقل يُخْفُون عليه الحقيقة وهو يَجْهَلها ويَكْذِبُون عليه. وهم من نَفَّذَ العملية. يقولون: فِيهَا سِرٌّ لا ندريه.

فأنا أخاطب كل عاقل سار وراء هؤلاء القوم ألا يكون مثله كمثل من يسير وراء كل ناعق بما لا يعلم إلا دعاء ونداء، فهذه العقليات لا تستحق الريادة ولا القيادة لا الفكرية ولا السياسية ولا الدينية، ونحن لا نقول ذلك حيث نضطهدهم كما يظنون أو نحقد عليهم أو نريدهم أن يحيدوا عن حق كانوا عليه، وإليك بيان كذبهم:

أولا: الصحافة الأمريكية وكذا الإنجليزية لم تتعرض بأي صورة كانت للشماتة أو الفرح في مقتل حسن البنا، بل إنها لم تعبأ بذلك إلا حيث نُشِرَ الخبر في صفحة داخلية في جريدتين فقط من أكثر من ألف وستمائة جريدة تصدر في أمريكا حينئذ، وهما النيويورك تايمز ولوس أنجلوس تايمز، في الصفحة الخامسة والصفحة الثانية عشر، وأما الصحافة البريطانية فلم تعرج أصلا على هذا الخبر من قريب أو بعيد.

ثانيا: إن ما حكاه سيد قطب عن مظاهر البهجة والفرح والسرور، وما روي عنه شفاهة من تبادل الناس للهدايا وضرب الكنائس أجراسها، كل ذلك كان بمناسبة عيد

الحب أو الفالنتين داي كما يسمونه، وقد وافق يوم قتل حسن البنا، وإنما الوهم هو ما صور لسيد ومن سمع قصته أن كل تلك المظاهر سببها الشماتة بمقتل حسن البنا.

ثالثا: رواية المستشفى والتي قصها صلاح شادي، تدل على إيغال في عقلية الخرافة والوهم، لأنه سرعان ما ربط سيد بين قول الممرضات وما يدور في ذهنه من تفكر في حادثة مقتل حسن البنا، وهو الأمر الذي لم يَدْرِ عنه الممرضات شيئا ولم يطلعوا عليه، ولكنهم ربما قالوا له: نحتفل بموت شخص ما. سخرية منه على جهله بعيد الحب، فظن أنه حسن البنا.

رابعا: إن الكتاب الذي أشار إليه سيد لهيورث دن ترجم إلي العربية، واطلعنا عليه ولم نجد فيه أي حرب أو انتقاد لجماعة الإخوان المسلمين، وإنما في بعض الأحيان إعجاب وإشادة بهم.

ويقول سيد قطب : «وكانت نتيجة هذه الظروف مجتمعة انضمامي بالفعل سنة 1953 إلى جماعة الإخوان المسلمين»[1].

أية ظروف وأية مسوغات أو دوافع جعلته ينضم للإخوان بعد أن كان أعدى أعاديها، إنه لم يذكر سوى هراء، فهو بين أمرين إما أنه كان يخفي في نفسه سببا حقيقيا قويا دفعه إلى هذا التحول في حياته، يخفيه بسبب ما يشينه فيه من إظهاره، أو ما ذكره حقا هو ما حوله في مسار حياته، مما يوقعه في شين أكبر من الوصف بهشاشة التفكير وسطحيته وغير ذلك مما أوضحناه.

فعندما خالفت جماعة الإخوان المسلمين نصيحة رسول الله × والتي تركنا عليها في المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك صَدَرَت منها انحرافات بليغة عن صحيح الدين، فأفسدوا في الأرض كذبا وعنفا واعتداء على خلق الله، واستساغوا أن ينقادوا لمثل هؤلاء القادة أرباب العقول الهشة والتفكير السقيم، والذين

(1) لماذا أعدموني (ص 13).

قادوهم إلى الهلكة والفتنة بين الناس جميعا والمسلمين خاصة، وأصبح من المألوف والشائع بينهم عصبية ونصرة للجماعة السير بمنهج الوضاعين والكذابين والمجهولين والمنكرين، والذين ظهروا في كل ديانة عبر الزمان والمكان فأفسدوها وحرفوا الكلم عن مواضعه، وآمنوا ببعضه وحادوا عن بعض، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فليحذر الذين يخالفون عن أمره × أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم، ومعذرة إلى ربنا ￼ ومحاولة لإرشاد الشباب إلى حال النبي المصطفى والحبيب المجتبى، عرجنا على هذه الحالة الكاشفة لترهات الإخوان المسلمين وجماعات العنف.

ما سبق كان إطلالة سريعة على أهم الجوانب في حياة سيد قطب كشفت عن شيء من حقيقته التي ربما تغيب بقصد أو بدون قصد عن كثيرين، تلك الحياة التي انتهت بانضمامه لتلك الجماعة المتشدِّدة، والتي تبين لنا هشاشة فكره وسذاجته المفرطة، وهو أمرٌ يحتاج إلى بيان وتوضيح.

***

المبحث الثاني

مواقف في حياة سيد قطب تظهر الخلل في التفكير والربط السَّاذج بين الأحداث

المطلب الأول : سيد قطب في السجن.

انضمَّ سيد قطب للإخوان سنة 1953م، ثم ما لبث أن أُعتقل سنة 1954م ، وفي نفس السنة أصدر مجلس قيادة الثورة قرارا بحل الجماعة، بعد صراع وتصارع نشب بين الجهتين، وقد اعتقل مع سيد كثير من الإخوان منهم المرشد حسن الهضيبي، وخرجوا من السجن في نفس السنة.

ولم تنته سنة 1954م إلا واعتقل سيد قطب مرة أخرى على أعقاب حادث المنشية، وذلك في نهاية شهر أكتوبر من نفس السنة، وزعم الإخوان أن جمال عبد الناصر من دبَّر الحادثة لنفسه كي ينتقمَ منهم، وفي الحقيقة هم الذين دبروها، بل واعترفوا بعد ذلك بهذا الأمر.

وفي سنة 1955م تمَّ نقلُه إلى المستشفى العسكري نظرًا لسوء حالته الصحيَّة من الأمراض التي اعترته، ثم حكمت المحكمة عليه بمدة خمسة عشر عامًا، وفي مستشفى سجن طرة تضاعفت الأمراض في جسده وكانت أمراضًا في معدته ورئتيه، وازدادت هذه الأمراض في سنة 1960م، ثم خرج من السجن بعفوٍ صحيٍّ، ثم بعد ذلك أُعيد إلى السجن في 9/8/ 1965م مع مجموعةٍ من الإخوان، وفي هذه القضية حقَّق معه المستشار سمير ناجي رحمه الله، وكان رجلًا مستقيمًا يعرفُ حقوقَ الله، والدَّليل على ذلك أنه ظن أن السلطات في ذلك الوقت قد لفقت التهمة لسيد قطب فأراد التأكد- كما أخبرني مشافهة- من ذلك، عن طريق سؤال رجل من عائلة قريبة منه من الإخوان المسلمين بل من كبارهم وهو منير الدلة، وكان منير الدلة على صلة قرابة من المستشار سمير ناجي فذهب إليه وقال له: أنا لست مطمئنًا لهذا الأمر وأريد أن أسألك وأنت رجل من داخلهم، هل هم فعلوا هذه الأشياء؟ فاعترف له منير الدلة بأنهم فعلوا هذه

الأمور. فسأله: هل معنى ذلك أن أتولى تلك القضية؟ فقال له: تولها على بركة الله واحكم فيها بالعدل.

وقد أخبرني أيضًا المستشار سمير ناجي أنه عندما طلب الرئيس الراحل عبد الناصر من الإخوان تشكيل حكومة ائتلافية، طلب حسن الهضيبي أن يراجع القوانين كلها قبل صدورها[1]، فنبهه عبد الناصر إلى أن هذا الأمر لا يستطيع أحد فعله وأن هذه دولة وبها برلمان ومؤسسات، فأصر الهضيبي على موقفه وهدد عبد الناصر بأنهم لن يؤيدوه إذا لم يتم هذا الأمر، ووقتها قدموا منير الدلة لعبد الناصر ولم يكن عبد الناصر يعرفه.

ولقد ألف المستشار سمير ناجي كتابًا ذكر فيه تجربته في محاكمة الشيوعيين والإخوان المسلمين وسير التحقيقات معهم، وهو كتاب موجود في الأسواق ومطبوع، ونحن نقول: إن خلاصة ما يستنبط من هذه السير والحكايات أن الإخوان قوم بلوا بالسطحية في التفكير والأمراض القلبية والنفسية ما دفعهم لفعل ما فعلوا من تطرف وجنون أضر بالبلاد والعباد في الدين والدنيا.

وقضيَّة دخول سيد قطب للسجن من القضايا التي ينبغي أن نقف عندها، فقد تناولها كثيرٌ من الناس بشيء من العاطفة التي لا تنتج أحكامًا حقيقيَّة توضح شخصية سيد قطب، ولقد أثر فقد الحرية في سيد قطب كثيرا أثر في شخصيته وفي تأليفه بالتفكير السلبي، فالحرية تجعل الإنسان في سعة تفكير يقبل الأخذ والرد والمد والجزر، أما السجن فلا نسلم أبدا بما ينتجه فهو فكر المحنة والبلاء ، أضف إلى ذلك ما بلي به سيد

---

[1] – وقد سبق أن ذكرنا ما فعله الهضيبي من انتقاد لمشروع السنهوري دون أن يطلع عليه أو يذكر أسبابا لذلك الاعتراض.

قطب من أمراض صعبت الأمور عليه كثيرا، وأفقدته الوعي والتركيز في كل ما يقول وما يؤلف.[1]

وبقي سيد قطب في السجن إلى أن أُعدم في 13 جمادى الأولى 1386هـ الموافق 1966/8/29م.

ونريد أن نقص على القارئ ما حدث لسيد قطب في ليمان طرة.

الموقف الأول : مذبحة ليمان طره.

كان للإخوان مجموعة في ليمان طره ورأسهم جمال ربيع. كما يذكر سيد قطب نفسه. ومجموعة في السجن الحربي ورأسهم معروف الحضري، وكان سيد قطب في مجموعة جمال ربيع، والذي وضع خُطةً لهروب الإخوان من السجن عن طريق النيل، وذلك بالتنسيق مع بقية المجموعة في السجون، بالاتِّفاق بين السجون الثَّلاثة، وأخبر جمال ربيع سيد قطب بما يعزم عليه، وطلب منه القيام بنقل الخبر إلى معروف الحضري، لأنه بعد أن تحسنت حالته الصحية رُحِّلَ إلى السجن الحربي، وسيد قطب ذهل من هذه الخطة وكان غير مقتنعًا بالهروب، إلا أنه أدى الدور الذي طلب منه، فأخبر الحضري والذي انفعل عليه حينها ، ويبدو أنه تخونه وتخون من أرسله بهذه الخطة، وقال له: إنَّها دسيسة من أجل مذبحة كبرى للإخوان في السجون وفي خارج السجون، إنها عملية انتحارية، ولا يجوز التفكير فيها أصلا.

ونتوقف هنا لنشير إلى القارئ من خلال كلام سيد قطب، أنه كان يلعب دورا

(1) وهو ما يجعلنا نقول: إن الإنسان إذا بلي أو مرض أو بلغ من العمر عتيا، فعليه أن يتروى فيما يقول، وإن نبهه الناس إلى خطأ ما يذهب إليه، فعليه أن يفوض الأمر لله، ويستجيب لنصح الناصحين، ولا يستاء منا أحد إذ نوجه للقرضاوي اللوم وننصحه بالسكوت، حتى يُبْقِي على علمٍ قد قدمه، بما أتبع ذلك من تحريض أو دفع للشباب والبلاد نحو الفساد والفتنة والإفساد، فهو بين وصفين إما واعيا بما يفعل فيصير خائنا لله ولرسوله فيما أمر به من النصيحة بالحق والتواصي به، وإما أن يكون مريضا بسبب كبره، فلا يعي عواقب ومآلات ما يفعل وما يقول.

صغيرا في وسط إخوانه في السجن، فهو ناقل للمعلومات، وإن كان غير مقتنعا إلا أنه ينفذ ما يطلب منه، ويستجيب لما يؤمر به، لم يكن قائدا ولا مدبرا للخطط، ولا يؤخذ رأيه فيها، ولا ندري هل ساق سيد قطب هذا الكلام على هذا النحو ليظهر نفسه شخصا هامشيا ، حتى يبرئ نفسه من الجرائم التي تمت، أم هي الحقيقة وسيد لم يكن إلا تابعا.

ولرومانسية سيد قطب الحالمة ولهشاشة شخصيته فقد صعق أو ينقل لنا هزة أصابته، من اتهام أو تخون معروف الحضري لأخيه جمال ربيع والذي يرى فيه أميرا صادقا صدوقا مخلصا، ولا يمكن أن يزج بإخوانه في هذه العملية الانتحارية متعمدا، ويستغرب سيد قطب موقف الحضري المهاجم للفكرة تماما، ولكن الشاهد أن سيد عاد إلى سجن طره مرة أخرى، وأشاع الحوار الذي دار مع معروف، وتناقل الإخوان المسألة على أنها حقيقة وأنها يقين، وصاروا ينامون ويستيقظون ينتظرون المذبحة.

الغريب في الأمر أن سيد قطب يحكي لنا عن أسباب منطقية جدا في حدوث المذبحة، وتلك الأسباب هي يقول سيد قطب : «كان هناك ضابط برتبة ملازم أول في ذلك الوقت أو يوزباشي اسمه عبد الله ماهر على علاقة ظاهرة بالخمسة الشبان اليهود المسجونين في حادث جاسوسية، يؤدي لهم خدمات واضحة، حتى إنه ليحمل لهم طعامهم الآتي من بيوتهم بنفسه، الأمر غير المعهود في الليمان، ويَحتفِي بأخت واحد منهم حفاوة مكشوفة للسجانين والنوبتجية من المذنبين... وكان يستفزُّ الإخوان بشكل ظاهر مما أدى إلى خَلْق جو مشحون بالتوتر، الأمر الذي أدى إلى التشابك بالأيدي، وعلى إثر ذلك تمَّ وضعُ عددٍ من الإخوان في التأديب.».

فالمذبحة كما يروي سيد قطب نفسه كان لها سبب، وهو الضابط الذي كان يستفز الإخوان بأفعاله، وكذلك الوهم الذي أشاعه معروف بين سجناء الإخوان بأن الجيش يرتب لهم أمرا في الجبل، وفي يوم المذبحة رفض الإخوان الخروج من الزنازين، خوفا

من المؤامرة المتوهمة لقتلهم بالجبل، وحينما طلب منهم الضابط عبد الله ماهر الخروج اشتبكوا معه وتعدوا عليه، وصارت خناقة بينهم ، مما دفع الجنود إلى إطلاق الرصاص الحي تجاه الإخوان، فقُتِلَ واحدٌ وعشرون شخصًا داخل الزَّنازين.

وفي نهاية ما يقصه علينا سيد قطب يقول إن المذبحة دبرها الجيش ضد الإخوان بإيعاذ من جهات أجنبية صليبية ترغب في القضاء على الإخوان لأنهم ضد مصالح الغرب والإمبريالية. إنه الوهم المركب إذ نترك الحقائق المشاهدة ونذهب وراء السراب .[1]

الموقف الثاني: بين سيد قطب وعبد الباسط البنا.

كان عبد الباسط البنا شقيق حسن البنا يعمل في السجن الذي به سيد قطب، وكلما رأى واحدًا من الإخوان في السجن يعمل عملًا شاقًّا يتألم، وقد أوضح لسيد قطب أنَّه لم يَعُدْ يطيق منظر طابور الإخوان المسلمين في الجبل، وأنه يريد أن يضعَ كتيبتَه بأسلحتهم تحت تصرف الإخوان. فقال له سيد قطب: نشكرك على عواطفك، ونحن نرى أننا أدَّينا واجبنا وانتهت مهمتنا بدخول السجن، ولم نعد نستطيع عمل شيء.

فعبد الباسط البنا كان ضابطا بالسجن وكان متعاطفا مع الإخوان، وكان يعزم على الخروج على جنديته من أجلهم، كل ذلك ويقول سيد قطب إن الجيش كان ينوي ويرتب للمقتلة التي حدثت بليمان طره، والحقيقة أن الإخوان بسلوكهم وسوء تصرفهم وسيطرة الوهم عليهم كان السبب فيها.

إن الكبر والغرور هو الذي صور لهذه الجماعة وأتباعها أن القوى العظمى العالمية تحيك بهم، لأنهم ينصرون الإسلام ويحيونه بعدما درس بزعمهم، ما دخل أمريكا والمخابرات الروسية والمخابرات الصهيونية وغير ذلك بعصيان من سجناء في سجن طره، إن سيد قطب خطفته أمريكا ذهنيا منذ وطئها فانبهر بها، وظن أن أمور العالم كله تُسَيِّرُه أمريكا، فهي الشيطان الأعظم.

(1) انظر: لماذا أعدموني (ص 24- 26).

المطلب الثاني

سيد قطب وجمعية الفلاح

نَقِمَ سيد قطب من وجود جمعية الفلاح واغتاظ منها؛ لأنه رأى أنَّها تريد القضاء على جماعة الإخوان المسلمين، فقد سمع فؤاد جلال يغذي الخلاف بين رجال الثورة والإخوان، ويستغل ثقة عبد الناصر به[1]، وتوهم سيد قطب وأذاع أن حادثة المنشية 1954م جزء من الخطة الأمريكية للقضاء على الإخوان، وتوهم أن جمعية الفلاح جزءا من هذه الخطة وتقوم على تنفيذها.

فقد كوَّنَ أحمد حسين الذي كان وزيرًا للشئون الاجتماعية في وزارة الوفد بعد عودته من أمريكا جمعية الفلاح، وانضمَّ لهذه الجمعية أناس لهم شأن كبير في المجتمع آنذاك منهم أحمد حسن الباقوري وعبد الرَّازق باشا السنهوري ومحمد صلاح الدين وزير الخارجية.

وكان سيد قطب يعتقد بيقين أن فؤاد جلال أمريكي، والواقع أن فؤاد جلال لم يكن أمريكيًّا في يوم من الأيام، وكان ثائرًا مصريًّا، وبعد نجاح الثورة أراد أن ينطلق بحياة الفلاح ويُطوِّرها ويخرجه من حياة البؤس التي كان فيها، فؤاد جلال قال عنه سيد قطب: إنه عميل. لأنه كان يعارض الإخوان. ولو اتبعنا سيد قطب في منهجه لاتهمناه نفسه بالعمالة لأمريكا، واتهمنا حسن البنا بالعمالة للصهيونية العالمية.

هذا الفكر لا يزال متوارثًا لدى الجماعة إلى اليوم، وهذا المنهج مع سيد قطب في كل كتبه فهو يربط بين جمل لا علاقة لها ببعض ويستنتج منها نتائج بالهوى والظن، فيكفر الناس ويخونهم لمجرد أنهم ضد جماعته المتطرفة.

فحينما قتل حسن البنا اتهموا فيه الإنجليز ثم الملك ثم إبراهيم عبد الهادي ، والأمر

(1) قد تقدَّم الحديث عن علاقة سيد قطب برجال الثورة الأمر الذي جعلَه قريبًا من الدوائر التي تسمح له بسماع ما يقال على الإخوان، وهذا الخلاف الذي استنتجه سيد قطب هو خلافٌ واقعٌ قبل استنتاجه.

في حقيقته على غير ما ساء ظنهم، فإن حسن البنا كما أخبرنا من مشايخنا قتله حامد بك جودة ثأرًا لزوجته التي كانت تستقل عربة وتم قذفها بقنبلة بطريق الخطأ فأُصيبتْ من قِبَل الإخوان، فغضب حامد بك جودة من حسن البنا واستأجر من يقتله، وعندها علم إبراهيم عبد الهادي بما يُضمرُه حامد جودة فتَتبع الرجلَ الذي أستأجره وقبض عليه بعدما قتل البنا، وأخفى الأمر إلى أن جاء مَن كشفه مرة أخرى وفُضِحَ بعد ذلك[1].

***

(1) انظر أيضًا: مذكرات مصطفى النحاس- ربع قرن من السياسة في مصر (2/213).

المطلب الثالث

سيد قطب وحادثة المنشية

إذا ما تكلمنا عن حادث المنشية في فكر سيد قطب رأينا أيضًا تلك الهشاشة الفكرية والسذاجة في الربط بين الأمور البعيدة، فعندما كان صلاح دسوقي وكيل النيابة وقتها وكان يحقِّق مع سيد قطب سنة 1954م. صارحه سيد قطب بأن حادث المنشية دُبِّرَ، وهنا انتفض صلاح دسوقي وكان جالسًا على مكتبه وقال له: هل أنت كذلك بكل ثقافتك تعتقد أنه تمثيلية؟

قال سيد قطب: أنا لا أقول تمثيلية بالفعل ولكن أقصد أنها مدبَّرة. فقال صلاح دسوقي: من الممكن أن تكون مدبرة، ولكن واحدًا من الإخوان هو الذي فَعلَ هذا الأمر.

فلم يُنكر سيد قطب هذا الأمور[1].

ثم تابع صلاح دسوقي كلامه لسيد قطب فقال إن أمريكا فَرحت أن عبد الناصر ضُرب عليه نار فهل هذا يفرحكم، فمن المعروف أن أمريكا وبريطانيا والعالم الغربي لا يهمه استقرار مصر بل يسعدهم عدم استقرار مصر، لكننا في واقعة نحقق فيها الآن، هل حصلت أو لا؟ فقال سيد قطب: نعم حدثت، فاطمأنَّ قلب صلاح دسوقي وبدأ يهدأ.

وأودُّ أن أبين لك هشاشة هذا الفكر بصفة عامة وهشاشة فكر سيد قطب بصفة خاصة؛ لأنه رأس كل البلاء، فسيد قطب أراد أن يربط بين ما يحدث من الإخوان أو معهم وبين مصلحة أمريكا بهذه الأمور، بجانب أنَّه رأى أنها تمثيلية مع كونه يعلمُ الحقائق، فنحن لا ندري أي فكر هذا؟!

---

(1) لماذا أعدموني (ص 15، 16).

نعم، نحن لا ندري أي فكر هذا خاصة بعدما كَتب سيد قطب عن نفسِه يقول: إنَّني دخلتُ السجن سنة 1954م فالتقيتُ مجموعةً من الأصدقاء الذين كنتُ أعرفهم فسألتهم عن السر الذي وراء محمود عبد اللطيف وهنداوي دوير فلم يخبرني أحد عنهما شيئًا والجميع أنكر، وكل ما يعرفونه عنهما أن محمود عبد اللطيف كان رجل مصليًا، وكذلك الأمر عن هنداوي فقد كان رجلًا طيب الأخلاق ومصليًا أيضا، وكل من كان كذلك لم يتصور منه أن يرتكب مثل هذه الأفعال الشنيعة كما يعتقدونَ هم، وعندما لم يخبره أحد عن محمود عبد اللطيف وهنداوي قال: **تيقنت أن وراء هذه الأفعال أمريكا.**

حصل له اليقين في شيء لمجرد أن زملائه أخفوا عنه معلومات أو حقائق لواقع ما حدث.

قد بينًّا أنه كان يرى أن هناك مؤامرة عالميَّة أمريكية على الإسلام والمسلمين الذين يمثلهم من وجهة نظره الإخوان المسلمون، دون غيرهم، لا علماء الأزهر ولا غيره، وكان دليله على ذلك جمعيَّة الفلاح التي أنشأها أحمد حسين، وكذلك تفكيره في حادث المنشية مع كونه يعلم الحقيقة، فكل هذه الأمور تعد تماديًا في الضلال الفكري، وزاد يقينُه بهذا الأمر عند حدوث مذبحة طرة، التي أصبحت بجانب غيرها ملامح مؤامرة أمريكية للقضاء على الإخوان المسلمين.

***

المبحث الثالث
تكفير المجتمعات الإسلاميَّة والحكم عليها بالجاهليَّة

في بداية الكلام في هذا المبحث نقول: إن سيد قطب استعار أفكارًا أخرى من السلفية المتطرفة حيث قسم التوحيد إلى ثلاث: توحيد للألوهية وتوحيد للربوبية وتوحيد للحاكمية؛ وهذا التقسم هو أس البلاء ومنه ابتدعوا فكرة التكفير والتجهيل لعامة المسلمين وعلمائهم، وهذا التثليث مناف لما تعلمناه منذ الصغر في الأزهر الشريف وعرفنا أن علماء الدين وكبراءه منذ القرون الأولى يقولون به.

وبدعة تقسيم التوحيد ابتدأها ابن تيمية أو تولى كبرها وإشاعتها، وترتيب الإيمان والكفر على الاعتقاد فيها [1]، وهو أمر لم يقل به أحد من السلف كالجويني والغزالي والشافعي وغيرهم من علماء الأمة، وبناء على هذا التقسيم أصبح لديك ثلاثة مداخل قد تكفر في أيها وبسبب أيها، فقد تكون مؤمنا بالتوحيد من جهة الألوهية ولكنه يكفرك بسبب الربوبية فتكون في نظره مشركا لله فيها، وأما الصفات فأنت لا محالة إن لم تؤمن بما يؤمن به من تشبيه وتجسيم وتحيز للخالق فأنت مشرك بما هو به موحد.

وأخذ سيد قطب من هذا الفكر بطرف ففرق بين الرب والإله، وتأثر في هذا الأمر بأبي الأعلى المودودي صاحب كتاب المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم وهي: الإله، الرب، العبادة، الدين، وردد نفس كلام أبي الأعلى في كتابه معالم في الطريق وغيره من الكتب، ومن هنا نشأت عنده فكرة أن المجتمع كافر في أفعاله وأقواله وغير ذلك، بسبب الحاكمية لغير الله فهذا شرك.

وظهرتْ عنده فكرة جاهلية المجتمع الإسلامي كله؛ ولذلك في هذا المبحث سنتعرَّض لقضيَّة تكفير المجتمعات الإسلاميَّة عند سيد قطب في كُتبِه الَّتي ألَّفها،

(1) انظر: منهاج السنة النبوية (289/3) تأليف: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية- تحقيق: محمد رشاد سالم- منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود- الطبعة الأولى- 1986م.

بجانب إلقاء الضوء على فكر سيد قطب في إزالة الدولة من خلال نصوص تدل على دعوته لسفك الدماء وهدم المجتمع.

***

المطلب الأول

تكفير المجتمعات الإسلامية من كلام سيِّد قطب

ورد عن سيدنا النبي ﷺ فيما رواه ابن حبان في صحيحه قال ﷺ: **«أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ رَجُلٍ أُوتِيَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا بَدَتْ عَلَيْهِ بَهْجَتُهُ غَيَّرَهُ»**. أي: غيَّر المعنى لأنه لا يستطيع أن يُغيِّر اللفظ، ثم يقول ﷺ: «**حتَّى إذا بدت عليه بهجته غيَّره فَخَرَجَ بِالسَّيفِ عَلَى جَارِهِ يَتَّهِمُهُ بِالشِّرْكِ**». فهذه نبوءة من النَّبيِّ ﷺ، وهو الذي تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يَزِيغُ عنها إلا هالك. فقال أحدهم: الرامي أحق به- أي: بالشرك- أم المرمي؟ والرامي هنا رجل صاحب قرآن والمرمِيُّ رجل من عامة الناس ليس من أصحاب القرآن وقد يكون من أصحاب القرآن. قال ﷺ: «**بَلِ الرَّامِي**»[1].

هذه هي حقيقة سيد قطب، فهو رجل القرآن الذي دائمًا وأبدًا يتحدَّثُ عنه أتباعه بهذه الصورة، بل ويحفظون أقواله ويرددونها في كل محفل من محافلهم ومجالسهم، صنع تفسيرا للقرآن أسماه "في ظلال القرآن" وحشاه بأقوال التكفير والجاهلية التي يرمي بها عموم المسلمين.

ولقد صرَّحَ سيد قطب في كتاباته بتكفير المجتمعات، وهذا نتيجة تهوره في الفكر بل عدم تفكيره السَّليم والسَّديد، ونحن هنا سنورد بعض النصوص التي توضِّح تكفيره المجتمعات والعالم كله، وهي نصوصٌ من كتاب في ظلال القرآن ومعالم في الطريق والعدالة الاجتماعية .

(1) أخرجه ابن حبان في صحيحه (1/281) حديث (81) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

أ. تكفير المجتمع.

دعا سيد قطب في كتبه إلى تكفير المجتمع بكافة أطيافه وكان يعمل على تأصيل تلك الفكرة، ففي كتابه: «في ظِلال القرآن» كانت هناك كثير من الفقرات التي تصم العالم بالجاهلية والكفر، وهذا الكتاب يمثِّل الجانبَ الأكبر من حياة سيد قطب وفكره ويظهر خطورة دعوته واتباعها، وسنورد بعض الفقرات التي تعبر عما سبق.

يقول سيد قطب في الظلال عن قضيَّة توحيد الألوهية والرَّبوبية: «العقيدة في الإسلام تقوم على أساس شهادة أن لا إله إلا الله، وبهذه الشهادة يَخلعُ المسلمُ من قلبه ألوهيَّةَ كل أحدٍ من العباد ويجعل الألوهيَّة لله، ومن ثَمَّ يخلع الحاكميَّةَ عن كل أحدٍ، ويجعل الحاكميَّةَ كلها لله والتشريع للصغيرة هو مزاولة حق الحاكمية كالتشريع للكبيرة فهو من ثم مزاولة الحق للألوهية، يأبه المسلم إلا لله، والدين في الإسلام هو ديمومة العباد في واقعهم العملي كما هو الأمر في العقيدة القلبية»[(1)].

ويقول أيضًا: «لقد استدارَ الزَّمانُ كهيئته يوم جاء هذا الدِّين إلى البشريَّة بلا إله إلَّا الله، فقد ارتدَّت البشريَّة إلى عبادة العباد وإلى جَور الأديان، ونكصتْ عن لا إله إلَّا الله، وإنْ ظلَّ فريقٌ منها يردِّدُ على المآذن: لا إله إلَّا الله. دونَ أنْ يُدرِكَ مدلولَها، ودون أنْ يعِي هذا المدلولَ وهو يردِّدها، ودون أنْ يرفضَ شرعيَّةَ الحاكميَّة الَّتي يدَّعيها العِبادُ لأنفسهم، وهي مرادفُ الألوهية...»[(2)].

فانظر إلى قوله: «فقد ارتدت البشرية ونكصت عن لا إله إلا الله». وهنا نتيقن قول

---

(1) في ظلال القرآن تفسير سورة الأنعام في قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ سيد قطب إبراهيم- دار الشروق - بيروت- القاهرة-الطبعة السابعة عشر- 1412هـ.

(2) في ظلال القرآن (2/1057).

سيدنا ﷺ: **«أخافُ على أمتي من رجل أوتي القرآنَ حتى إذا بدتْ عليه بهجته»**[1].

ومما أثار حفيظتي أنه لم يقل نكصت عن لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهو لم يذكر سيدنا محمدًا حتى قال: «وإن ظل فريق منها يردد على المآذن لا إله إلا الله». فلم يذكر سيدنا النبي ﷺ، وهو ﷺ الذي لابد أن نفتش عن حاله وعن حياته وفي سيرته لأنه القائل: **«تركتكم على البيضاءِ ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»**[2].

ثم يقول في الظلال: «إنَّ الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مُخالفيه جهارًا نهارًا في العقيدةِ، ولكنَّه لا يتسامح هذا التسامح مع مَنْ يقولون الإسلام كلمة باللسان تكتبها الأفعالُ، لا يتسامح مع مَن يقولون إنَّهم يوحِّدونَ الله ويشهدون أن لا إله إلا الله ثم يعترفونَ لغير الله بخاصيةٍ من خصائص الألوهيَّة كالحاكميَّة والتشريع للناس»[3].

ثم يصرِّحُ بكفرِ المجتمع الذي يعيش فيه تصريحا واضحا عندما يقول في كتابه: معالم في الطريق: «إن وجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة»[4].

ومعنى هذا الكلام أننا كفار منذ قرون كثيرة بعيدة.

ب : جاهلية المجتمع.

إنَّ سيد قطب هو من أشاع فكرة جاهلية المجتمع وعاد بالمسلمين إلى النموذج المكي، وهذا الأمر هو ما تلقفه منه تلميذه شكري مصطفى في تأسيس جماعته التكفير والهجرة، فدعى أتباعه إلى الهجرة إلى الصحراء وفي الجبال وتأسيس دولة الإسلام بالهجرة كما هجر محمد صلى الله عليه وسلم مجتمع مكة الوثني، وأقام دولة الإسلام بالمدينة، ووجود فكرة جاهليَّة المجتمعاتِ الإسلاميَّةِ هي أوسعُ الأبوابِ لانتشارِ فِكر

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه أحمد في مسنده (126/4) من حديث العرباض بن سارية.

(3) في ظلال القرآن (732/2).

(4) معالم في الطريق (ص 5، 6).

التَّكفير بينَ الغافلين، والجاهليَّة في المدلول الشَّرعي تدلُّ على المجتمعاتِ الوثنية في عصورِ ما قبل الإسلامِ.

وكلمة الجاهلية ذكرها سيد قطب في الظلال 1740مرة، وفي صفحة واحدة ذكرها تسع مرات، ولهذا الأمر دلالته فإنه يعكس كيف سيطرت تلك الفكرة على ذهن سيد قطب، فشغل نفسه بالجاهلية وبتكفير المجتمع، واعتبر الإيمان بكفر المجتمع وجاهليته هو بداية الإصلاح والسير في طريق الدعوة والنهوض بالدولة الإسلامية.

ونافش حسن الهضيبي في كتابه: «دعاة لا قضاة» هذه الأفكار ونقض بعضها، وما فعله وقاله الهضيبي في كتابه من الاعتراف بإسلام كل من نطق الشهادتين ليس هو ما يسير عليه ويعتقد فيه عموم الإخوان في معظم الأزمان، فمنهجهم قائمٌ على التكفير حتَّى يستطيعوا من خلاله الإفتاء بإزهاق الأرواح وإسالة الدماء[1].

يقول سيد قطب في الظلال: «إلَّا أن البشريَّة عادت إلى الجاهليَّة، وارتدَّت عن لا إله إلَّا الله، فأعطَت لهؤلاء العباد خصائصَ الألوهيَّة، ولم تعد توحِّدُ الله وتُخلِصُ له الولاءَ»[2].

ويقول في معالم في الطريق: «إنه يدخُلُ في إطارِ المجتمعِ الجاهليِّ تلكَ المجتمعاتُ الَّتي تزعُمُ لنفسِها أنَّها مسلمةٌ، وهذِه المجتمعاتُ لا تدخل في هذا الإطارِ؛ لأنَّها تعتقدُ بألوهيَّةِ أحدٍ غير الله، ولا لأنَّها تُقدِّم الشَّعائر التَّعبُّديَّة لغير الله أيضًا، ولكنَّها تدخل في هذا الإطار لأنَّها لا تدينُ بالعبوديَّة لله وحده في نظام حياتها، فهي وإنْ لم تعتقد بأُلوهيَّة أحدٍ إلَّا الله تعطي أخصَّ خصائصِ الأُلوهيَّة لغيرِ الله، فتدين بحاكميَّة غير الله، فتتلقَّى مِن هذه الحاكميَّة نظامَها وشرائعَها وقِيمَها وموازينَها وعاداتِها وتقاليدَها وكلَّ

(1) انظر: دعاة لا قضاة (ص 11) وما بعدها، و(ص 67) وما بعدها- تأليف: حسن الهضيبي- دار الطباعة والنشر الإسلامية.

(2) انظر: في ظلال القرآن (2/1057).

مقوِّمات حياتها تقريبًا»[1].

ثم في سياق آخر يتحدث عن تلك الجاهلية فيقول: «ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها وصارت إليها أوضاعُ قومِهم وأخلاقهم وأنظمتهم لا يُمكن أن يهادنَها هذا الدين أو يُبقِي عليها وأنَّها من ثَمَّ معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهليَّةُ عن هذه الأرض ويستعلي هذا الدين ويكون الدين كله لله؛ أي: أن يكون السلطان في الأرض كله لله، وأن يطارد المعتدون على سلطان الله في الأرض كلها وبذلك وحده يكون الدين كله لله »[2].

وهذا عين ما شاهدناه يحدث في مصر الآن، حيث صاحوا واعترفوا وهددونا بتدمير البلاد وإشاعة الخراب فيها بالتفجيرات والقتل قالوا: «سنفجر مصر». فرد الله كيد هؤلاء الخوارج، وأبطل مكرهم.

ويؤكِّد سيد قطب على معنى جاهليَّة المجتمعات المسلمة فيقول: «ولكن ما هو المجتمع الجاهلي؟ وما هو منهج الإسلام في مواجهتِه؟ إنَّ المجتمعَ الجاهليَّ هو كلُّ مجتمع غير المجتمع المسلِم! وإذا أردنا التَّحديدَ الموضوعيَّ قلنا: إنَّه هو كلُّ مجتمعٍ لا يُخلِصُ عبوديتَه لله وحده، متمثلةً هذه العبودية في التَّصوُّر الاعتقاديِّ وفي الشَّعائر التَّعبُّدية، وفي الشَّرائع القانونيَّة، وبهذا التَّعريفِ الموضُوعيِّ تدخل في إطار المجتمع الجاهليِّ جميعُ المجتمعاتِ القائمةِ اليومَ في الأرض فعلًا...». إلى أن يقول: «وأخيرًا يدخُلُ في إطار المجتمع الجاهليِّ تلك المجتمعاتُ التي تزعم لنفسِها أنَّها مسلمةٌ»[3].

ويقدم سيد قطب رؤيةً ونصيحةً لما يُسمِّيه حركاتِ البعث الإسلاميِّ فيحذِّرها من: «أن تظنَّ لحظةً واحدةً أنَّ الإسلامَ قائمٌ، وأنَّ الذين يدَّعونَ الإسلامَ ويتسمَّون بأسماء

---

(1) انظر: معالم في الطريق (ص91) سيد قطب- الطبعة السادسة- دار الشروق- القاهرة- 1979م.

(2) في ظلال القرآن، تفسير سورة الأنعام، عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾.

(3) معالم في الطريق (ص 88-91).

المسلمين هم فعلًا مسلمون... فتسير وراءَ سرابٍ كاذبٍ، تلوحُ لها فيه عمائمُ تُحرِّف الكَلِمَ عن مَواضعِه، وترفع رايةَ الإسلامِ على مساجد الضِّرارِ»[1].

ويقولُ: «إنَّه لا نجاةَ للعُصبةِ المسلمةِ في كلِّ أرضٍ من أن يقعَ عليْهَا هذا العذاب: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: 65]. إلَّا بأنْ تَنفصِلَ هذه العُصبة عقديًّا وشُعوريًّا ومنهجَ حياةٍ عن أهل الجاهليَّةِ من قومِها، حتى يأذنَ الله لها بقيام دارِ إسلامٍ تعتصم بها، وإلا أنْ تشعر شعورًا كاملًا بأنَّها هي الأُمَّة المسلمةُ وأنَّ ما حولها ومَن حولها ممَّن لم يدخلوا فيما دخلتْ فيه جاهليَّةٌ وأهلُ جاهليَّةٍ، وأنْ تُفاصلَ قومَها على العقيدةِ والمنهجِ، وأنْ تطلبَ بعد ذلكَ من الله أنْ يفتحَ بينَها وبين قومِها بالحقِّ وهو خيرُ الفاتحينَ، فإذا لم تُفاصِلْ هذه المفاصلةَ ولم تتميَّزْ هذا التَّميُّز حقَّ عليها وعيدُ الله هذا، وهو أنْ تظلَّ شيعةً من الشِّيَع في المجتمع؛ شيعةً تتلبَّسُ بغيرِها منَ الشِّيَع، ولا تَتبيَّن نفسَها، ولا يتبيَّنها النَّاسُ ممَّا حولها، وعندئذٍ يصيبُها ذلك العذابُ المقيمُ المديدُ دون أنْ يدركَها فتحُ الله الموعودُ! إنَّ موقفَ التَّميُّزَ والمفاصلة قد يُكلِّف العُصبةَ المسلمةَ تضحيَّاتٍ ومشقَّاتٍ، غيرَ أنَّ هذه التَّضحياتِ والمشقَّاتِ لن تكونَ أشدَّ ولا أكبرَ من الآلامِ والعذابِ الذي يُصيبُها نتيجةَ التباسِ موقفِها وعدم تَميُّزِه، ونتيجة اندغامِها وتميُّعِها في قومِها والمجتمع الجاهليِّ مِن حولها، ومراجعة تاريخ الدَّعوة إلى الله على أيدي جميع رُسلِ الله يُعطينا اليقينَ الجازمَ بأنَّ فَتْحَ الله ونصرَه وتحقيقَ وعدِه بغلبة رُسلِه والذين آمنوا معهم لم يقع في مرَّةٍ واحدةٍ قبل تَميُّز العُصْبة المسلمةِ ومُفاصلتِها»[2].

ففي هذا النصِّ وصفٌ للمجتمعات كلها بأنها جاهليَّة.

---

(1) العدالة الاجتماعية في الإسلام (ص 216) سيد قطب- الطبعة الثالثة عشر- دار الشروق القاهرة- 1993م.

(2) في ظلال القرآن (2/1125).

ثم يتغلل أكثر في فكرة جاهليَّة الحياة والمجتمعاتِ بقوله: «نحن اليوم في جاهليةٍ كالجاهليةِ التي عاصرها الإسلامُ أو أظلم، كلُّ ما حولنا جاهليَّة؛ تصوُّراتُ النَّاس وعقائدهم، عاداتُهم وتقاليدُهم، مواردُ ثقافتِهم، فنونُهم وآدابُهم، شرائعُهم وقوانينُهم، حتى الكثيرُ مما نحسبُه ثقافةً إسلاميةً ومراجعَ إسلاميةً، وفلسفةً إسلاميةً، وتفكيرًا إسلاميًّا- هو كذلك من صُنع هذه الجاهليَّةِ! لذلك لا تَستقيم قِيم الإسلام في نُفوسِنا، ولا يتضح تصوُّرُ الإسلامِ في عقولنا، ولا ينشأ فينا جيلٌ ضخمٌ من النَّاسِ من ذلك الطِّراز الذي أنشأه الإسلامُ أوَّلَ مرةٍ، فلابدَّ إذنْ في منهج الحركة الإسلاميَّةِ أنْ نتجرَّدَ في فترة الحضانةِ والتكوينِ من كلِّ مؤثراتِ الجاهليَّةِ التي نَعيشُ فيها ونستمدُّ منها»[1].

ويقول أيضًا في الظلال: «إنَّ العصبة المؤمنة اليوم لخليقةٌ بأن تقفَ أمام هذا الدرس الرَّباني فيها وقفةً طويلة، إن هذه العصبة تواجه اليوم من الجاهلية الشَّاملة في الأرض نفس ما كانت تواجهُه التي تنزلت عليها هذه الآيات»[2]. يقصد الجاهلية الأولى التي بعث النبي ﷺ ليهديها ويردها عن عبادة الأصنام إلى عبادة الرب الواحد الأحد.

بل إنه يحرض على المجتمعات الإسلامية التي يرميها بالجاهلية ويوجب على أتباع النصرة من أوليائه أن تدفعها بل وتسحقها فيقول: «إن مجرَّدَ وجود هذا الدين في هذه الصورة لابدَّ أن يدفع المجتمعات الجاهلية مَن حوله القائمة على قاعدة العبودية للعباد أن تحاول سحقها».

---

(1) معالم في الطريق (ص 17).

(2) في ظلال القرآن تفسير سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾.

ثم يستطرد قائلًا في محاولة منه للدَّعوة إلى العنف وكأنَّه يكتب للإخوان وأتباعهم من المتطرفين والإرهابيين: «دفاعًا عن وجودها ذاته، ولا يزيدُ أن يتحرك المجتمع الجديد للدِّفاع عن نفسه»[1].

ج - قضية الحاكمية.

إن فكرة الحاكمية هي تلكم الفكرة القديمة الحديثة وهي علامة مميزة لكل فرق الخوارج التي ظهرت في تاريخ المسلمين، فالخوارج الأول أشاعوها ضد سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقتلوه بناء على تلك الكلمة، والتي قال عنها: كلمة حق أريد بها باطل.

وروج لهذه الفكرة حديثا أبو الأعلى المودودي ومن ورائه وعلى إثره سيد قطب ومن والاه، وخلاصتها دعواهم أننا شعوب تحكمنا كلمة الكفر وقوانين الطواغيت، ورغبنا عن شريعة ربنا ودينه وهديه، فوجب عليهم ردنا عن تلك القوانين الطاغوتيَّة الكافرة التي لا تمت إلى الدين بأي شكلٍ من الأشكال، لأننا إذ رضينا بها وسرنا عليها فنحن كفار نرضى بحكم غير الله وتأليه غير الله والربوبية لغير الله، إلى غير ذلك من الكذب والوهم.

يقول سيد قطب وهو يتكلَّم في تمهيدٍ لفكرة الحاكميَّة من وجهة نظره هُو: «ونحن لا نحدِّدُ مدلول الدِّين ولا مفهومَ الإسلامِ على هذا النَّحوِ من عند أنفسِنا، ففي مثل هذا الأمر الخطيرِ الذي يترتَّب عليه تقريرُ مفهومٍ لدِين الله، كما يترتَّب عليه الحكمُ بتوقُّف

(1) في ظلال القرآن تفسير سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

وجودِ الإسلامِ في الأرض اليوم، وإعادة النَّظر في دعوى مئات الملايينِ من النَّاس أنَّهم مسلمونَ!»[1].

ويقول في العدالةِ الاجتماعية: «حين نستعرِضُ وجهَ الأرضِ كلَّه اليوم على ضوءِ هذا التَّقرير الإلهيِّ لمفهوم الدِّين والإسلامِ لا نرى لهذا الدِّين وجودًا... إنَّ هذا الوجود قد توقَّفَ منذ أنْ تخلَّت آخرُ مجموعةٍ من المسلمين عن إفراد الله سبحانه بالحاكميةِ في حياة البشر، وذلك يومَ أنْ تخلَّتْ عن الحُكْم بشريعتِه وحدها في كلِّ شئون الحياة»[2].

في هذا النص نجد سيد قطب يحكم على جميع مَنْ على وجه الأرض بعدم إسلاميته، بسبب احتكامه لغير شريعة الله، وحتى الدول الإسلامية التي تطبق الحدود من قطع ليد السارق وجلد الزاني، فهي في نظره غير إسلامية أيضا، والأرض خالية من حكم الله، ويبدو أن الكون كان في انتظار سيد قطب وجماعته، وفئته الضالة ومن والاها من جماعات منحرفة ومتطرفة وإرهابية حتى تأطر الخلق من عموم المسلمين وعلمائهم على الإسلام، الذي فطروا عليه، وهم أحرص على اتباعه من دمائهم ولحومهم.

يقول في الظِّلال: «فأمَّا اليوم فماذا؟! أين هو المجتمع المسلم الذي قرَّرَ أن تكون دينونتُه لله وحده، والذي رفض بالفعل الدينونةَ لأحدٍ من العبيدِ، والذي قرَّرَ أن تكون شِرعةُ الله شريعتَه، والذي رفض بالفعل شرعيةَ أيِّ تشريعٍ لا يجيء من هذا المصدر الشَّرعيِّ الوحيد؟ لا أحدَ يملكُ أنْ يَزعم أنَّ هذا المجتمعَ المسلمَ قائمٌ موجودٌ»[3].

وهو هنا ينفي وجود المجتمع المسلم وينفي وجود شريعة الله في الأرض.

(1) العدالة الاجتماعية في الإسلام (ص182).

(2) العدالة الاجتماعية في الإسلام (ص183).

(3) في ظلال القرآن (3/1735).

وانظرْ إليْه وهو يصنِّف لنا المسلم والمشرك؟ ويؤصِّل لفكرتِه التي تَجعلُ العاقلَ في حيرةٍ من أمرِه، فهو يصرُّ على أنَّك مشركٌ وأنت تقول: لا إله إلا الله- حتى تُقرَّ بفكرتِه وتصوُّره عن الحاكمية، وحتى تتبنى المنهج والخُطوات التالية .فيقول: «والذين لا يُفردون الله سبحانه بالحاكميَّة في أيِّ زمانٍ وفي أيِّ مكانٍ هم مشركونَ، لا يُخرجهم من هذا الشِّرك أن يكون اعتقادُهم أن لا إله إلا الله مجرَّدَ اعتقادٍ، ولا أن يقدموا الشَّعائر لله وحده- فإلى هنا يكونون كالحنفاءِ الذين لم يعتبرهم أحدٌ مسلمين، إنَّما يُعتبر النَّاسُ مسلمينَ حين يُتمُّون حلقاتِ السلسلة، أي: حين يضمُّون إلى الاعتقادِ والشَّعائر إفرادَ الله سبحانه بالحاكميَّةِ، ورفضهم الاعتراف بشرعية حُكْم أو قانونٍ أو وضع أو قيمةٍ أو تقليدٍ لم يصدر عن الله وحدَه، وهذا وحده هو الإسلام؛ لأنه وحدَه مدلولُ شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله، كما عرف هذا المدلولُ في الاعتقاد الإسلامي وفي الواقع الإسلامي سواء! ثم أنْ يجتمعَ هؤلاء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله على هذا النَّحو وبهذا المدلول في تجمُّعٍ حركيٍّ بقيادةٍ مسلمةٍ، وينسلخُون من التَّجمُّعِ الجاهليِّ وقيادتِه الجاهلية! وهذا ما ينبغي أن يتبيَّنَه الذين يُريدون أن يكونوا مسلمينَ، فلا تخدعهم عن حقيقةِ ما هم فيه خدعةُ أنَّهم مسلمونَ اعتقادًا وتعبُّدًا، فإنَّ هذا وحدَه لا يجعلُ الناسَ مسلمينَ ما لم يتحقَّق لهم أنَّهم يُفردون الله سبحانه بالحاكميَّة ويرفضون حاكميةَ العبيدِ، ويخلعون ولاءَهم للمجتمع الجاهليِّ ولقيادته الجاهليَّة»[1].

إن معرفة المسلم وقراءته لتلك النصوص تكشف له حقيقة هذا الرجل وحقيقة ما أشاعه من فكر دمر كثيرا من المجتمعات والدول الإسلامية، لأننا وجدنا كثيرا ممن يتبع هذا الرجل يتبعه على جهل بأمره وبفكره، وإنما منبهرا بالصورة التي روجها له الإخوان، الشهيد المفكر المناضل الثوري المؤمن وغير ذلك.

سيد قطب من خلال كلامه يؤكد على فكرة الاصطدام الحتمي بين المسلم وكل من

(1) في ظلال القرآن (3/ 1493).

حوله، وهذا مغاير تماما للمحجة البيضاء ولما تركنا عليه سيدنا محمد ﷺ، فقد أرسله ربه رحمة للعالمين وبدأ رسالته ببسم الله الرحمن الرحيم، ودينه دين سلام لمفردات الكون كلها، الإنسان والحجر والشجر، وأما ما يؤكد عليه سيد قطب من قتال للمسلمين ولغير المسلمين.

وهنا يحضرنا حديث النبي صلى الله عليه وسلم: **«قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ ، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»**[1].

وجاء عند مسلم: **«وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِى يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلاَ يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلاَ يَفِى لِذِى عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَلَسْتُ مِنْهُ»**[2].

***

(1) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ (3344) ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (1064) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر (1848) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المطلب الثاني
نظرة نقدية لمصنَّفات سيد قطب

طُبع كتاب سيد قطب "في ظلال القرآن" عند عيسى البابي الحلبي في ثلاثين جزءًا، وبعد ذلك طبعه في ثلاث عشرة جزءًا، وبعدما مات وجدوا الجزء الرابع عشر والخامس عشر.

وطُبِعَ كتاب الظِّلال عدة طبعات كانت الطبعة الأولى بها كثيرٌ من الأخطاء استدركها بعض المشايخ عليه، كقوله: على لسان الله. يقصد في وحيه وكلامه . وأتى هذا الخطأ في التصنيف لأنه من المعروف أن سيد قطب كان أديبًا ليس له علاقة بالعقيدة لا من قريبٍ ولا من بعيد.

إن الأزمات التي تعرض لها سيد قطب في حياته هي التي جعلته ينحو هذا المنحى، فرؤيته وتعرضه للتعذيب في السجن جعلتْه يصنِّفُ الكتب التي تَحوِي أفكارًا مغلوطة مثل معالم في الطريق الذي يؤسِّسُ للفكر المتطرف والعنيف، ودخلته الثقة في الكتابة بحكم أنَّه كان من تلامذة العقاد وكان فيه غرورا وكبرياء، ولكن من خلال النظر في كتاباته يتبين لك أنه شتان بين فكر العقاد وأسلوبه وفكر قطب وأسلوبه.

وانحراف قطب في فكره رتب عليه أمورا في سلوكه وعبادته، فقد نقل عنه أنه انقطع عن صلاة الجمعة، لأنه كان يرى سقوطها بسبب سقوط الخلافة[1]، فمشكلة سيد قطب أنه أتى دخيلا على الإخوان في مرحلة متأخرة، فهو بالإضافة إلى أنه لم يتخصص في الدراسات الشرعية، فهو أيضا لم يمر بمرحلة المأثورات في حياة الإخوان الأوائل التي اهتموا فيها بالتعاليم والأحكام الفقهية والتعبدية.

وكتاب الظلال يدس سما في عسل، يجذب القارئ بحلاوة عبارته، وترغيبه في

(1) انظر: ما كتبه علي عشماوي في مذكراته (ص 112) عن ترك سيد قطب لصلاة الجمعة.

المحبة والفكر والترقي، فهو يسوغ كلاما يشبه الحق ويراد في نسجه باطل، فيلتبس على بعض الناس أمره، فيأخذون منه فكره التكفيري المتطرف، وسوء التصرف والفهم للأدلة والحجج من الأحاديث الشريفة والمواقف التاريخية في حياة المسلمين.

ونظرة واحد في كتب التراث توضِّح لنا أن علماءنا لم يتركوا فكر الخوارج الذي دمر الأمة منذ عهد الصحابة، دون مناقشة وتصحيح، فقد ناقشهم سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما وقت أن ظهروا [1]، وذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة:33] أنها نزلت في الحروريَّة أي الخوارج. وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص أنهم الخوارج [2].

ثم يقول ابن كثير في موضع آخر: «وهذا الضَّربُ من الناس من أغرب أشكال بني آدم، فسبحان من نوَّع خلقه كما أراد، وسبق في قدره ذلك. وما أحسن ما قال بعض السلف في الخوارج: إنهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: 103- 105].

(1) حديث مناظرة ابن عباس رضي الله عنهما للخوارج أخرجه النسائي في السنن الكبرى (7/480) والحاكم في مستدركه (2/151). وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

(2) انظر: تفسير ابن كثير (1/117) و(3/86) تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي- تحقيق: محمد حسين شمس الدين- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- 1419م.

والمقصود أن هؤلاء الجهلة الضُّلَّال والأشقياء في الأقوال والأفعال اجتمع رأيهم على الخروج من بين أظهر المسلمين، وتواطئوا على المسير إلى المدائن؛ ليملكوها ويتحصنوا بها، ثم يبعثوا إلى إخوانهم وأضرابهم- ممَّن هو على ما هم عليه من أهل البصرة وغيرها- فيوافوهم إليها، ويكون اجتماعهم عليها»[1].

ولو حذفنا من كلام ابن كثير وهو يتكلم عن الخوارج جملة أهل البصرة لانطبق الكلام تمامًا على الإخوان المسلمين وسيد قطب.

وإنَّنا في هذا الصدد يمكنُنا القول إن سيدِ قطب وقف بفكره في كتاب «في ظلال القرآن» موقف التَّائه الذي يقرأ النصوص بطريقة خاطئة، فيؤدي ذلك إلى فهمها فهما ضالا، وظهر هذا مما نتج عن فكره الذي أوقع الصدام والعنف في العالم، واحتار الناس البسطاء في تفسيره هذا وتساءلوا عنه لأنه رجل يفسر كلام الله، نعم إنه كذلك، ولكن الحذر كل الحذر ممن يتحدث في كلام الله وفي دينه، ثم يُلَبِّس على الناس فيوقعهم في عكس مقصود الشارع من كلامه.

حثَّنا ديننا على تقديم النصيحة لكل من سوَّلت له نفسه المعصية، وهذا ما كان يفعله مشايخ الأزهر قديمًا فقد كنت صغيرًا أسمع المشايخ في التلفاز كالشيخ أحمد حسن الباقوري والشيخ أحمد الشرباصي مع المذيع أحمد فرَّاج رحمهم الله جميعا وهما يوجهون النصح للنساء بارتداء الحجاب في فترة الستينات، ولكن أيا منهم لم يرم الناس بالكفر والجاهلية ويعنف باللفظ أو الفعل على خلق الله المسلمين لمجرد ارتكابهم للمعاصي وإن كانت كبائر، وأما التكفير بالكبائر ورمي الناس بالجاهلية فهو مسلك المتطرفين.

أما في قضايا غير المسلمين الذين يجاورونا في بلادنا، فعلى سبيل المثال قضية مثل تربيتهم للخنزير، فيبين علماؤنا ويُعلِّمون الناس أنه قد أخذت علينا العهود أن نترك

---

(1) البداية والنهاية (10/580، 581) تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي- دار هجر- الطبعة الأولى- 1997م.

النصارى واليهود فهو أمر حلال عندهم وهذه قاعدة مؤسسة، ويوضحون الحكم في مثل تلك الحيوانات فيوضحون أن هذا حرام أكلها على المسلمين حلال للنصارى، وقد أخذت علينا العهود أن نتركهم ما يصنعون.

إنَّ ما سبق من نصوص سيد قطب في تكفير المجتمع ووَسْمِه بالجاهلية وتأصيله لقضية الحاكميَّة لم يكن أمرًا مقبولًا لدى كثيرٍ من جماعة الإخوان حتى في وقت سيد قطب، فمنذُ ذلك الوقت عَمِلَ كثير منهم من طلاب العلم على النظر في كتبه، واستخرجوا منها مواطن التكفير فوجدوه يكفر المجتمع والدولة والناس، وعندما علموا بهذه الأمور انقسموا قسمين؛ قسم فزع من هذا ورآه عيبًا في حقِّ الأمة وتراثها، وقسم آخر اتَّبعَه، وكان من القسم الذي رفضه ورفض أفكاره طائفة كبيرة من الإخوان، لكن على الطرف الآخر كان هناك مجموعة من الأشخاص اتبعُوه وظلوا معه إلى نهاية الطَّريق.

وفي سياق الحديث عن كتاب الظلال ككتاب معدود في كتب التفسير نستطيع أن نلقي الضوء على الفروق التي بينه وبين غيره من كتب التفسير، فقد عقدَ الدكتور أسامة السيد الأزهري مقارنة بين كلام سيد قطب وبين كلام كبار المفسرين الأوائل، فوجدَ أن كلام سيد قطب مختلف تمامًا مع كلام ابن مسعود وابن عباس والبراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وإبراهيم النخعي والضحاك وأبي صالح وعكرمة وقتادة ومجاهد وأبي مجلز والسدي وعامر والشعبي وعطاء وطاووس وأبي رجاء العطارديِّ والحسن البصري والطبري وحجة الإسلام الغزالي والبغوي وابن الجوزي والإمام الفخر الرَّازي والإمام القرطبي وابن عطية وأبي حيان وابن كثير والآلوسي والطَّاهر بن عاشور والشيخ الشعراوي في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: 44].

وانتهى الدكتور أسامة إلى أنه لم يسبق أحد سيدَ قطب في فهمه التكفيري لهذه الآية

إلا ما رواه الإمام الآجري في كتابه الشريعة[1]، وإليك نصوص العلماء في هذه الآية:

1- يقول الإمام فخر الدين الرازي في التفسير: «قال عكرمة: وقوله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: 44]. إنما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه، أما مَن عرف بقلبه كونه حكم الله كأن يقول: نعم أعرف أن القرآن نصَّ على قطع يد السارق وجَلدِ الزاني غير المحصن ورجم المحصن وأقر بلسانِه إلا أنه أتى بما يضادُّه فهو حاكم بما أنزل الله، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية، وهذا هو الجواب الصَّحيح. والله أعلم»[2].

فهذا كلام الإمام الرازي ينقله عن عكرمة، وسيد قطب يخالف مفهوم هذا الكلام، ونحن بالتأكيد مع الإمام الرازي، والإخوان قديمًا كانوا يقولون كما يقول الإمام الرازي.

2- ويقول حجة الإسلام الغزالي في المستصفى: «قوله تعالى بعد ذكر التوراة وأحكامها: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾. قلنا: المراد به ومن لم يحكم بما أنزل الله مكذبًا به وجاحدًا له»[3].

3- وقال الإمام ابن عطية: «لفظ هذه الآية ليس بلفظ عموم بل لفظ مشترك يقع كثيرًا للخصوص كقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ

(1) الحق المبين في الرد على من تلاعب بالدين (ص 28، 29) تأليف: أسامة السيد محمود الأزهري- دار الفقيه- مصر- الطبعة الأولى- 2015م.

(2) تفسير الرازي= مفاتيح الغيب (12/368) تأليف: محمد بن عمر فخر الدين الرازي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الثالثة- 1420م.

(3) المستصفى في علم الأصول (1/398) تأليف: أبو حامد الغزالي- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الأولى- 1997م.

﴿٤٤﴾ وليس حكام المؤمنين إذا حكموا بغير الحق في أمر بكفره بوجه»[1].

4- أما نص الإمام الآجري فيقول رحمه الله: «حدَّثنا أبو بكر بن أبي داود قال: حدثنا المثنى بن أحمد قال: حدَّثنا عمرو بن خالد قال: حدَّثنا بن لهيعة عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير في قوله تعالى ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: 7]. قال: أمَّا المتشابهات فهنَّ آي في القرآن يتشابهنَ على الناس إذا قرءوهنَّ، من أجل ذلك يضل من ضل ممَّنِ ادَّعى هذه الكلمة، كل فرقة يقرءون آية من القرآن ويزعمون أنها لهم، أصابوا بها الهدى، ومما يتبع الحروريَّة، وهم (الخوارج)، من المتشابه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فهم يقرءون معها: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: 1]. فإذا رأوُا الإمامَ يحكم بغير الحق قالوا قد كفر، ومن كفر عَدلَ بربِّه فقد أشركَ، فهذه الأمة مشركة، فيخرجونَ فيفعلون ما رأيت لأنهم يتأوَّلونَ هذه الآية»[2].

وهذا تحذيرٌ لنا من التكفيريين الخوارج يوجِّهه لنا الإمام الآجري في كتابه الشريعة.

بل إن سيد قطب يخالفُ المفسرين قبله ويقول في تفسير هذه الآية: «إن المماحكة في هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل لا تعني إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة، والتأويل والتأول في مثل هذا الحكم لا يعني إلا محاولة تحريف الكلم عن مواضعه وليس لهذه المماحكة من قيمة ولا أثر في صرف حكم الله عمن ينطبق عليهم بالنص الصريح الواضح الأكيد »[3].

---

(1) المحرر الوجيز (95/2) تأليف: أبو محمد عبد الحق بن عطية- تحقيق: عبد السلام عبد الشافي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- 1422هـ.

(2) الشريعة (ص 341) تأليف: أبو بكر محمد بن الحسين الآجري- دار الوطن- السعودية- الطبعة الثانية- 1999م.

(3) في ظلال القرآن في تفسير سورة المائدة عند قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ

وعند التفتيش لم نجد لسيد قطب سلفًا سبقه لهذا الفهم التكفيري إلا الخوارج.

وسيد قطب تعسَّف وشطَّ في أموره عن نهج المحجة البيضاء التي جاء عليها سيدنا رسول الله ﷺ، يقول الإمام ابن عبد البر: «ومن خاف على أمة محمد ما لم يخفه عليها نبيها فقد جاء من التعسف بما لا يخفى»[1]. وكأن كلام ابن عبد البر موجَّه لسيد قطب، وفي الحقيقة بناء على ما سبق نستطيع أن نقول: إن سيد قطب لم يقرأ ولم يتعلَّمْ ولم يسمع من الشيوخ ولم يُزاحم العلماء ولم يقرأ أحاديث النبي ﷺ عند الأكابر من العلماء؛ فأدى ذلك إلى تكفيره المسلمين تحت مسمى توحيد الحاكميَّةِ.

***

هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

(1) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (267/24) تأليف: ابن عبد البر النمري- تحقيق: مصطفى العلوي ومحمد البكري- وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب- 1990م. وانظر أيضًا: الحق المبين (ص 17) وما بعدها.

المطلب الثالث

رأي القرضاوي في مسألة التكفير عند سيد قطب

لقد ناقش القرضاوي قضيَّة التكفير عند سيد قطب، وقبل أن نورد ما قال في مذكراته، نرجع إلى تاريخ هذه المناقشة، فهي ترجع جذورها إلى تاريخ يبدأ في لبنان وتقريبًا سنة 1972م، في الذكرى السادسة لإعدام سيد قطب، في جريدة الشهاب الناطقة باسم الإخوان المسلمين، التي كان يرأس تحريرها القاضي فيصل مولوي رحمه الله تعالى.

نشرت المجلة مقالا لمحمد البدري بعنوان "سيد قطب في يوم ذكراه" نقل فيها عمن مكث مع سيد قطب عشر سوات لا يفرقهما إلا نداء السجان عند الغروب ليدخل كلٌّ إلى زنزانته ويجمعها الصباح من جديد ليقضيا يوما كله علم وفكر ودراسة في ظلال القرآن، فكان تلميذ سيد وحواريه وحامل فكره والداعي إليه. هكذا قال عنه سيد قطب نفسه ، وهكذا عرفه إخوانه .

وفي هذه المقالة يتحدث هذا الحواري عن ظروف نشأة تلك الأفكار والضغوط والملابسات التي عاشوا فيها فولدت تلك الأفكار، وينقل عن سيد قوله: إنه غير في الأصول لا في الفروع. ونقل فيها البدري عن حواري قطب هذا الذي لم يسمه [1] قوله: وما أحسب سيد قطب والله بما عرفته فيه وخبرته منه لو امتد به الأجل واستقبل من أمره ما استدبر ورجع إلى دنيا الناس وواقع الحياة إلا غير وجدد ورأى غير ما كان يرى وقال غير ما كان يقول.

فرد عليه القطبيون ينكرون ما قاله في تلك المقالة، وفتحوا عليه ادعاءات كثيرة تفيد أنه لا يعرف سيد قطب حق المعرفة، فرد عليه حامد أبو ناصر: "ليس في فكر سيد ما

---

(1) وهو محمد يوسف هواش والذي كشفت زوجته السيدة فاطمة الدور الذي لعبه في تشكيل فكر سيد قطب.

تدعو الحاجة لتعديله". وفيه رأى أن سيدا بنى آراءه وأفكاره على أصول راسخة رسوخ الجبال . وقدم النصح للبدري وأمثاله بالقول: "نحن ننصح لهولاء أن يحتفظوا بأفكارهم ويتركوا شباب الدعوة وجيلها الجديد يتسلح بهذه الأفكار ويشق طريقه من خلال ظلام الجاهلية ليعيد الصرح الإسلامي الجديد" . ويتساءل عن الشيء الذي سيغيره قطب لو امتد به الأجل "وهل العقائد عرضة للتغيير والتبديل حسب ظروف الفسحة والشدة؟"[1]

ومن الواضح من كلام حامد أبو ناصر أن كلام سيد قطب وأفكاره صادفت هوى نفوس مريضة فرسخت فيه، وصرحت بمكنونات مريضة، ملؤها شهوات الانتقام والحقد والكراهية، إن البدري لا يذم لو دققت في كلامه في سيد قطب لا هو ولا الحواري الذي ينقل عنه حتى ينتفض أبو ناصر للدفاع عن قطب، إن البدري كان يحاول أن يجد مبررا أو مسوغا أو ظروفا ضاغطة تحت نيرها تحولت أفكار قطب واتخذت من الدين وسيلة للتعبير عن دواخلها ورغباتها في الانتقام والثأر ممن عذبوه أو سلبوه حريته في السجن.

وبعد تلك المناقشات ذكر يوسف القرضاوي رأيه في سيد قطب فقال إنه أوَّل من قال بالتكفير حديثا، وأتى بنصوصه الذي تلزمه تكفير عامة المجتمعات الإسلامية، والقرضاوي يناقض نفسه حيث ينتقد قطب ويكشف ضلاله في تكفير المسلمين، ثم يمجده ويمدحه، ويصرخ بمظلوميته ويلقبه بالشهيد بالرغم من تكفيره المجتمعات الإسلامية ورميها بالجاهلية والاعتقاد في وجوب مقاومة جاهليتها وسحقها.

ولا تستقيم هذه الرغبة في الثأر والانتقام وتحويل الأمر الشخصي إلى أمر عام ديني مع المحجة البيضاء التي تركها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنها تبين أن المسلم إن ظلمه ولي الأمر أو اعتدى على حقه الشخصي وقهره على ذلك، فإنه يصبر ويحتسب،

(1) مقدمة كتاب "سيد قطب والتكفير" لمعتز الخطيب مكتبة مدبولي.

ولا يحول هذا الظلم الذي وقع على شخصه إلى فتنة أو حرب دينية، وذلك من باب تحمل الضرر الخاص بدفع الضرر العام.

ففي الحديث قَالَ « **نَعَمْ تَكُونُ إِمَارَةٌ عَلَى أَقْذَاءٍ وَهُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ** ». **قَالَ قُلْتُ ثُمَّ مَاذَا قَالَ « ثُمَّ تَنْشَأُ دُعَاةُ الضَّلاَلَةِ فَإِنْ كَانَ لِلَّهِ يَوْمَئِذٍ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةٌ جَلَدَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ فَالْزَمْهُ وَإِلاَّ فَمُتْ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلِ شَجَرَةٍ** ».(1)

وفي رواية لمسلم قال: «**يَكُونُ بَعْدِى أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَاىَ وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِى وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِى جُثْمَانِ إِنْسٍ**». **قَالَ قُلْتُ كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ قَالَ « تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ** ».(2).

وقال أيضًا في رواية البخاري: «**فإن لم يكن في الأرض إمام فاعتزل تلك الفرق كلها**»(3).

ولم يقل سيدنا النبي ﷺ: اصنع فرقة في المسلمين أو اتبع جماعة شاذة منهم أو اخرج على المسلمين وإمامهم وحدك تقاتل وتصنع فتنة وتؤلب الناس على بعضهم حتى تصير مظلمتك مظالم ومصيبتك مصائب. ولو أن كل رجل ظلمه ولي الأمر صنع ذلك لما استقر أمر المسلمين يوما، فإن الظلم محتمل، وليس إمام ينصف الخلق أجمعين، فضلا عن تلك الفرقة التي تسعى للفتنة بين الناس.

---

(1) **رواه أحمد في مسنده ج5/ ص386 ح23330.**

(2) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر (1847) من حديث حذيفة بن اليمان.

(3) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (3606)، ومسلم في كتاب ، باب كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر (1847) من حديث حذيفة بن اليمان.

وهاج أتباع سيد قطب ضد القرضاوي، وانتقدوه بأشد الألفاظ، حتى صارت معركة كلامية ومشادات على صفحات الجرائد والمجلات، ووصل التشنيع بقطب حتى أنهم أظهروا له مقالات قديمة بجريدة الأهرام دعا فيها إلى العري والإباحية بعنوان "**الشواطئ الميتة**"[1]. متأثرا بكتاب يوسف جوهر الذي كتبه في مصر بعنوان: «**في بلاد العراة**». يدعو فيه إلى العري.

وكتب جمال سلطان حينئذ بمجلة المنار الجديدة يدافع عن سيد قطب في مقاله: عتاب للشيخ القرضاوي يقول: «أنا لا أتصوز أن الأمر فيه من حظوظ النفس أو ما يعرف بالغيْرة بين العلماء من القبول الواسع لأحدهم دون سواه». ويقول: «هل هي بقايا التوتر الحزبي القديم بين الفصيل الذي انتمى إلى سيد قطب من الإخوان، والفصيل الآخر الذي انتمى إلى الشيخ مصطفى مشهور ومجموعة التنظيم الخاص، وهي التوترات التي بدأت في المعتقلات وتفجرت ......».

ويقول أيضًا مدافعًا عن سيد قطب: «والمؤسف أن هذه الرُّوح المريضة تسللت إلى كتابات عديدة ممن حاولوا التأريخ لتجربة الإخوان من أبنائها، وعفا الله عن الأستاذ محمود عبد الحليم- وهذا ركن من أركان الإخوان- في كتابه الإخوان المسلمون... أحداث صنعت التاريخ أتى بالأعاجيب من أجل إهانة سيد قطب وتشويه صورته فقد ذكر على سبيل المثال...».

ثم يقول: «ومنذ ذكر عبد الحليم هذه الفرية المؤسفة- ويقصد بها الشواطئ الميتة- ونشط عدد من الباحثين يبحث عن هذه المقالة المذكورة فلم يعثر لها على أثر، وهو أمر مدهش». والمقال موجود لكن هو ينكره.

(1) هذه المقالة بحث عنها أحد الأشخاص المقربين للقرضاوي إلى أن وجدها ونشرها على شبكة المعلومات (الإنترنت)، وقد نبه الكاتب الأستاذ حلمي النمنم أن الفضل يرجع لعصام تليمة في نشر هذه المقالة، وقد كتب سيد قطب "الشواطئ الميتة" في العاشر من يوليو سنة 1938م.

ويقول جمال سلطان مرة أخرى عن القرضاوي: «إن كان هذا حقيقيًّا بالفعل فهذا ما يصعب تبريره أو فهم أسبابه فكيف والأمر كله كذب وافتراء».

يعني أنه ليس هناك شواطئ ميتة، وليس هناك أي شي.

هذا ما كان بين جمال سلطان والقرضاوي، ويبقى لدينا أمر آخر وهو مناقشة القرضاوي لفكر سيد قطب، فقد وضَّح القرضاوي في مذكراته أن فكر سيد قطب ينضحُ بالتكفير وكتب يقول عنه: «وهذه مرحلة جديدة تطور إليها فكر سيد قطب، يمكن أن نسميها مرحلة الثورة الإسلاميَّة، الثورة على كل الحكومات الإسلامية أو التي تدعي أنها إسلامية، والثورة على كل المجتمعات الإسلامية أو التي تدعي أنها إسلامية، فالحقيقة في نظر سيد قطب أنَّ كل المجتمعاتِ القائمة في الأرض أصبحت مجتمعاتٍ جاهليَّةً، تكوَّن هذا الفكر الثوري الرافض لكل من حوله وما حوله، والذي ينضح بتكفير المجتمع وتكفير الناس عامةً»[1].

ثم بعد ذلك يبين أن فكره خطير على الأمة، وأن فكرة التكفير من أخطر ما يتبنَّاه، يقول: «وأخطر ما تحتويه التوجهات الجديدة في هذه المرحلة لسيد قطب هو ركونُه إلى فكرة التَّكفير والتَّوسع فيه، بحيث يفهم قارئه من ظاهر كلامه في مواضع كثيرة ومتفرقة من الظلال وما أفرغ في كتابه معالم في الطريق أن المجتمعات كلها قد أصحبت جاهلية، وهو لا يقصد بـ(الجاهلية) جاهلية العمل والسلوك فقط، بل جاهلية العقيدة، إنها الشرك والكفر بالله...»[2]. وهذا إقرار منه بذلك الأمر.

وينقل القرضاوي معترضا على فكرة الجاهلية عند سيد قطب قوله: «وهذا ما أشار إليه في كتابه المعالم وفصَّله في كتاب: الإسلام ومشكلات الحضارة. وشبَّه مجتمعاتِنا اليوم بمجتمع مكة في عهد الرِّسالة، وأن الرسول لم يعرض عليه النظام والتشريع بل

(1) ابن القرية والكتَّاب (56/3).

(2) ابن القرية والكتَّاب (58/3).

عرض عليه العقيدة والتوحيد»[1].

لم يعترض القرضاوي على سيد قطب في قضايا التكفير فحسب بل إنه ناقشه في قضيَّة إنكاره للاجتهاد المعاصر؛ لأن سيد قطب يرى أنه لا فائدة منه، فيقول في كتابه: «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية»: «رأينا من المنتسبين إلى العلم الديني من يظن أننا لسنا في حاجة إلى اجتهادٍ معاصر، اكتفاء بالفقه القديم الذي يرى في أحشائه الحل لكل مشكلة جديدة...». ثم يتعرض لفكرة جاهلية المجتمع وأنها مرتبطة بأن سيد قطب يرى أن لا داعي للاجتهاد المعاصر فيقول: «إن فكرتَه المحوريَّة أنه يرى المجتمعَ الذي نعيشُ فيه مجتمع جاهلي يرفض حاكميَّة الله تعالى، ولا يعترف بمنهجه ضابطًا للحياة، ومقتضى هذا أنه ليس بمجتمعٍ مسلم»[2].

لقد نتج من فكر سيد قطب دعوة المسلمين إلى قتال العالم كله استنادًا لآيات سورة التوبة أو ما يتردد عند تلك الجماعات بآية السيف، وهنا وقف القرضاوي ضده وأورد قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: 8]. وانتقده بقوله: «ولا أدري كيف هانَ على سيد قطب وهو رجل القرآن الذي عاش في ظلاله سنين عددًا يتأمله ويتدبره ويفسره أن يعطِّل هذه الآيات الكريمة كلها وأكثر منها في القرآن بآية زعموها آية السيف؟»[3].

ونتوقف عند وصف القرضاوي لقطب برجل القرآن ونتذكر حديث رسول الله الذي سبق ذكره، قال ﷺ: **«أخافُ على أمتي من رجل أوتي القرآنَ حتى إذا بدتْ عليه بهجته»**.

(1) ابن القرية والكتَّاب (3/58).

(2) الاجتهاد في الشريعة الإسلامية (ص 186، 187) دار القلم- الطبعة الأولى- 1985م.

(3) ابن القرية والكتاب (3/ 60).

ونعيد مقالة سيد قطب في معالم على الطريق التي يقول فيها: «إنه يدخُلُ في إطارِ المجتمعِ الجاهليِّ تلكَ المجتمعاتُ الَّتي تزعُمُ لنفسِها أنَّها مسلمةٌ، وهذِه المجتمعاتُ لا تدخل في هذا الإطارِ؛ لأنَّها تعتقدُ بأُلوهيَّةِ أحدٍ غير الله، ولا لأنَّها تُقدِّم الشَّعائر التَّعبُّديَّة لغير الله أيضًا، ولكنَّها تدخل في هذا الإطار لأنَّها لا تدينُ بالعبوديَّة لله وحده في نظام حياتها، فهي وإنْ لم تعتقد بأُلوهيَّة أحدٍ إلَّا الله تعطي أخصَّ خصائصِ الأُلوهيَّة لغيرِ الله، فتدين بحاكميَّة غير الله، فتتلقَّى مِن هذه الحاكميَّة نظامَها وشرائعَها وقِيمَها وموازينَها وعاداتِها وتقاليدَها وكلَّ مقوِّمات حياتها تقريبًا».

ويعلق القرضاوي على تلك المقالة بقوله: «فإسلام هذه المجتمعات عند سيد قطب هو مجرد زعم لأنها وإن لم تعبد غير الله قد دانت في كل مناحي حياتها لحاكمية غير الحاكمية الإلهيَّة في النظم والشرائع والقيم والموازين والعادات والتقاليد وكل مقومات حياتها....ولم يكتف بالحكم جاهلية المجتمعات الإسلامية ودولها وتاريخها وثقافتها وحضارتها وإنما ذهب فأعلن انقطاع الأمة الإسلاميَّة عن الوجود منذ قرون وأن المهمة التي يدعو إليها هي إيجاد الأمة والجماعة المسلمة من جديد»[1].

لقد تعرض القرضاوي للكلام عن سيد قطب وحياته في مذكراته في نحو عشرين صفحة[2]، وفي حديث له مساء الجمعة 8 يوليو 2009م في لقاء تلفزيوني ببرنامج: «منابر ومدافع». وجَّه شهادةً للأمة كلها تفيد أن التغير في أفكار قطب من الاعتدال إلى التكفير ظهر في كتاباته المتأخرة، خاصة في تفسيره الشهير «في ظلال القرآن» وكتابه «معالم في الطريق» وأكَّد القرضاوي أن ما كتبه قطب من أفكار خلال المرحلة الأخيرة من حياته يؤكِّد خروجه عن أهل السنة والجماعة بوجهٍ ما، وأن في هذا الأمر بُعْدًا عن الصراط السوي لأهل السنة والجماعة، فهذا ما كان من القرضاوي في نقده لسيد قطب

(1) ابن القرية والكتاب (3/67).

(2) انظر: ابن القرية والكتاب من ص (48) إلى ص (68).

وتعرضه له، مع وجود التناقض العجيب الذي يستدعي الدهشة في وصفه لسيد قطب بأنه شهيد وعزيز عليه، ويلقبه في بعض المواضع بالأستاذ وما شابه.

ويظهر هنا الفارق بين منهج التكفير ومنهج الأزهر، فنحن في الأزهر نتعلم الرفق بالخلق وأن المسلم صعب، يدخل الإسلام بسهولة وبكلمة، ولكن يخرج منه أو نخرجه منه بصعوبة شديدة، فلو قال مقالة من تسعة وتسعين وجها تحمل على الكفر ومن وجه تحمل على الإيمان لحملناها على الإيمان، فما بالنا بمن يوقع وصف الكفر على عموم المسلمين وعلى دول الإسلام بأكملها، فهلا شق عن قلوب الناس، وكيف يحكم عليهم بذلك وشهادة التوحيد تعصمهم وتحاجه يوم القيامة على تهمته لهم بالكفر.

اتصف سيد قطب من ناحية العلوم الشرعية بضعف المعلومات، وسطحية الفكر، والكبر وعدم التواضع، والرومانسية المفرطة، والحَيْرة، والتحيز لأمور لا يدرك عواقبها، وهذه الملامح أو الصفات جعلته يأخذ الرأي الخطأ والتفكير الخطأ المبني على مقدمات خاطئة.

فلنذكر ملامح عامة لفكر سيد قطب :

أولًا: افتقد ترتيب الأولويات، وذلك لأنه لم يتعلَّم تعليمًا أزهريًّا منضبطًا في وقته وعلى يد علماء متحققين بالشريعة والحقيقةِ، ومن هنا أخذ يعمل بنظرية الهرم المقلوب، يقلب القواعد فروعا والأصول أطرافا والعكس يجعل من المظاهر عقيدة ومن الرسوم أصولا، فسيد قطب ليس بعالم شرعي ولا فقيه ولا أصولي وإنما هو صاحب هوى اتبع دينا موازيا لأسباب مجهولة وبسذاجة وسوء ربط بين أمور ليس بينها رابط سار وراء قوم ضلوه وأضلهم وأضلوا أجيالا دون ذلك.

ثانيًا: افتقد الاجتهاد، والاجتهاد ليس حلما ولا أملا وإنما هو بصبر وطول تعلم وملكة، بتحصيل علوم اللغة وعلوم القرآن والسنة والأدلة الاجتهادية ، ثم فهم الواقع وإدراكه ، ثم بملكة في الوصل بين النص والواقع وإنزال ذلك على ذاك، مع تفرقة بين

محل الاجتهاد ومحل الضرورة ومحل الإجماع ومحل القطع ومحل الظن في كل ذلك، وسيد انحرف عن المحجة البيضاء فلم يصبر على تحصيل ذلك وجمعه.

ثالثًا: افتقدَ وجود العقليَّة الفارقة، هذه العقليَّة الفارقة التي تستطيع أن تفرِّقَ بين الواقِع ونفسِ الأمر، وهذا ما تعلمناه من مشايخنا كالشيخ الحسيني الشيخ، والشيخ جاد الرب رمضان، والشيخ محمد أبي النور زهير، والشيخ مصطفى شحاتة، والشيخ عبد الله الصديق الغماري وغيرهم وهو أنه لابد من التفريق بين الواقع ونفس الأمر؛ فمثلًا الماء سائل لطيف نشربه فيَحدُثُ به الرِّيُّ، لكن عندما نحلِّله نجده يتحوَّل إلى هيدروجين وأكسجين، فالهيدروجين يشتعلُ والأكسجين يساعد على الاشتعال. فالماء هو الواقع، والهيدروجين والأكسجين هو نفس الأمر، فالماء الذي أمامي مكوَّن من نار الله الموقدة، والواقع الذي أدركه بحواسي أمر مختلف فإنه سبب في الري وضرورة في العيش.

وهذه العقلية الفارقة هي التي تجعلنا نفرِّقُ بين الدين والتدين، ونفرق بين العلم والمعلومات؛ والشك والتشكك، والعالم والمثقف، فالعلم عبارة عن منظومة مترابطة منهجية، والمعلومات مفردة قد تأخذها من أيِّ مرجع أو مصدر فهي في نهاية المطاف عبارة عن قشورٍ.

والعقلية الخرافية تفقد هذه الأمور ولا يمكن أن تتمتع بقدرة كافية على القيادة الفكرية لأي طائفة من البشر، فكيف يصلح مَن يفتقد هذه الأمور، مع تشبعه بصفات سبق الكلام عنها من كبر وضعف معلومات وسذاجة مفرطة وغير ذلك، لقيادة مجموعة من الناس، بل كيف يطمئن الإنسان لقيادة فكرية أو دينية مع رجل كان ملحدًا ثم تحول هندوسيًّا ثم بعد ذلك ماسونيًّا، ونحن لا نحاسبه ولا نحكم على مصيره، لكننا نراه متحولا ولا يصلح لقيادة فكرية، بل إننا نحاول الوصول إلى إجابة حول هذا السؤال: هل يصلح سيد قطب أن تتخذه جماعات معاصرة قائدا لها ومنظرا لسلوكياتها

الدينية والاجتماعية وغير ذلك، فتستحل الدماء والأموال والأعراض، وتثير الفتن وتعتدي على الحرمات وتدمر بلاد الإسلام تحت دعوى هدم الجاهلية وبناء دولة الإسلام المزعومة والمتوهمة التي تبنى على النهب والقتل وقطع الطريق.

***

الفصل الخامس
القطبيُّون وتتالي الأجيال

المبحث الأول: تكوين القطبيين والتَّفكير في إزالة الدولة.

المبحث الثاني: نِتاج فِكر سيد قطب وتتالي الأجيال.

المبحث الثالث: ما افتقدته الجماعات المتطرفة منذ نشأتها وأوهامهم العشرة.

المبحث الأول
تكوين القطبيِّين والتَّفكير في إزالة الدولة

المطلب الأول: تكوينُ القطبيين.

التف حول سيد قطب في سجنه في السنوات الأخيرة جماعة ممن صادفت دعاوى سيد وأقواله وتنظيراته هواهم في الانتقام والثأر من المجتمع الذي لم يقدر كفاءتهم ولا تدينهم ولا صلاحهم ولا علمهم ولا ... إلى غير ذلك مما يتوهمونه في أنفسهم مما أهدره المجتمع وأودعه السجن وسلط عيه من يسيء إليه ويعذبه، فتكونت نواة القطبيين الذين سيخرجون فيما بعد وقد كونوا فرقا وجماعات ومعارف في السجن عازمين على تحقيق فكرة سيد قطب في اعتزال المجتمع وتكفيره وهجره والهجرة عنه وغير ذلك من الضلال، ثم إعداد السلاح للهجوم عليه والانتقام منه تحت مسوغ إنشاء الدولة الإسلامية .

إن حياة السجن وعزل الإنسان عن العالم بما يجري فيه من أحداث وتغيرات، وحبس حرية الشخص عن ممارسة حياته الطبيعة ليؤثر تأثيرا كبيرا على تفكير الإنسان فيجعله يفكر في نفسه كبؤرة للكون يتقلص عالم الأشخاص عنده إلى حدود السجان والمساجين، الظالم والمظلومين، المعتدي والمقهورين، إلى غير ذلك مما يرسخ في وجدانه عقدة الظلم والاضطهاد ، ويسحب تلك الرؤية على كل المجتمع وكل ما لا يراه منذ سنوات من أناس يراهم في شخص السجان أو مشاركين له في جرمه وعدوانه.

وأتبع ذلك أن السجان ظالم والظالم لمثله "المسلم" فهو كافر، والكافر لابد أن يقاوم ويقتل، والمجتمع الذي شجع هذا الظالم وأعانه فهو مثله يأخذ مثل حكمه في الكفر ووجوب القتل والمقاومة، وتسود الحياة والدنيا في عيون النابغة الأديب الرومانسي مثل سيد قطب الذي كان كالعصفور يغرد في الفضاء يمرح ويغني لا يأبه لأحد، يملأ صدره بالكبر والفخر والشعور بالتميز، إلى مسجون يعاني من المرض والإهمال

والاحتقار وغير ذلك.

هذا هو السبب الحقيقي وراء تغير واختلال فكر سيد قطب تجاه المجتمع الذي كان يعيش فيه، فالحياة في السجن تحدِثُ انحدارًا فكريًّا وثَقافيًّا وضيقًا في الأفق، ومن هنا نشأت النظرة السوداوية عند سيد قطب الأمر الذي أحدث خللًا في تفسير الأمور حتى إنه كان لا يرى إلا نفسه، فبدأ يفسِّر الأمور على غير مقاصدها وحقيقتها، وكان يربط بين قرائن بعيدة، وعلى أساسها يتوصَّل إلى نتائج خاطئة.

وعن الحياة داخل السجن أذكر أنني كنت أنتقد الإخوان المسلمين وأنا في الحادية والعشرين من عمري وكان لا يعجبني منهجهم؛ لأنه منهج غير نبوي، فقال لي أحدهم: سأجلسك مع رجل غاية في العلم والفكر وستعجب به وسيقنعك. فقلت له: من هذا؟ فقال لي: هو مصطفى مشهور. فذهبت وجلست مع الرجل فقال لي: لماذا أنت ضد الإخوان؟ فقلت له: لأن الإخوان في أول الأمر كانوا يدعونَ إلى الله وكانوا يحافظون على أورادهم وأذكارهم، لكنهم انقلبوا عن ذلك وتحوَّلوا وصنعوا الجهاز الخاص. وقتها لم أكن أعرف أن مصطفى مشهور هو الجهاز الخاص نفسه، فأخذ يشرح لي كيف كانوا في السجن، وما عانوه من اضطهاد وظلم، وهذا هو الشاهد في الحديث فقال: "نحن كنا في السجن كالقمينة التي يصنع منها الطوب الأحمر، منها ما خرج سويًّا، وهذا هو الذي بقي على عقيدته الصحيحة من غير تكفير ومن غير مطاوعة للحكومة الفاسقة، وبعضهم خرج هشًّا وهو من تعاون مع الحكومة، ومنهم من خرج صلدًا وهو الذي بدأ يكفِّر المجتمع، والحمد لله أننا كنا في الوسط.

وهذا الكلام من مصطفى مشهور يُوضِّح أن الحياة داخل السجن غيَّرتْ في أفكار أفراد جماعة الإخوان، ومع ذلك كنت دائمًا صريحًا في جلساتي معهم وأُوضح لهم حقيقتهم بأنهم اتخذوا التَّنظيمَ دينًا، ثم ساءت أحوالهم وبدا لي أنهم إلى غير رجعة عن دين موازٍ صنعوه لأنفسهم، ورضي به قادتهم حتى تتحقق لهم الزعامة والرياسة.

عَمِلَ سيد قطب على تكوين القطبيين داخل السجن ورسخ فيهم فكر تكفير المجتمع وجاهليته، وذلك من خلال بعض الأشخاص الذين يؤمنون بأفكاره وما يعتقده، وهذا التكوين أشبع في نفسه بعضا من حبه للصدارة والتميز والظهور والرياسة، وأرضى اعتقاده في نفسه العلم والجهاد في سبيل الله وأنَّه لا يوجد مسلم غيره على وجه الأرض، وهو بذلك أشبه أستاذه البنا حينما دلس على نفسه وعلى غيره وأنشأ التنظيم السري الخاص؛ للتسريع في تحقيق طموحه في الرياسة والزعامة، ثم توغل التنظيم في العنف والقتل، فلم يستطع البنا أن يسيطر على جموحه.

أخذ سيد قطب يبحثُ عن الرُّواد الذين سيعلمهم هذا الفكر ويصف لهم العالم بالجاهلية التي هي أشد من الجاهلية الأولى التي كانت قبل بعثة سيدنا النبي ﷺ، فوجد مِن حوله من يؤيده محمد يوسف هواش، وكانت الأفكار واحدة بين سيد وهواش في أن هذا المجتمع لابد أن يتعلم عقيدته أوَّلًا، ثم علي عشماوي وحسان حتحوت وغيرهم، وكان منهم أيضًا مصطفى كامل وعبد الكريم الصفتي وعبد الرحمن بارود وسيد عيد ويوسف كمال، وهؤلاء سمعوا من سيد قطب وآمنوا بأفكاره في كل ما يقوله عن بُعد المجتمعات الإسلامية عن العقيدة الصحيحة، وبدأت هذه المجموعات في الازدياد داخل السجن وأُعِدَّ لهم برنامجًا ثقافيًّا يشمل كل ما يدعو إليه سيد قطب(1).

وعلي عشماوي هو الذي اعترف على التَّنظيم وكتب عن ذلك في مذكراته، وقص على الناس كل التفاصيل والحقائق، ولكن الإخوان رموه بالخيانة واتهموه بتشويه صورة الإسلام، وكأن الإسلام هو جماعتهم لا غير، تحدث علي عشماوي عن التَّنظيم السريَّ، وأوضح طريقة الإخوان المسلمين في السعي إلى السلطة واستحلال قتل الناس في سبيل الوصول إلى الحكم.

(1) انظر: لماذا أعدموني (ص34- 35).

اتَّسع التنظيم وحاول سيد قطب في الفترة من سنة 1962م إلى سنة 1964م أن يكوِّن مجموعة من مائة شخص يسخرهم للدفاع عن التنظيم، والاستعداد للشهادة من أجله، وأخذ في تعليمهم العقيدة الفاسدة التي بنى عليها تنظيمه، واتسع التنظيم وحينما شعر قطب بالخطر عليه أوصى لمحمد هواش من بعده بقيادة التنظيم . أخبر بذلك علي عشماوي حيث يقول: «وأخبرنا الأستاذ سيد قطب أكثر من مرة أن يكون الأستاذ محمد هواش هو الشخص التالي بعده»[1].

ونلفت نظر القارئ إلى أن محمد يوسف هواش كان ذا شخصية قوية، ويبدو أنه أثر في سيد قطب كثيرا، حتى إن زوجته السيدة فاطمة عبد الهادي لتخبر عنه أنه صاحب الفكر الذي أخذ سيد قطب يردده، تقول: «ومثلما تأثر بسيد قطب فقد تأثَّر سيد قطب به، وقد أخبرتني الأخت حميدة قطب أنَّ الكثير من أفكار محمد يوسف هواش قد تسللت إلى عقل سيد قطب وقلبه، ونقلت عن أخيها الشهيد سيد قطب أنه تأثر بيوسف هواش كثيرًا خاصة فيما في كتبه في كتابه الشهير: معالم في الطريق، وهو ما كان سببًا في إعدامه مع الأستاذ سيد قطب..رغم أنه لم يكن له حضور مؤثر في تنظيم 1965».

وتقول أيضًا: «ويجزم الأستاذ أحمد عبد المجيد والذي كان معتقلًا معهما أن الشهيد سيد قطب استفاد من الشهيد محمد هواش في خطه الحركي وفي الإلمام بسيرة أحوال جماعة الإخوان المسلمين والدروس المستفادة منها، حيث كانت فترة ملازمة الشهيد سيد للإخوان قبل عام 1954 قصيرة...ويروي الأستاذ أحمد عبد المجيد أن زوجي الشهيد هواش قال له ذات مرة وهم في طوابير السجن الحربي: إن كل باب وكل عبارة في كتب الأستاذ سيد أعرفُ متى كتبت وأعرف مناسبتها ومناقشاتها حتى وصلتْ

(1) انظر: التَّاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين= مذكرات علي عشماوي (ص 205).

بصورتها التي ظهرت بها»[1].

ولم يكن أحدٌ من الإخوان القدامى يعرف تشكيل هذا التنظيم ولا حتى المرشد العام وقتها وهو حسن الهضيبي لم يكن على علم بهذا الأمر، وعندما علم الإخوان بهذا الأمر اعترضوا على سيد قطب ووجهوا إليه نقدهم وأصبحت هناك صورة مشوهة عن سيد قطب في الجماعة، وفي هذا يقول سيد قطب نفسه: «وفي مقدمة الذين عارضوا بشدة وأقاموا ضجة: أمين صدقي وعبد الرحمن البنان-لطفي سليم- عبد العزيز جلال». ثم يقول: «وقد حضر من عندهم للعلاج في طره الأخ عبد الرءوف أبو الوفا فأبلغني خبر هذا الانزعاج من ناحية واتجاه المجموعة في الواحة إلى عدم تكفير الناس من ناحية أخرى! وقد قلت له: إننا لم نكفر الناس وهذا نقل مشوه إنما نحن نقول: إنهم صاروا من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة، وعدم تصور مدلولها الصحيح، والبعد عن الحياة الإسلامية، إلى حال تشبه حال المجتمعات في الجاهلية، وإنه من أجل هذا لا تكون نقطة البدء في الحركة هي قضية إقامة النظام الإسلامي، ولكن تكون إعادة زرع العقيدة والتربية الأخلاقية الإسلامية.. فالمسألة تتعلق بمنهج الحركة الإسلامية أكثر مما تتعلق بالحكم على الناس». وهنا نرى هذا الفكر الهش الذي ينتهجه سيد قطب ودعواه في تكوين هذا التنظيم. إلى أن يقول: «ولما عاد أبلغهم الصُّورة الصحيحة، بقدر ما فهم منها، ولكن ظلَّ الآخرون في القناطر يلحون عليهم بوجوب وقف ما أسموه بالفتنة في صفوف الجماعة»[2].

فقد اعترف الإخوان القدامى أن ما أحدثه سيد قطب عبارة عن فتنة قائمة، وهي بالفِعل كانت كذلك لكنه كان لا يرى إلا نفسه، وهذا هو شأنه دائما وشأن جماعته، ومن نتج عنهم بعد ذلك، والغريب أن الإخوان اعتبروا خروج سيد قطب عليهم

(1) رحلتي مع الأخوات المسلمات من الإمام حسن البنا إلى سجون عبد الناصر (ص 51، 52) تأليف: فاطمة عبد الهادي- دار الشروق- القاهرة- الطبعة الأولى- 2011م.

(2) لماذا أعدموني (ص 37- 38).

وتكوين جماعة داخل الجماعة معصية وكفرانا، ولم ينظروا إلى أنفسهم وهم أيضا جماعة ضلعت في سواد الأمة بالفتنة والخروج.

وقد انضم إلى سيد قطب أيضًا عبد الفتاح إسماعيل وزينب الغزالي وزوجها، وكان الاتصال عن طريق حميدة قطب التي أوصت زينب بقراءة كتاب «معالم في الطريق» الذي كان دستورا لذلك التنظيم يشرح فيه عقيدة التكفير ولزوم المواجهة والخروج، وتذكر زينب الغزالي كلمة للمرشد العام في سيد قطب وهي أنَّه الأمل المرتجى للدعوة، وعبَّرت أن أفكارها غير مختلفة مع سيد قطب(1). وكلمة المرشد العام هذه تعبر عن اضطراب يعلوه اضطراب، فتلك الجماعة تقول الشيء وضده، وتجمع بين النقيضين فيما تقول وفيما تفعل، سيد قطب هو الأمل وفي نفس الوقت هو مشوه لدعوة الإخوان وخارج عن إطارها؟!!

لقد تأثرت زينب الغزالي بأفكار سيد قطب أوضحت ذلك من خلال رؤيتها للمجتمع أنه لا يُحكم بما أنزل الله، وأنه لا بدَّ من غرس العقيدة والتوحيد في النفوس، وأنه لا يوجد تطبيق لما كانت عليه خلافة الراشدين في أي دولة من دول الإسلام، بل إنها كانت ترى أنها على قائمة الاغتيالات هي وعبد الفتاح إسماعيل واتهمت في ذلك المخابرات الأمريكية، وأن أمريكا حرَّضت حكومة الرئيس الأسبق عبد الناصر على اغتيالهم، وهذا إن دل فإنما يدل على هشاشة الفكر وسذاجة التفكير.

وحينما سئلت زينب الغزالي عن سيد قطب في حديث لها في مجلة المجتمع الناطقة باسم الإخوان المسلمين في الكويت أنكرت أن قطب يكفِّر المجتمع أو شيئا من ذلك.

وذلك لأنها كانت في المجتمع سيدة مقدمة يحضر لها مجموعة من النسوة، فكيف تنسب نفسها أو أستاذها إلى التكفير، فيرغب عنها بعض من يحضر دروسها ؟

وقد حكى أحداث تكوين القطبيين الأستاذ المرحوم فريد عبد الخالق، وقال:

(1) انظر: أيام من حياتي (ص 43- 44) زينب الغزالي- دار التوزيع الإسلامية- الطبعة الأولى- 1999م.

«وثبت في التحقيقات الموسعة التي أجرتها أجهزة التحقيق المختلفة أن الجماعة وعلى رأسها المرشد غير مسئولة عن هذا التنظيم وأنها غير موافقة عليه وأنها بذلت قصارى جهدها في وقف نشاطه»[1].

فقد أراد الإخوان أن يتبرؤوا من سيد قطب وتنظيمه بعدما شعروا بتوجهه نحو استخدام العنف والإرهاب حتى يحموا أنفسهم ، فإن قطب اتصل بأفراد التنظيم عقب خروجه من السجن، وبدأ يتولى تنظيمهم بنفسه، والمرشد العام للإخوان يغفل أو يتغافل عن هذا النشاط، وحينما وقعت البلية أنكر معرفته بهم أو صلته بتنظيمهم أو إذنه لهم به، وأبدى مخالفته لسياسة الجماعة.

***

(1) انظر: الإخوان المسلمون في ميزان الحق (ص 113- 115) فريد عبد الخالق- دار الصحوة- القاهرة- الطبعة الأولى- 1987م.

المطلب الثاني

التفكير في إزالة الدَّولة

هذه الفكرة من أهم الأفكار التي ابتُلِيَ بها القطبيُّون، فتفكيرهم دائمًا يتحدث عن إزالة وهدم المجتمعات والدول الإسلامية القائمة بالفعل، حتى يؤسسوا دولا إسلامية حسب هواهم وأمزجتهم، وهم ينطلقون في هذه الفكرة من تقصير المجتمعات والدول في المحافظة على الدين وأطر الناس على التمسك به.

والتفكير في إزالة الدولة ذكره قطب في مذكِّرته: «لماذا أعدموني» التي تبيِّن كيفية شرائه السلاح وغير ذلك من أمور بينت سعيَه بالفِعل لهدم كيان الدولة.

يقول سيد قطب: «خرجت من السجن وفي تصوري صورة خاصة محددة لما يجب أن تكون عليه أي حركة إسلامية في الظروف العالميَّة والمحلية الحاضرة». فالصورة الذهنية تشكلت في السجن وفيه تخصصت وتحددت، وخرج سيد قطب يسعى لتنفيذها على أرض الواقع.

ثم يقول: «ولكني ألخص ما هنالك قبل البدء في التَّفصيلات: المجتمعات البشرية بجملتها قد بَعُدتْ عن فهم وإدراك معنى الإسلام لذاته...ولن تَبعُدَ فقط عن الأخلاق الإسلامية والنظام الإسلامي والشَّريعة الإسلاميَّة وإذن فأية حركة إسلامية يجب أن تبدأ من إعادة تفهيم الناس معنى الإسلام».

إذن فالناس جميعا بزعم قطب لا يفهمون معنى الإسلام الحقيقي الذي أدركه هو بنبوغه وقوة قريحته، الناس يفهمون شيئًا آخر ، دينا آخر غير الدين الموازي الذي سيخترعه، فهم كفار بدينه الموازي.

ثم يستمرُّ فيقول: «وإذن فأية حركة إسلامية يجب أن تبدأ من إعادة تفهيم الناس معنى الإسلام ومدلول العقيدة وهو أن تكون العبودية لله وحده سواء في الاعتقاد بألوهيتِه وحده أو تقدير الشعائر التعبدية له وحدَه أو الخضوع والتحاكم إلى نظامه

وشريعته وحدها».

في البداية ننظر إلى الناس على أنهم جهال بالعقيدة الإسلامية والدين الإسلامي حسب كلام سيد قطب، ثم يتوجب علينا شرح الدين الموازي لهم واستقطابهم إليه.

فمن يستجيب لدعوة قطب ماذا سيفعل به؟ يقول: «الذين يَستجيبونَ لهذا الفهم يؤخذُ في تربيتهم على الأخلاق الإسلاميَّة وفي توعيتهم بدراسة الحركة الإسلامية وتاريخِها وخط سير الإسلام في التعامل مع كل المعسكرات والمجتمعات البشرية والعقبات الَّتي كانت في طريقِه والتي لا تزال تتزايدُ بشدَّة وبخاصة من المعسكرات الصُّهيونية والصَّليبية الاستعماريَّة».

إذن وتبعا لكلامه يترتب الأمر هكذا:

1 - تربية الكوادر وإعدادها بالفكر الذي يعقبه مرحلة الولاء للتنظيم، وهي المراحل المتبعة في تكوين جماعة الإخوان المسلمين وكل جماعة جديدة، والتطرف دائما يبدأ من ترسيخ التمايز في الوجدان والتربية على التعالى على بقية عناصر المجتمع.

2 – نقل الولاء للجماعة بالحق والباطل، ثم التماهي في المرشد ونصرته بالحق والباطل أيضا، وتتوالى الانحرافات والشذوذ حتى الاقتتال والانقسام وانقسام الانقسام والاحتراب والتوحش وجنون التوحش....

3 – فهم الدين الموازي جيدا . يقول: «ولا يجوزُ البدء بأي تنظيم إلا بعد وُصول الأفراد إلى درجة عالية من فهم العقيدة ومن الأخذ بالخلق الإسلامي بالسلوك والتعامل ومن الوعي الذي تقدم ذكره».

4 – إقامة النظام الإسلامي بزعمه ، يقول: « المطالبة بإقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية وليست هي نقطة البدء، ولكن نقطة البدء هي نقل المجتمعاتِ ذاتها حكَّامًا ومحكومين عن الطريق السالف إلى المفهومات الإسلامية الصحيحة وتكوين قاعدة إن لم تشمل المجتمع كله فعَلى الأقل تشمل عناصر

وقطاعاتٍ تملك التأثير والتوجيه في اتجاه المجتمع كله إلى الرغبة والعمل على إقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشَّريعة الإسلامية».

ما هذا الغرور والتعالى على الأمة، إنه ليس مربيا في الأمة، وليس معلما لجهالها، إنه يرى نفسه ملهما للجميع، إنه يرى في نفسه مخلصا نبيا وإلها إن لزم الأمر، سينقل المسلمين من دين آبائهم الذي لا يرضاه إلى دين جديد يرضاه لهم، والكارثة أنك تجد شابا انتقل من حياة اللهو والفسق والفجور إلى الهدى والصلاح منذ شهرين أو سنة، فتلقاه بوجه طلق مسرورا لتركه الضلالة واستقامة حاله، فتجده يحدثك عن هداية الناس وهدايتك أنت نفسك، وطريق الرشاد وجاهلية العالم من حوله وفجورهم، وأنه سيتجه لطريق الدعوة إلى الله، إنها الكارثة، بدلا من أن يساعد نفسه ويأخذ بيدها ويثبتها على الطريق، ويفكر في تحصيل العلم النافع، ويطلب العفو والغفران عن كبائر ارتكبها، يرى في نفسه بين عشية وضحاها مسيحا مخلصا للبشرية من ضلالها وفسقها، وما هو إلا منتقما لنفسه ومن نفسه السابقة لا يرغب في رؤيتها أو استحضارها، فيرغب في تدمير كل ما سلك بها ما سلكت، ولا يعرف أن خيبته وسوء نفسه هو من فعل به ذلك لا غير.

ويتلو ذلك فيقول: «وبالتَّالي لا يكونُ الوُصولُ إلى إقامةِ الشريعة الإسلاميَّة عن طريق انقلاب في الحكم يجيء من أعلى ولكن بطريق تغيير في تصوراتِ المجتمع كله أو مجموعات كافية لتوجيه المجتمع كله، وفي الوقت ذاته تجبُ حماية هذه الحركة وهي سائرة في خُطواتها بحيث إذا اعتدِيَ عليها وعلى أصحابها يرد الاعتداء وما دامت هي لا تريد أن تعتدي ولا أن تستخدم القوة في فرض النظام الذي تؤمن بضرورة قيامه على الأساس المتقدم والذي لا يتحقق إسلام الناس إلا بقيامه حسب ما يقرِّره الله ما دامت لا تريد أن تعتدي ولا أن تفرض نظامَ الله بالقوة من أعلى فيجب أن تترك تؤدي واجبها وأن لا يُعتدَى عليْهَا وعلى أهلها فإذا وقع الاعتداء كان الرد عليها من جانبها».

فلسان حالهم يقول: نعم من يقف في طريقنا نسحقه يجب علينا. نحن القطبيين. أن نصل إلى الحكم حتى نقيم الشريعة الإسلامية. التي هي قائمة بالفعل. والقوة لازمة لفرض سلطان الله في أرضه وقهر الناس على شريعته، وتولية الصالحين منا على عباده.....

ويقول سيد قطب: «علي عشماوي زارني على غير ميعاد وأخبرني أنه كان من حوالي سنتين قبل التقائنا قد طلب من أخ في دولة عربية قِطعًا من الأسلحة حددها له في كشف والآن جاءه خبر منه أن هذه الأسلحة سترسل وهي كميات كبيرة حوالي عربية نقل وأنها سترسل عن طريق السودان مع توقُّع وصولها في خلال شهرين، وكان هذا قبل الاعتقال بمدة ولم يكن في الجو ما ينذر بخطر قريب، ولما كان الخبر مفاجئًا فلم يكن ممكنًا البت في شأنه حتى نبحثه مع الباقين، فاتَّفقنا على موعد لبحثه معًا، وفي اليوم التالي على ما أتذكر وقبل الموعد جاءني الشيخ عبد الفتاح إسماعيل وحدثني في هذا الأمر وفهمت أنه عَرِفَه من علي وكان يبدو غير موافق عليه ومتخوفًا منه، وقال لابد من تأجيل البتِّ في الموضوع حتى يحضر صبري، وقلت له إننا سنجتمع لبحثه وفي الموعد الأول على ما أتذكر لم يحضر صبري».

هذه دائرة الخروج والبغي التي حذرنا منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلك الدائرة تدور في تاريخنا منذ عهد الخوارج الأول الذين قتلوا خليفة المسلمين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تظهر الخوارج في تاريخنا بأسماء مختلفة وصور مختلفة، ولكن سماتهم واحدة وسلوكياتهم ومشاربهم واحدة، والإخوان والقطبيون هم الحلقة قبل الأخيرة من تلك الدائرة، التي استلمها الدواعش وتنظيم الدولة من بعدهم وعلى أيديهم.

ثم بعد صفحات يقول: "**وكان أمامنا المبدأ الذي يقرره الله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ**". لاحظ أن الاعتداء وقع عليه سنة 1954و

1957 وهو يقول هذا الكلام سنة 1964، 1966م. ثم يقول: «حتى وصل للأخ علي رد مضمونه الباقي في ذاكرتي: أن هذه الأسلحة بأموالٍ إخوانية من خاصة مالهم».

ما تتبينه من كلام سيد قطب أنهم فاشلون حتى في الإجرام، فاشلون وحمقى، وليس لهم رؤية ولا هدف ولا تخطيط ولا تنظيم ولا معرفة ولا علم بفنون السياسة والعسكرية، إنما هم يضربون ضرب عشواء، حتى يتحول التخريب عندهم غاية في ذاته والتوحش هدفا في عينه، يُرْضِي غرورهم ويحقق لهم النزق النفسي، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم يقول: «وأنهم دفعوا فيها ما هم في حاجة إليه للحياة تلبية للرغبة التي سبق إبداؤها، وهم يفكِّرون في طريق ليبيا».

وهذا الكلام يعني أنهم سينقلون الأسلحة من السودان إلى ليبيا، فهذا كلام مفكك يدل على أنه لا يصلح للقيادة الفكرية ولا الحركية، فقد كان رافضا للفكرة برمتها كما يقول وتخوف هو وعبد الفتاح إسماعيل من هذه الحيلة وكان يرى الإنفاق على الصِّناعة المحليَّة للمتفجرات».

فقد كان ينوي أخذ الأموال التي خصصت للإنفاق على العائلات والأسر المتضررة وصرفها في تصنيع المتفجرات لتدمير البلاد هو وعصبة من ثلاثين شخصا من الإخوان شذوا عن الجماعة.

وخلاصة ما سبق : أن سيد قطب حينما رغب أن يكتب مذكرة يدافع فيها عن نفسه فيما هو منسوب إليه من جرائم واتهامات، لم نره إلا ثبتها على نفسه، ودلنا على كثير من العوار في شخصيته وفكره ، فرأينا سذاجة وحمقا، ورأينا ضعفا واهتزازا، فاستغربنا كيف ارتضت أجيال من الشباب بذلك الشخص قائدا لها وملهما ومربيا، إن سيد قطب يعترف على نفسه بالجرائم المنسوبة إليه وأكثر منها، فهو يحكي تاريخا وتفاصيلا من التنظيم والترتيب للتخريب، وكأنه يقول: أنا أعلم أني ارتكبت جريمة، ولكني بريء لم

أكن أقصد السوء، إنما فكرت في إصلاح الأمور، فهلا تركتموني فإن الأمور بمقاصدها.

ولا يعلم أن المقاصد لا عبرة لها حينما تقع الجرائم وحينما تخرج الكلمات المحرضة والدافعة للفتنة والاقتتال، إذا تمكن سيد ومن معه من استخدام السلاح الذي كانوا يشترونه، هل كانوا سيلعبون به ويصطادون العصافير، أم كانوا سيوجهونه ضد الدولة وأفرادها.

وأما مسألة الحكم على سيد قطب بالإعدام، فإنها جعلت منه شهيدا ومناضلا، وصار رمزا يتاجر به الإخوان المسلمون، ويروجون بين الناس ظلم الحاكم وطغيانه، فهذه هي الصورة التي يُطْلِعُون عليها الناس، ولذلك كان رأي بعض المحيطين بعبد الناصر حينها الإعراض عن فكرة إعدامه، مثل زوجته السيدة تحية وشمس بدران أيضا أقنع عبد الناصر بهذا الأمر، ولكن وقت التنفيذ سأل عبد الناصر المحققين: لو تم مراد هذا الرجل لمات كثير من الفلاحين والشعب. فقالوا: نعم. فقال: يعدم.

فلربما يكون أخطأ سياسيا عبد الناصر بتهييج الرأي العام الداخلي واكتساب عداوة بعض الحكام العرب الذين طالبوه بعدم إعدام سيد قطب كالملك فيصل وعبد الكريم قاسم وغيرهم، ولكن دفعه لذلك حجم الدمار والدماء التي كانت تسيل لو تحقق لهذه الجماعة مرادها وصح تدبيرها.[1].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من علم الأمة سياستها الشرعية في كثير من الأحيان يُشِيرُ عليه أصحابُه بقتل المنافقين أو بعض من يعتدي عليه، فكان يؤثر العفو والصفح، وكان يحافظ على صورة الدولة وصورة الحاكم، يقول: "**لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**".[2]

(1) سيد قطب وثورة يوليو (ص 134).

2 - صحيح البخاري:ج4/ص1863 ح4624.

فإن الأعراب لا تعرف شيئا، ولكن الذي كان سيروج بينها أن محمدا قتل فلانا من أصحابه، فيكون ذلك صادا لها عن الدخول في طاعة المدينة، والدخول في دين الله أفواجا.

وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب في إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم بإدخال الحجر حجر إسماعيل في بنائها، ولكنه أجاب أم المؤمنين عائشة حينما سألته عَنِ الحِجْرِ: أَمِنَ الْبَيْتِ هُوَ؟ قَالَ: **"نَعَمْ"**. قُلْتُ: فَمَا لَهُمْ لَمْ يُدْخِلُوهُ فِي الْبَيْتِ؟ قَالَ: **"إِنَّ قَوْمَكِ قَصَّرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ"**. قُلْتُ: فَمَا شَأْنُ بَابِهَا مُرْتَفِعًا قَالَ: **"فَعَلَ ذَلِكِ قَوْمُكِ لِيُدْخِلُوا مَنْ شَاءُوا وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاءُوا، وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِالْجَاهِلِيَّةِ فَأَخَافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ أَنْ أُدْخِلَ الْحِجْرَ فِي الْبَيْتِ وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالأَرْضِ"**. (1)

كان يحرص سيدنا رسول الله على أصحابه وعلى بقية الأعراب الذين يعظمون الكعبة، يخشى أن يفتنوا أو يقولوا: محمد غير في الكعبة وأدخل فيها. على الرغم من أن هذا شأن ديني عظيم، إلا أن الإنسان مقدم على البنيان، فحافظ عليه سيدنا.

وصدق الإمام البوصيري إذ قال في مدحه:.

لَمْ يَمْتَحِنَّا بِمَا تَعْيَا الْعُقُولُ بِهِ حِرْصًا عَلَيْنَا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِمِ

ونحن ندعو إلى مقاومة الفكر بالفكر أولا، ومحاولة تقليصه واحتوائه والسيطرة عليه، فإنه لا مناص من ذلك، ولا يشاع عن الدولة أنها تناصب أصحاب الفكر العداء، أو تعطي فرصة لمن يتاجر بالدين أن يتهم الدولة بمحاربة العلماء أو المفكرين أو ذوي التوجه الديني.

***

1 - صحيح البخاري:ج2/ص574 ح1509.

المبحث الثاني

نِتاج فِكر سيد قطب وتتالي الأجيال

تركنا رسول الله على المحجَّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، والمحجَّة البيضاء تأبى فكرة الجماعات وترى أنها تشتت ولا تجمع وتقدح في وحدة الأمة؛ ولذلك كل آيات القرآن الكريم وكل الأحاديث النبوية المتكاثرة تدعونا إلى عدم التفرق، وإحداث الجماعات هو ما أحدثه الإخوان المسلمون في تجربتهم المصرية التي ملؤوها بالقتل والتدمير.

لقد تمكَّنَ فكر التفكير بما لا يدع مجالًا للشك في عقولِ وقلوبِ كثيرٍ من أبناء هذه الأمة، نعم هذا ما حدث وهو نتاج فكر سيد قطب، أو ما نسميه نحن بـ«تتالي الأجيال»، فكل جيل يأتي أسوأ وأضل سبيلًا من الجيل الذي قبله، وقد حدث حتى في ظهور الخوارج، فالخوارج عندما بدءُوا بدءوا بتأويل قريبٍ استطاع حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما أن يُرجع كثيرًا منهم عما هُمْ عليه، لكن بعد ذلك تغالوا جدًّا في التكفيرِ إلى أن كفروا أنفسهم واتَّخذوا الكذب دينًا، فكلُّ جيل يأتي يَزِيدُ الأمر ضلالةً وانحرافًا عن الأصل.

تأثَّر بسيد قطب في البداية مجموعة من الأشخاص أشار لبعضهم في كتابه لماذا أعدموني كان من ضمنهم مصطفى كامل، وسيد عيد ويوسف كمال، وكان منهم بعد ذلك عبد الرحمن بارود شاعر الإخوان، وأيضًا محمد هوَّاش الذي أُعدم مع سيد قطب وكذلك زينب الغزالي، فهؤلاء هم الجيل الأول، وكانوا مما يميزهم القلقُ تجاه أفكار سيد قطب وعدم الثبات فيها، فهم لا يفقهون ما يقول سيد قطب؛ لأنه يقول كلامًا يلزم منه التكفير ثم هو ينكر التَّكفير، ثم إنه يبني على ذلك أفعالا تقتضي التكفير، والتي من ضمنها عدم ذهابه لصلاة الجمعة ولا صلاة الجماعة ولا يصلِّي خلف أحد، وهذا من التِّيه والحَيْرة التي كان فيها، فهو كان يكفر المجتمع لكنه لا يكفر الناس، ثم

جاءت بعده الأجيال المتتالية والتي كانت أكثر وضوحًا في قضية الحكم على المجتمع بالتكفير، أمَّا عن الجيل الثاني الذي تأثَّر بأفكار سيد قطب فسنسردُ في السطور التالية الحديث عن أهم الأجيال التي تلت القطبيينَ:

- سيد قطب بانحرافاته الفكرية وهشاشة عقليته ونفسيته أصبح هو العمدة لدى كثيرينَ، فقد تولَّدتْ من أفكاره جماعات أخرى، كان من أهمِّهم جماعة السروريين أتباع محمد بن سرور السوري الذي ولد سنة 1938م وانضم إلى الإخوان المسلمين سنة 1953م، وقد تأثر بفكر سيد قطب الصدامي مع الدولة والذي هو من أولويات فكر الإخوان، إلا أن محمد بن سرور كان يرى أن الإخوان المسلمين مقصرون في جانب الجهاد وأنهم مهملون لجانب العقائد في الدين، وانتقل محمد بن سرور بين العديد من الدول كون من خلال هذه التنقلات مجموعة من الناس سمُّوا بعد ذلك بالسروريِّين وكان أغلبهم من جماعة الإخوان المسلمين الذين كانوا يقطنون تلك البلاد التي كان يسافر إليها، وكانت جماعة السرورية ترى كفرَ الحاكم الذي لا يحكم بما أنزل الله كما يفهمون، ويرون جواز الخروج على الحاكم فكانت أفكارهم متأثرة بالفكر القطبي الذي رسَّخَ له سيد قطب[1].

- أيضًا نشأ نتيجة لفكر سيد قطب جماعة التكفير والهجرة التي قادها شكري مصطفى، وكانت نفسيته مضطربة بسبب تربيته في أسرة مفككة، كان أبوه عمدة في إحدى قرى الصعيد، وقد انفصل عن أمه وتزوج براقصة من مدينة أبي قرقاص بمحافظة المنيا، وقد سبَّبَ له هذا الأمر صدمة اجتماعية خطيرة، فانتقل شكري إلى العيشِ مع زوج أمه الذي كان يعامله بقسوة شديدة.

لم يكمل شكري مصطفى دراستَه في كليَّة الزراعة، بسبب تعرفه في السنة الثالثة

(1) انظر: السراب (ص 425- 460) تأليف: جمال سند السويدي- الإمارات العربية المتحدة- الطبعة الأولى- 2015م.

بالكلية على محمود منيب من جماعة الإخوان المسلمين، وكانت صدمة له حينما زج بهما في السجن الحربي، وجهت لهما تهما فلم يعترفا بها أثناء التحقيقات، ومات صديقه محمود منيب حينما أرادوا استنطاقه بالاعتراف، بالضرب والتعذيب، فاختلت نفسية شكري مصطفى وأثر فيه هذا الأمر كثيرا، فوجد هواه في فكرة تكفير المجتمع والدولة والناس أجمعين، ونوجه اللوم ونحمل المسئولية لقادة الجماعة المتطرفة الإخوان المسلمون الذين دمروا حياة أولئك الشباب، أحدهم مات والثاني انحرف فكريا ونفسيا، فلو أنهم لم يحدثوا تلك الفتنة ولا ذاك الصدام مع الدولة المصرية لما حدث كل ذلك.

لقد كان شكري مصطفى يبحث في الكتاب والسنة عن شيء يستطيع به أن يكفِّر العالم، فوقعت عينه على قول الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: 254]. فاستنتج من ذلك أن كل شخص ظالم يعد كافرًا، وليست الآية هكذا فعطاء بن دينار كان يقول: «الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون، ولو نزل هكذا لكان قد حكم على كل ظالم- وهو من يضع الشيء في غير موضعه- بالكفر، فلم يكن ليخلص من الكفر كل عاص إلا من عصمه الله من العصيان»(1).

ثم إنَّه اصطدم مع قوله تعالى عن سيدنا يونس: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: 87]. فاضطرَّ شكري مصطفى إلى القول بأن سيدنا يونس كفرَ ثم أسلم، وبدأت بذور فكرة أنَّ هناك نوعًا من التكفير يكفر به الأنبياء وتكفير لا يكفرهم، وكانت هناك مجموعة قبض عليهم في الثمانينات يطلق عليهم اسم جماعات تكفير التكفير وجماعات سوبر تكفير أي التي تكفر الجماعات التي أقل منها درجات في

(1) البحر المحيط في التفسير (2/606) تأليف: محمد بن يوسف، أبو حيان الأندلسي- تحقيق: صدقي محمد جميل- دار الفكر- بيروت- 1420هـ .

التكفير، وهذا هو عين الضَّلال.

لم يكن شكري على دراية باللغة وقواعدها، وكان ضعيفًا جدًّا في الفقه ولم يكن لديه اطِّلاع على الأصول، وليس عنده الوقت لهذه الأمور فقد كان يصل الليل بالنهار في الكلام مع عوام الناس حتى أصبح معه نحو ثلاثمائة شخص لا يزيدون على هذا العدد، الأمر الذي جعله يُغيِّر آراءه وكان من حوله في السجن ينقصُون مع الأيام نتيجة تغير تلك الأفكار وقراءتهم في الكتب التي جعلت عندهم الإفاقة من هذا الفكر، إلا أن شكري مصطفى لم يستفق هو وثلاثة أو أربعة، وعندما خرجوا من السجن صنعوا ما يسمى في البداية بالتوقف، وهو التوقف في الحكم على المجتمع الجاهلي حتى يتبيَّنَ إسلامُهم من كفرهِم، ثم بعد ذلك أصبحوا التكفير والهجرة.

وكان فِكرُ شكري مصطفى يدور حول أن قضيته دعوة الناس إلى الإسلام، فإذا وافق الناس أصبحوا مسلمين، وجعل نفسه شرطًا في إسلام الناس، واعتبر نفسه مجتهدًا ومَن حوله مجتهدون مثل الأئمة الكبار كأبي حنيفة والشافعي، وهذه النقطة تفسر لنا ما يحدث من داعش؛ لأن الناس يصيبها الاستغراب مما يفعلونه من التفجير والقتل، والسبب أنهم يرون أنفسهم أهل الحق فقط دون غيرهم على وجه الأرض.

وقد ناقشتُ شكري مصطفى في أواخر سنة 1974م عندما كنتُ في الأزهر، وقلت له: أريد أن أقول لك شيئًا؟ أنا رجل شافعي عقيدة وشريعة وأخلاقًا، وعليك أن تعتبر محمد بن إدريس الشافعي أمامك لأن كل قول هو يقوله أنا أقول به في العقيدة والشريعة والأخلاق، فهل أنا مسلم أو لا؟

فقال لي: ولماذا هذا السؤال؟

قلت له: لأن هذا السؤال هو الذي بَيني وبينك؛ ولأنك تقول مَن ليس معي فهو كافر، والإمام الشافعي غائب عنك الآن وأنا أيضًا غائب عنك، فأنا لم أرك وأنت لم ترني، فلماذا إذن أصبح كافرًا والإمام الشافعي ليس كافرًا.

فقال: الإمام الشافعي اجتهد.

فقلت له: إذن فالإمام الشافعي مسلم؛ لأنه مجتهد وأنا كافر لأني لست مجتهدًا.

قال: نعم.

قلت له : إذن الاجتهاد شرط من شروط الإسلام؟

قال: بالطبع.

قلت له: إذن فأتباعك الذين هم في السيدة زينب ويجلسون ويبيعون الخضروات لا بد أن يكونوا مجتهدين.

قال: نعم

قلت له: فإذا لم يجتهدوا.

قال: يصبحون كفارًا.

قلت له: إنهم إذا اجتهدوا فلن يعرفوا شيئًا.

فقال: لا بد أن يعرفوا.

قلت له: إذا لم يقدروا على الاستيعاب.

قال: كفار.

إلى هذا الحد من السذاجة في الفكر، وكانت نتيجة هذه المناقشات التي كانت بيني وبينه أن تركه بعض من كان يتبعونه.

ولم تقدم تلك الجماعة إلا القتل، قتلوا الناس وبثوا في قلوبهم الرعب، وكان ضمن من قتلوه الشيخ حسين الذهبي سنة 1977م الذي كان وزيرًا للأوقاف، والذي قتله ماهر بكري الذي اعترف في التحقيقات بذلك وأنَّه سعيد جدًّا بقتله وأن الشيخ

الذهبي كان حلال الدم نظريًا وواقعيًا [1].

بل إن شكري مصطفى في سؤال النيابة له عن قتل الشيخ الذهبي أجاب أن الشيخ الذهبي في نظره كافر، وبرر كفره بأنه أقسم قسم الوزارة الذي يشتمل على القوانين الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية، وفي سؤال له آخر عن الشيخ الذهبي عندما قيل له: إن قتله جريمة. قال شكري: الذهبي هو المجرم حقًّا[2].

ويحكي الدكتور إبراهيم الزعفراني عن نشأة جماعة التكفير وحياة شكري مصطفى فيقول:

شكرى مصطفى من مواليد عام1942م انفصل أبوه عن أمه وهو صغير وعاش مع زوج أمه وكان رجلا قاسيا، ويحكي الشيخ على عبده إسماعيل عن نشأة الجماعة، والشيخ على عبده هو مؤسس فكر هذه الجماعة وأول أمير لها، وهو شيخ أزهرى سجن مع الإخوان المسلمين فى الستينيات، وهو أخ شقيق للشيخ عبد الفتاح إسماعيل الذي أعدم مع سيد قطب .

قال: خرجت ذات مرة أصلى فى السجن فرأيت بعض الإخوان يصلون وحدهم دون الجماعة فثارت ثائرتى لذلك وأنكرت عليهم ذلك، وجائنى كلا الطرفين لشرح الموقف، فاكتشفت أن الفريق الأعظم من الإخوان المسلمين لا يقولون بكفر الحاكم والنظام، ويعدون عامة الناس مسلمين، فى حين أن قلة منهم بسبب ما وقعوا فيه من تعذيب وتجرؤ المعذبين على دين الإسلام أثناء التعذيب، يقولون: إن الحاكم كافر وإن أعوانه كفرة وإن الناس برضاهم وسكوتهم عن الحاكم هم كفرة أيضا.

---

(1) انظر: من قتل الشيخ الذهبي «قراءة في الوثائق السريَّة لتنظيم التكفير والهجرة» مختار نوح (ص 27- 29) مركز المحروسة للنَّشر- القاهرة- الطَّبعة الأولى- 2008م.

(2) انظر: مَن قَتل الشيخ الذهبي (ص 51- 52).

فوقفت فى حيرة من أمرى حيال الرأيين، ثم ما لبثت أن خرجت برأى ثالث، اعتقدت أنه وسطا بين الرأيين، وهو أن من يدعى أنه مسلم فلا نحكم عليه بالإسلام ولا بالكفر، ولكن نتوقف فيه حتى نتبين إسلامه من كفره، ومن هنا نشأ مذهب (التوقف والتبين) .

ولقد حاورت كلا الفريقين فى السجن، وكنت مؤهلا بوصفى شيخا أزهريا أن أدافع عن آرائى، وتتلمذ على يدى كل من شكرى مصطفى وعبد الله السماوى، وكانا شابين فى العشرينات، وكان شكرى يسجل كل مناظراتى مع الخصوم ويرتبها ويستعملها فى مناظراته.

وذات يوم جلست مع نفسى أراجع نظرية (التوقف والتبيين) فوجدت أن علي أن أنشئ فقها جديدا لم يسبقنى به أحد من أهل الفقه الأولين وهو فقه المتوقف فيهم، فمثلا (هل يجوز لزوجة المتوقف فيه أن تظل على ذمته ؟ وإذا مات المتوقف فيه قبل تبين إسلامه يرثه أولاده أم لا؟ هل يدفن فى مدافن المسلمين أم ننشا مدافن تسمى مدافن المتوقف فيهم؟) وغيرها من المسائل الفقهية التى تستلزم أن أخرج على الأمة الإسلامية بفقه جديد لم يسبقنى إليه أحد من أهل السنة والجماعة، فأحسست أنى أستدرج بهذه النظرية إلى ضلالة كبرى وفتنة عظمى، وفى اليوم التالى جمعت الإخوان فى السجن ووقفت وسطهم أعلن براءتى من نظرية (التوقف والتبيين)، وما إن فعلت ذلك حتى صاح كل من شكرى مصطفى وعبد الله السماوى بأنهما سيظلان متمسكين بهذه النظرية رغم رجوعى، واتهمانى بالجبن. أهـ

وكراسات شكري مصطفى الإحدى عشرة ضمنها كل أفكار الجماعة، وكان يقوم بنسخها وحفظها أفراد جماعته دون مناقشة أو تردد، وشملت هذه الكراسات : كراسة تتكلم عن أن النطق بالشهادتين غير كاف للحكم على الإنسان بالإسلام فلا بد أن يتزامن معها قيامه بجميع الفرائض واجتنابه جميع المعاصى، وألا يصر على الصغائر،

ومن ترك واجبا أو ارتكب معصية فهو كافر . وكراسة أخرى تتكلم عن شروط استمرار الحكم على الشخص بالإسلام ومنها انضمامه للجماعة حتى تضمن أنه لن يخل بباقى الشروط، وإذا أخل كان مرتدا يقام عليه الحد ويقتل ، وأخرى تتكلم عن قرب قيام الساعة، وأن شكري مصطفى وجماعته سيقاتلون الجيش الذى سيغزو الكعبة فى آخر الزمان، وأخرى تتكلم عن العزلة والخروج إلى الجبال والصحراء، وأخرى تتكلم عن أن هذه امة أمية ويتهكم فيها على التعليم بالمدارس والجامعات؛ مما دفع أتباعه لترك الدراسة وإخراج أولادهم من المدارس، وكان يقنع أتباعه بأن الحروب القادمة سوف تكون بالسيف.

وكبرت هذه الجماعة وكان كل من ينضم إليها رجالا ونساء طلبة وطالبات يتركون أسرهم ومدارسهم أو جامعاتهم ووظائفهم وعائلاتهم، ويعمل فى الدعوة إلى هذا الفكر، وقامت مجموعة منهم بالسفر إلى الدول العربية للعمل هناك لتوفير الدعم المالى للجماعة، وكان شكرى مصطفى يقوم بنفسه بتزويج الرجال والنساء المنضمين للجماعة، وبعضهنَّ قد هربت من زوجها دون طلاق، وكانت المعيشة بين أفراد الجماعة في صورة جماعية فى المآكل والمشرب والمسكن، فكانت الشقة الواحدة تؤجر لعدد من الأسر أو الشباب ليتزوجوا فيها ويقيموا فيها، وبدأ شكرى مصطفى يكون مجلس شورى من عدد لا يزيد عن العشرة لإدارة الجماعة ويقوم بتعيين الأمراء على المحافظات ومناطق مصر المختلفة .

ثم أمَرهم بالهجرة إلى جبال الصعيد، استعدادا للهجرة إلى السعودية لمقاتلة جيش الكفار الذي سيأتى لتدمير الكعبة فى آخر الزمان، وكونوا مجتمعات مستقلة فى جبال الصعيد، وكانوا يقيمون الحدود بأنفسهم على من يرتكب كبيرة وكانوا يقومون بتصفية المنشقين عنهم جسديا.

وفى أوائل عام 1976م تم القبض على مجموعة منهم، فقررت الجماعة القيام باختطاف الشيخ محمد حسين الذهبى وزير الأوقاف كرهينة ، وطلبوا إطلاق سراح جميع أعضائها المحبوسين ودفع مبلغ 200 ألف جنيها فدية، والاعتذار للجماعه فى وسائل الإعلام، ولما ضاق الخناق عليهم أمر شكري أتباعه بقتل الشيخ الذهبي.(1)

- ثم نشأت بعد ذلك في أوائل السبعينات من القرن الماضي الجماعة الإسلامية، وهي تدعو إلى الجهاد، وذلك من أجل مقاومة الشيوعية، وانتهى الأمر بهم إلى قتل الرئيس الأسبق محمد أنور السادات، وهذه الجماعة بدأ ظهورها من سنة 1966م وهي التي أعدم فيها سيد قطب، وهي أيضًا تأثرت بفِكْرِ سيد قطب، فهم أيضًا يرددون ما كان يردده وما كان يؤمن به.

وكان من بدايات القائمين على هذه الجماعة عمر عبد الرحمن، وكان يرى نفسه من العاملين عليها الذين يحق لهم الأخذ من التبرعات الآتية للجماعة، فأفتى بعض أعضاء الجماعة بقتلِه، وعَمِلَتْ الجماعة الإسلامية على تهريبه إلى السودان، وبعد ذلك سهلت له بطريقة غريبة الهروب إلى أمريكا، وفي أمريكا جاء رجل صاحبَه ولازمه؛ لأنه ضرير، وكان هذا الشخص جاسوسًا عليه، فسجَّل له بعض الأمور التي كان عمر يريد أن يفعلها وبموجبها دخل السجن.

- وأيضًا نتيجة التأثر بالفكر القطبي ظهر تنظيم الفنية العسكرية الذي أنشأه صالح سريَّة الفلسطيني، وهو تنظيمٌ جهاديٌّ عمل فيه صالح سريَّة على تقسيم أفراده إلى مجموعاتٍ كان فيهم كامل عبد القادر وطلال الأنصاري وكارم الأناضولي، وكان هذا التنظيم أيضًا يرى كفر الأنظمة والحكومات وهي أيضًا نفس الفكرة الموجودة عند سيد قطب، كما أن هذا التنظيم كانت له علاقات جيدة بجماعة الإخوان عن طريق زينب الغزالي؛ وهو ما أوضحه صالح سرية أثناء التحقيقات معه وهو «أن زينب

(1) مقال منشور بالإنترنت عن جماعة التكفير والهجرة للدكتور إبراهيم الزعفراني.

الغزالي قد أسدت إليه فضلًا كبيرًا عند حضوره إلى مصر؛ إذ إنَّها استضافتْ عائلتَه لمدة أسبوع كامل عَقِبَ حضورهم من العراقِ...كما أنَّه يوجد تعاطف بَينهما باعتبارها أخت مسلمة وهو أخ مسلم... وأنه كان يصطحب بعض أفراد التَّنظيم الذي أنشأه إلى منزل زينب الغزالي ويعرفهم بها ليعطيهم الثِّقة في أنفسهم عند مقابلتهم لمثل هذه الشخصية»[1].

وكانت من أهم العمليات التي كلف بها هذا التنظيم هي اغتيال الرئيس الراحل أنور السادات عقب عودته من زيارة خارجية من يوغسلافيا، وكان المكلف بهذه العلمية هو حسن الهلاوي، أما العمليَّة الأخرى فهي محاولة الاستيلاء على مبنى الكلية الفنية العسكرية بمهاجمة حرس بوابة الكلية والاستيلاء على الأسلحة والسيارات، وبالفعل توجهوا إلى مبنى الكلية وأسقطوا القتلى والجرحى هنالك إلا أنه تم التعامل معهم عن طريق قوات الجيش بإطلاق النار وتفرق منهم من تفرق واختبأ من اختبأ وقبض على قيادات هذا التنظيم وعلى رأسهم صالح سريَّة وقد اعترف صالح بأنه هو الذي كوَّن ذلك التَّنظيم[2].

- وأيضًا أثَّر فكر سيد قطب في عبد الله عزَّام وهو الذي نظَّرَ لتنظيم القاعدة إبان مهاجمة الاتحاد السوفيتي لأفغانستان، وكان عبد الله عزام من أهم المنتمين إلى الإخوان في بدايته، وقد أوضحَ في كثيرٍ من مقالاته هذا التأثير عندما كتب عن سيد قطب في «عشرون عامًا على الشهادة». وقد حصل عبد الله عزام على الدكتوراه من جامعة الأزهر الشريف، وأذكر أن الشيخ السايس كان مناقشًا له فقال له: يا بُني أنا قرأت رسالتك وهي تشبه كأننا نقول لشخص اقرأ الفاتحة فقرأ سورة الناس، وقرأها قراءة

(1) انظر: «صالح سرية وأعوانه في مصر» اقتحام الكلية الفنية العسكرية سنة 1974 أول محاولة انقلابية لإقامة الدولة الإسلامية في العصر الحديث (ص 6)- تأليف: عادل أمين- الطبعة الأولى- القاهرة- 1997م.

(2) انظر: صالح سرية وأعوانه في مصر (ص 21- 47).

صحيحةً وفي الحقيقة لم أعرف فيمَ أناقشك؛ لأنك لم تكتب شيئا علميًّا أناقشك فيه. فهذا كان رأي الشيخ السايس في رسالته، لكن الرأي في إعطاء التقدير للرسالة هو رأي لجنة المناقشة.

وما فعلَه عبد الله عزام وغيره جاء نتيجة عدم التربية على يد المشايخ، فقد كانوا يقرءون من الكتب فقط ولم يأخذوا العلم عن المشايخ، وكان الشائع عن عبد الله عزام أنه تأثر بأربعة على حسب على ما كان يتردد بين جماعته: سيد قطب فكريًّا. وابن تيمية عقديًّا. وابن القيم روحيًّا. والنَّووي فقهيًّا، ولكنَّه لم يقرأ على شيخ؛ لأن منهج الإمام النووي لا يحثُّ على القتل وتكفير النَّاس وترويعهم.

- أيضًا نتج عن فكر سيد قطب وعن مؤلفاته أن ظهرت جماعة الجهاد الإسلامي وكان من المؤسسين لها إسماعيل طنطاوي من المنيل وعلوي مصطفى من مصر الجديدة ويحيى هاشم الذي كان وكيلًا للنيابة واتخذوا من فكر سيد قطب دستورًا لهم لكنهم اختلفوا فيما بينهم عندما قبض على يحيى هاشم في مظاهرة ورأوا أن أمرهم سيفضح وتفككت هذه الجماعة، وذهب كل منهم إلى طريقه فعلوي مصطفى ذهب إلى منطقة الإمام الشافعي ومكث هناك واندرج في الطرق الصوفية، وإسماعيل طنطاوي هاجر إلى هولندا، ويحيى هاشم قُتِلَ بعد ذلك في المنيا.

هذه الجماعات التي ظهرت وُجِد من ينظِّر لها ويضع لها مصنفات ومؤلفات والأطروحات التي تشكِّل فكرهم ومنهجهم، وكان من بين هؤلاء الذين يضعون مثل تلك المؤلفات شخص تعددت أسماؤه ما بين السيد إمام الشريف والدكتور فضل الذي كان أميرًا لجماعة الجهاد سابقًا واعتقل في اليمن ثمَّ رحِّل إلى مصر، صنَّف الدكتور فضل كتاب العمدة في إعداد العدة وهو مرجع هام لأبناء التيار الجهادي، وكتاب الجامع في طلب العلم الذي يزيد على ألف صفحة، وكتاب وثيقة ترشيد الجهاد، بجانب كتاب الفريضة الغائبة لمحمد عبد السلام فرج وغيرهم.

ومصنفاتهم تمثل الجهل بعلوم الشريعة أصولها وفروعها، ونحن نتعامل مع فِكر جماعات كثيرة، وعندما قرأنا كلامهم في كتبهم وجدناها عبارة عن أوهام آية من هنا وحديثا من هنا وموقفا من هنا وأمورا مجمعة لا تفيد شيئًا، ثم استخراج واستنطاق النصوص بما لم تقله وانتزاع النصوص من السياق السباق واللحاق، أدَّى فكرهم إلى ظهور داعش وفجر الإسلام والنصرة وبيت المقدس الذين يقاتلوننا، الأمر الذي يجعلنا نتأكد أنهم يحاولون تفتيت المنطقة، والعمل على ضررها؛ لأن هذا من مصالحهم.

- أما عن داعش وهم الجيل الثالث الذي ظهر بعد ذلك من نتاج فكر سيد قطب، فأكثر الأدلة التي تدل على تأثرهم بفكر سيد قطب نجده عند الرجل الثاني فيهم وهو أبو محمد العدناني وهو شاب سوري اسمه طه صبحي فلاحة بفتح الفاء واللام والحاء، كتب عنه تركي بن مبارك البنغلي كتابًا اسمه: «**اللفظ اللساني في ترجمة العدناني**» ذكر فيه أنَّ العدناني تأثر جدًّا بتفسير الظلال لسيد قطب حتى إنَّه همَّ بكتابة كتاب: في ظلال الظلال.

ونجد أيضًا التأثر بفكر سيد قطب من خلال ما ألقاه أبو بكر البغدادي زعيم ذلك التنظيم في خطبة الجمعة التي ذكر فيها: إن الإسلام لا وجود له في الأرض من قرون. وهذه الكلمة هي بعينها كلمة سيد قطب.

تغيَّر سيد قطب وأصبح مكفرًا، وقد لاحظنا ذلك في كتابه لماذا أعدموني، ورأينا النتائج التي أنتجها فكره من خلال ظهور شكري مصطفى والجماعة الإسلامية والجهادية التي كان منها بعد ذلك الناجون من النار وأنصار بيت المقدس وتنظيم داعش وغيرهم، وكل هؤلاء ظهروا نتيجة هذا الفكر، وعندما ندقق في هذا الفكر سنرى أن هؤلاء الناس لا يعرفون شيئًا من الدين ولا الدنيا[1].

---

(1) وصلت تلك الجماعات التي نتجت عن الإخوان المسلمين وفكر سيد قطب إلى مائتي جماعة، وقد رصدت السلطات الحاكمة بضعًا وتسعين جماعة، حتى إن أحد المستشرقين أخذ التقرير الذي رصدت فيه

وقد قال لي شيخي: **إذا صحت البدايات صحت النهايات، وإذا فسدت البدايات فسدت النهايات.**

وهؤلاء قوم فسدت بداياتهم ففسدت نهايتهم.

***

السلطات عددهم وصنف فيهم كتابًا عن الجماعات الإسلامية.

المبحث الثالث

ما افتقدته الجماعات المتطرفة منذ نشأتها وأوهامهم العشرة

المطلب الأول: ما افتقدته الجماعات المتطرفة.

عند التفكير فيما افتقدته تلك الجماعات والعوائق التي لديهم، وجدناها:

العائق الأول: عدم إدراك النص، وقد ورث عدمَ إدراك النَّص بعدهم الأجيالُ المتتاليةُ.

والنص هو النص المقدس الكتاب والسنة، ويدخل معه النص البشري الاجتهادي وهو عبارة عن كلام الأئمة علماء السلف كالأئمة الأربعة أصحاب المذاهب وغيرهم، وهؤلاء المتشددون لم يفهموا هذين النصيْن المقدس والبشري، ولم يفهموا أن النص المقدس تميَّز بأنه تجاوز الجهات الأربعة وهي: الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، وهذا معناه أنه صالح للتَّطبيق في كل زمان ومكان باتفاق المسلمين، أمَّا النص البشري فهو الزماني فقط؛ فالإمام الشافعي رضي الله عنه- على سبيل المثال- يصدر الأحكام على قدر عصره وما يحدث فيه ويضع لي منهجًا في التفكير الفقهي أو الاتجاه التشريعي يجعلني أفكر به، ومن هنا فلزامًا عليَّ كفقيهٍ أن آخذ تلك المناهج كي أفكر بها ومن خلالها أستنبط أحكام المستجدات التي تحدث في المجتمع الذي أعيش فيه.

إذن فالنص المقدس يتجاوز الجهات الأربعة، والنص البشري الاجتهادي يعد زمانيًّا فقط، فلا يمكن أن أجعل المقدس زمانيًّا فقط أو أن أجعل الزَّمانيَّ مطلقًا، والجماعات المتشددة بدءًا من الإخوان المسلمين فعلوا ذلك، جعلوا اجتهاد أئمتهم مطلقا، والنص زمانيا، فانتقوا من النص المقدس ما يؤيد فتوى أئمتهم واجتهادهم، وهذا هو الهوى وهو الدين الموازي.

العائق الثاني: عدم إدراك الواقع، هذا الواقع هو الذي يتركَّب من أربعة عوالم كما

حلَّله مالك بن نبي؛ عالم الأشياء، عالم الأشخاص، عالم الأحداث، عالم الأفكار[1]، وكل عالم من هذه العوالم له طريقة في إدراكه والتعامل معه.

فعالَمُ الأشياء له واقعٌ مدرَكٌ بالحسِّ المعتاد، ويبني عليه أحكامَه، ومنهجَه هو المنهج التجريبي الذي ارتضاه المسلمون، ثم انتقل إلى العالَم كله دون نكير من العقلاء الذين تحرَّروا من عقلية الخرافة وتمسَّكوا بالعلم والواقع، إلا أنَّ بعضهم قد اقتصر عليه، ولم يربطْه بالله سبحانه، فصار فكرُه عقيما غير مستنير، لأنه أنكر جزءًا من الحقيقة بل أهم ما فيها وهو الخالق المنشئ للكون.

ويمكن أن نعرِّف الواقع بأنه: ما أدركه الإنسان بحسِّه المعتاد، وهو بهذا المعنى قَدْرٌ مشترك بين آدم والرجل المعاصر، في حين أن نفس الأمر المتعلق بحقائق الأشياء يختلف إدراك الإنسان له عبر الزمان، وحسب كَمِّ المعلومات التي لديه، ويكتشفه الإنسان عن طريق الآلة- المجهر مثلًا- شيئًا فشيئًا.

فنفس الأمر أن الماء مكوَّن من ذرتين هيدروجين وذرة أكسجين، والأول مشتعل والثاني يساعد على الاشتعال، ولكن الواقع أنه سائل شراب لا حياة للكائنات بدونه، فالإنسان تتجدد إدراكاته للأشياء بها قد يخالف أو يزيد على ما يعتقده من واقع الآن، فإذا كان الأمر كذلك فإن النصوص الشرعية ينبغي أن تتعلَّق في خطابها العام للكافة بالواقع بصورة أصلية، ولا تتعلق بنفس الأمر إلا بصورة ثانويةٍ، وأظن أن هذا الفهم يحل «مشكلة العلم والدين» التي نشأت من صدام النصوص المحرفة للوحي في الغرب مع الحقائق المتتالية المدرَكة بالتجربة والحسِّ، أي: مشكلة «العلم والدين» كما سُميت.

وعالم الأشخاص قد تطوَّر أيضًا، وأصبح هناك الشخصية الطبيعيَّة، والشخصيةُ

---

(1) انظر: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي (ص 57) وما بعدها، تأليف: مالك بن نبي- ترجمة د. بسام بركة ود. أحمد شعبو- دار الفكر- سوريا- 2002م.

الاعتبارية التي لا تزال تنفصل وتستقل عن الشخصية الطبيعية، حتى كمل استقلالها وأصبحت كائنًا قائمًا بذاته، له أحكامٌ تختلف عن أحكام الشخصية الطَّبيعية؛ حيث لا يوجد فيها نَفْسٌ ناطقة تحتاج إلى شعور وحُبٍّ، ويُخشى عليها من سوء الخُلق ودناءة الطبع، وأصبح التعامل مع الشخصية الاعتباريَّة يكاد أن يكون موضوعيًّا بعيدًا عن الذاتيَّة التي أثَّرت في مسائل كثيرة في التعامل مع الشخصيَّة الطبيعية.

أمَّا الأحداث فهي تتكون من تفاعل الأشياء مع الأشخاص، وهي تحتاج إلى تحليلٍ للمضمون وإلى توقعات للمستقبل وإلى سيطرةٍ وتوجيهٍ في بعض الأحيان، وإلى حساب المآلات، وتحقيق المصالح، وترتيب الأولويات والقِيام إزاءها بواجبِ الوقتِ.

أمَّا الأفكار، فلابد من معيار للتَّقويم يقبل الصالح ويرفض الطالح، وهذا المعيار مرتبطٌ عند المسلمين بالنموذجِ المعرفيِّ الذي يتبنونَه، والذي أخذُوه من الكتاب والسنَّة وفهم الصحابة والتجربة التاريخية والعقائدية والرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة، والمبادئ القرآنيَّة والسُّنن الإلهية ومنظومة القيم، ومقاصد الشرع في الأحكام والتكليف، وكل عنصر من هذه العناصر له معانيه ومبانيه ومكانه في المعيار الذي به تقويمُ الأفكار.

كل هذه الأمور لم يدركها أصحاب الدين الموازي ولا يعرفون عنها شيئًا مما جعلهم يغيبون عن إدراك الواقع الحادث حولهم.

العائق الثالث: عدم إدراك المآلات التي تؤول إليها الأحكام.

العائق الرابع: عدم إدراك اللغة.

العائق الخامس: عدم إدراك الإجماع.

العائق السادس: عدم إدراك المقاصد الشرعية.

العائق السابع: عدم إدراك المصالح.

وهذه الأمور مجتمعة أيضا تمكنا من تنزيل النسبي موقعه من المطلق، بما يحقق المقاصد الشرعية والمصالح المرعية، ويحقق المآلات المعتبرة ويلزمنا باتباع الإجماع، في مظلة الفهم اللغوي السديد للنص المقدس.

العائق الثامن: افتقاد المنهج، وهو عبارة عن رؤية كلية ينبثق عنها إجراءات، والرؤية الكلية ينبثق عنها إجراءات هي في حقيقتها تمثل علم أصول الفقه، والذي جعلوه علما فرعيا هامشيا، وافتقاد المنهج لافتقاد التعليم الرصين ضمن منظومةٍ متكاملةِ الأطراف مِن أستاذٍ وتلميذ ومنهج وكتاب وجو علمي .

العائق التاسع: أنَّهم فقدوا السَّندَ والبركة، فلا تكاد تجد واحدًا فيهم له شيخ، بسند متصل من المشايخ الذين يصل سندهم إلى رسول الله ﷺ، من هنا تحصل البركة والعلم الذي يحمله من كل خَلَفٍ عدوله.

العائق العاشر: افتقدوا العقليَّة الفارقة. التي تفرِقُ بين الأشياء والأحداث وغير ذلك، تفرِقُ بين الدين والتدين، وبين العلم والمعلومات، وبين القضاء والحياة.

وهذه الأمور العشرة التي فقدتها جماعة الإخوان وغيرها من الجماعات التي نشأت بعدها على إثر هذا الفكر الخارجي هي أمور أنتجت لهم أوهامًا، وما افتقدوه في حقيقة الأمر يعبر عن إعاقة فكرية لدى من يتبنى هذا الفكر، أو ما يمكن أن نقول عنه إنه مَعْلَم من معالم الإعاقة الفكرية وتمكنها في النفوس، وهذا مستمد من المشرب العنيف، فهم دائمًا مشربهم عنيف تجدهم ابتداءً يكرهون الحياة ويَدْعُونَ الناس إلى كراهيتها، ويرغبون في الصدام مع الخلق ويفضلونه على الحوار والتفاهم، ويرفضون في غالب أحوالهم الرفق، أو منهج الراحمون يرحمهم الرحمن، وهذا أمر ينتج عندهم غباوة التناول في كل شئون الحياة، ويتضح في مناقشتهم العلمية بظهور ضلال التأويل، ورد السنة النبوية التي جرى العمل عليها كالأحاديث الضعيفة التي أخذ بها العلماء في فضائل الأعمال، ويظهر في رد المنطق العقلي واتباع الحكمة ، ومن مشربهم العنيف

أيضا الظاهرتية في فهم النص؛ بمعنى حمل النص على ظاهره دون التفات إلى سياقه، إلى سباقه، وإلى لحاقه، كما مر في مثال فهمهم للآية الكريمة: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 254].

والفرق بين فهمهم وفهم عطاء بن دينار من أئمة التابعين لتلك الآية، هو الفرق بين العلم والجهل والنور والظلام والعمى والبصيرة في فهم كتاب الله .

***

المطلب الثاني

أوهام الجماعات المتطرفة والرد عليها

الدين الموازي الذي تكلمنا عليه له أوهام عرفناها من خلال تجربة الإخوان المسلمين الذين خرجوا من السجون في سبعينات القرن الماضي، ونشأت تلك الأوهام عندهم وظهرت من خلال حديثهم واحتجاجهم لأفكارهم:

الوهم الأول: أن المجتمعات موالية للاستعمار، وهم يعبرون عنه بطريقة أو بأخرى كالتعاون مع الاستعمار أو العمالة لأمريكا، ويرتبون على ذلك تكفير المجتمعات لقوله : **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 51]**

الوهم الثّاني: الولاء لإسرائيل. وتعطيل فريضة الجهاد ضدها.

الوهم الثالث: العمل ضد وحدة الأمة الإسلامية والعربية، فالحكام العرب ارتضوا اتفاقية الفرقة التي وضعها لنا الاستعمار وهي سايكس بيكو سنة 1916م.

الوهم الرابع: انعدام العدالة الاجتماعية، ونهب ثروات الشعوب وخيرات البلاد.

الوهم الخامس: الحاكمية لغير الله والرضا بالقانون الوضعي بديلا لما أنزل الله من شريعة.

الوهم السادس: محاربة قيام الخلافة الإسلامية وعودتها؛ لأن فيها زعزعة لسلطان الحكام .

الوهم السابع: تعطيل فريضة الجهاد ضد أعداء الدين .

الوهم الثامن: التوحيد ثلاثة أقسام، وأي شخص يمكن خروجه أو إخراجه من الإسلام إن ترك توحيد الألوهية أو توحيد الربوبية أو توحيد الأسماء والصفات أو الحاكمية .

الوهم التاسع: النصرة والتمكين، فهم الأجدر والأحق بقيادة الشعوب وتحقيق سلطان الله في الأرض وفرض شريعته بين الناس.

الوهم العاشر: الولاء والبراء، أو ما يُسمَّى لديهم أيضًا بالتَّقليد، وهذا الولاء والبراء يقتضي الولاء للإسلام والبراء من الكفر، ويفسرون هذا الولاء والبراء على نحو أنه يجب على المسلم كراهية العالمين والإساءة إليهم، وأي مجاملة أو رفق لغير المسلم هو ولاء للكفر ذاته، وأي شدة أو تعزير للمسلم حينما يخطئ هو براءة من الإسلام وخروج منه، إلى غير ذلك من حمق وتفاهة.

وبدون هذه الأوهام يكون المجتمع جاهليا، ويحق لهم حمل السلاح ضده، ونحن هنا نحاول تفكيك هذه الأوهام :

الرد على الوهم الأول : وهو الولاء للاستعمار.

وفي سياق التحدث عن هذا المحور نجد مصطفى مشهور يحدث أتباعه عن حقيقة حكام بلادنا الإسلامية كما يتصور هو ويروج بينهم : " خططوا لإبعادها- أي بلادنا - عن جوهر الإسلام، ونشروا فيها الفساد والمنكرات؛ كالخمر والميسر والربا والفحشاء، وأسقطوا الخلافة، وأثاروا الفرقة والنزاع بين المسلمين، بل الحروب حول قضايا جزئية؛ كالخلاف على الحدود، وأقاموا نظم حكمٍ شموليٍّ متسلطٍ في معظم - إن لم يكن كل- أقطارنا الإسلامية لتنفذ مخططاتهم التي تهدف إلى إبقاء بلادنا ضعيفة متنازعة.

وأما جماعة الجهاد فهي لا تعترف بادئ ذي بدء بشرعية حكام العالم الإسلامي كله ولا بأهليتهم للحكم، وتندد بتبعيتهم الشديدة للغرب، وتصفهم بأنهم دمى نصبها الاستعمار ليحكم بها الأمة الإسلامية، وأن هذه الدمي عبيد لأسيادها في واشنطن، وباريس، ولندن، وروما، وبون، وموسكو، وهم في رأيها لا يدينون بنشأتهم إلا إلى

الغرب فحسب، بل إن استمرارهم في حد ذاته رهن بإرادة الغرب المباشرة. اهـ[1]

ويعبر محمد عبد السلام فرج في "الجهاد الفريضة الغائبة" عن ذات الفكرة، إلا أنه يحكم بشكل مباشرة على حكام بلاد المسلمين بالردة عن الدين والخروج عنه يقول: فحكام هذا العصر في ردةٍ عن الإسلام تربوا على موائد الاستعمار؛ سواء الصليبية أو الشيوعية أو الصهوينة، فهم لا يحملون من الإسلام إلا الأسماء وإن صلى وصام وادعى أنه مسلم. اهـ[2]

ويحدثنا أبو بكر ناجي في كتابه "الخونة" المنشور بالانترنت، عن صراع بين أطراف داخل دائرة الفكر المتطرف كانت تضع لها المغالطات، فهو يوجه اللوم والاستنكار لسفر الحوالي الذي طالما عمل معهم وتواصل ووضع لهم النظريات والاستراتيجيات، إلا أنه تملص منهم واستنكر بعد ذلك فيقول: سفر الحوالي بالأمس يؤلف كتباً يبين فيها أن طواغيت العرب هم شر خطر على الأمة، وهم الذين بدلوا دين الله تعالى، وهم السبب في فساد الأمة وتغييبها وكبتها.

ويأتي اليوم مع الحكومات في خندق واحد يستهدفون العدو المشترك، ألم تؤصلوا لنا سابقاً أن هذه الحكومات هي دمى بأيدي العدو؟ ألم تقولوا لنا سابقاً بأن الاستعمار المباشر زال، وفرض علينا استعماراً غير مباشر عن طريق هذه الحكومات العميلة؟ ألم تحشوا رؤوسنا من قبل بأن أخطر خطر على الأمة هذه الحكومات التي تنفذ إرادة العدو؟ ألم تقولوا لنا بأن هذه الحكومات حرب على الإسلام؟ اهـ.

ولقد تعرضت الدول الإسلامية في تاريخها لفترات زمنية عانت فيها من الضعف والوهن، فتناوشتها الأمم من الشرق والغرب، فقد هجم المغول على دول المشرق

1 – نقلا عن بحث "الغرب في رؤية الحركة الإسلامية المصرية" لإبراهيم بيومي ، منشور على موقع موسوعة الإخوان المسلمين .

2 – الفريضة الغائبة ص6.

الإسلامي وأعمل القتل والإبادة فيها، وسيطروا عليها سنوات حتى فرج الله الغمة بإسلامهم وبتصدي الجند المصري بقيادة قطز وبيبرس لهم في عين جالوت، ومن قبل ذلك تعرض العالم الإسلامي للحملات الصليبية وقد استولوا على بيت المقدس وكونوا إمارات مثل أنطاكيا والرها وبيت المقدس، حتى قيد الله لهذه الغمة الجند المصري بقيادة صلاح الدين الأيوبي فانتصر انتصارا حاسما في حطين، فانكسرت شوكة الاستعمار الغربي.

في العصر الحديث حط في بلادنا جيوش الإنكليز والفرنسيس والبرتغاليين والإسبان وتكالبت علينا أوروبا كلها، ولكن ما لبث أن قاومت الشعوب وثارت وطردت هذا الاحتلال من بلادها، قاوم المصريون الإنكليز وكذلك فعل الجزائريون مع الفرنسيين، وجاهد الهنود الاستعمار البريطاني حتى تحرروا منه، ولكن الأمة مازالت في مرحلة الاستفاقة، ما زالت تعاني من الضعف والوهن، وهذا أمر لا ننكره لأنه واقع، فيجب علينا الاعتراف به والصبر عليه ومعالجته بأسلوب ناجح، وهذا الأمر قد يستغرق وقتا من الزمان، ذلك لأن الطفرة التكنولوجية والتقنية في صناعة الأسلحة والاتصالات والأقمار الصناعية والتي سبقنا بها الغرب، تحتاج منا مزيد عمل وجهد حتى نحصل ما فاتنا في فترة الاحتلال.

وعلينا أن نستمر في العمل والمقاومة والجهاد، والتصدي لمن يقفون في سبيل نهضتنا ونجاحنا كما أمرنا تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: 190]

وأما ما يسعى فيه هؤلاء الإرهابيون المتطرفون من نشر الفوضى والعنف في بلاد الإسلام والتي صاروا يسمونها التوحش، ثم يعملون على إدراة ذلك التوحش، كل ذلك من أجل فرض سيطرتهم وسلطانهم على الشعوب الإسلامية، بدعوى تحريرها من حكم المرتدين الكافرين بزعمهم، وتطبيق شريعة الإسلام في أرضها، وكل ذلك

كذب؛ فإنهم يطلبون السلطان، يبتغون الدنيا لا غير، وهم مخربون لا ينتج عن فعلهم هذا نهضة أو عمران أو تقدم، ولن تحقق الأمة غايتها أبدا بالفوضى والتوحش.

ويدل على ما أقوله قول أبو بكر ناجي في كتابه "إدارة التوحش": إن منطقة التوحش هي منطقة تخضع لقانون الغاب بصورته البدائية بحيث يتعطش أهلها الأخيار بل وعقلاء الأشرار لمن يدير هذا التوحش، بل ويقبلون أن يدير هذا التوحش أي تنظيم أخيارا كانوا أو أشرارا، إلا أن إدارة الأشرار لهذا التوحش من الممكن أن تحول المنطقة إلى مزيد من التوحش". ويوضح الأمر كثيرا قوله: إخراج المناطق التي اتخذ القرار بالتحرك المركز فيها من سيطرة الأنظمة، ومن ثم العمل على إدارة التوحش الذي سيحدث فيها، مع ملاحظة هنا أننا قلنا إن الهدف هو إخراج هذه المناطق من سيطرة أنظمة الردة وهو الهدف الذي نعلنه، ونعقد النية عليه ، لا إحداث الفوضى.أهـ[1]

يعني أن إحداث الفوضى والتوحش وتحطيم النظام في المناطق التي يعقدون العزم على السيطرة عليها إنما هو الهدف الحقيقي الذي ربما يخفونه، ويعلنون أو يصدرون هدفا آخر وهو إخراج هذه المناطق من سلطان الحكام المرتدين، أو من حكومة الطاغوت.

وليس بعد ذلك حقارة ونفاق يظهر هؤلاء التكفيرين المتطرفين على حقيقتهم، إنهم لا يسعون أبدا لتحرير شعوب المسلمين أو حكام المسلمين من سيطرة الغربي أو الصليبي أو الصهيوني، بالعمل الجاد والعلم النافع، والإعمار في الأرض، ولكن هم في الحقيقة يجهزون على الأمة ويحققون مآرب الاستعمار، في استكمال ركوع الأمة تحت أقدامهم.

وهذه الكائنات صارت في أمتنا كالفيروس الذي ما إن يتعافى الجسد ويهم

1 - "إدارة التوحش" أبو بكر ناجي ص 32، طبع دار التمرد بسوريا 2015.

بالنهوض، يعملون على تحطيمه وإرداائه مرة أخرى، فلا يحتاج الغرب أو المستعمر أن يعمل فكره أو جهده أو ماله في تأخيرنا وإبقائنا في الذيل، حتى يستفيد من مواردنا بشكل كامل وبسعر بخس.

والذي يحسن الاستفادة والاستماع إلى ما جاء به البشير النذير المصطفى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سيعلم جيدا أنه أخبرنا بمثل ذلك يحصل في المسلمين، حيث قال: "سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةٍ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَسْتَبِيحَهُمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُلْبِسَهُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَأَبَى".

فالعدو الحقيقي للأمة هو من بيننا يتكلم بلساننا، قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: "دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» . قال حذيفة: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا . قال: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا ، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» . قال حذيفة: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ قَالَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ» . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا ، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ، وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ» .[1]

الرئيس الأسبق عبد الناصر وزملاؤه عندما صنعوا الثورة وطردوا الإنجليز هل كانوا مع الاستعمار، والحروب التي بدأت من سنة 1948م، ثم حرب 1956م، ثم حرب 1967م، ثم حرب الاستنزاف ثم حرب 1973م، هل هذا يعبر عن كوننا عملاء لإسرائيل التي وراءها الولايات المتحدة، فنحن في الحقيقة لم نقصر، هُزمنا وهَزمنا وجاهَدْنا قدر الاستطاعة وطردنا مَنِ احتل أرضنا، أمّا أنتم يا من تشغلون أذهاننا بأوهامكم لم تفعلوا شيئًا ولن تستطيعوا فِعلَ شيء، بل أنتم الخراب لهذه الدنيا وليست الدنيا فقط بل ستفسدون الدنيا والدين وستصدون عن سبيل الله إن تمكنتم،

1 - صحيح البخاري: 3/1319، رقم (3411)، صحيح مسلم: 3/1475، رقم (1847).

فنحن لسنا مع الاستعمار.

الرد على الوهم الثاني: الولاء لإسرائيل.

يقول سيد قطب: فالمئات والألوف كانوا دسيسة على التراث الإسلامي، وما يزالون في صورة المستشرقين وتلاميذ المستشرقين الذين يشغلون مناصب القيادة الفكرية اليوم في البلاد التي يقول أهلها: إنهم مسلمون. والعشرات من الشخصيات المدسوسة على الأمة المسلمة في صورة أبطال مصنوعين على عين الصهيونية والصليبية، ليؤدوا لأعداء الإسلام من الخدمات ما لا يملك هؤلاء الأعداء أن يؤدوه ظاهرين!..

وإن لهذه القوى اليوم في أنحاء العالم الإسلامي جيشاً جراراً من العملاء في صورة أساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين- وأحيانا كتاب وشعراء وفنانين وصحفيين- يحملون أسماء المسلمين، لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة! وبعضهم من «علماء» المسلمين! هذا الجيش من العملاء موجه لخلخلة العقيدة في النفوس بشتى الأساليب، في صورة بحث وعلم وأدب وفن وصحافة. وتوهين قواعدها من الأساس، والتهوين من شأن العقيدة والشريعة سواء، وتأويلها وتحميلها ما لا تطيق، والدق المتصل على «رجعيتها»! والدعوة للتلفت منها، وإبعادها عن مجال الحياة إشفاقا عليها من الحياة أو إشفاقا على الحياة منها! وابتداع تصورات ومثل وقواعد للشعور والسلوك تناقض وتحطم تصورات العقيدة ومثلها، وتزيين تلك التصورات المبتدعة بقدر تشويه التصورات والمثل الإيمانية، وإطلاق الشهوات من عقالها وسحق القاعدة الخلقية التي تستوي عليها العقيدة النظيفة لتخر في الوحل الذي ينثرونه في الأرض نثراً! ويشوهون التاريخ كله ويحرفونه كما يحرفون النصوص، وهم بعد مسلمون، أليسوا يحملون أسماء المسلمين؟ وهم بهذه الأسماء المسلمة يعلنون الإسلام وجه النهار، وبهذه المحاولات

المجرمة يكفرون آخره.[1]

ونحن لا ننكر أن يكون في الأمة أو في العالم الإسلامي الآن مخذلين أو منافقين، ولكن تبعا لما يظهر من كلام سيد قطب وتبعا لوجهة نظره فإن المجتمعات الإسلامية حكاما ومحكومين عملاء خاضعون لإسرائيل وللتدابير الصهيونية، إما بالاشتراك أو بالتبعية والخضوع والرضا والاستسلام.

وكل ذلك منهم كذب ومغالطات واضحة، لأن المصريين كمثال وقفوا دائما ضد الخطة الصهيونية في المنطقة، وينطبق ذلك على الملك فاروق وعلى الضباط الأحرار ومن أتى بعدهم، وينطبق ذلك على السياسيين المصريين من النخبة وعلى عموم الشعب وعلى الجيش المصري، كلهم أجمعوا منذ تأسيس إسرائيل على مواجهتها، ظهر ذلك في توحيد الجيوش العربية في حرب 1948م، ثم في حرب 1956م، نعم لم يتحقق النصر للعرب والمصريين في تلك الحرب، بل وتعرض الجيش المصري لضربات الصهاينة في نكسة 1967م، ثم أتبع ذلك النصر المبين في حرب أكتوبر 1973م، وقد شارك العرب جميعهم مع مصر في تلك المعركة إما بالجنود وإما بالمعدات وإما بالأموال، وإما بقطع الإمدادات النفطية عن حلفاء إسرائيل والوقوف في وجه أمريكا، أليس ذلك تاريخا قريبا، من ينكره، ومن يخدع الناس ويصرفهم عن معرفته أو الاستدلال به.

كيف يغفل هؤلاء عن الدماء الذكية التي قدمها الجيش المصري وغيره من العرب في مواجهة إسرائيل، كيف يصورون أنفسهم أبطالا في معركة لم يقدموا فيها شيئا، فإن المعارك القتالية التي يدعي أنها جهاد في سبيل الله لم توجه يوما لصد إسرائيل أو محاربتها، وإنما ضحاياهم جميعها من المسلمين، والدول التي خربوها وأسقطوها إنما هي دول إسلامية.

---

1 – في ظلال القرآن 414/1. طبعة دار الشروق 1412هـ.

الرد على الوهم الثالث: حكام الإسلام ضد الوحدة بين الأمة العربية والإسلامية .

وهذا كلامٌ فاسدٌ مردودٌ عليه؛ فلقد حاولت مصر أن تتحد مع سوريا في الستينيات، وأن تتحد مع ليبيا، وأن تتحد مع السودان، وهناك كيانات موجودة بالفعل في العالم الإسلامي تجمع وتوحد بينها، كمنظمة التعاون الخليجي، وكجامعة الدول العربية، ومنظمة العالم الإسلامي، وتجتهد الدول العربية في إزالة العوائق أمام الوحدة، وإنشاء سوق عربية موحدة وغير ذلك من الأفكار.

وهؤلاء الكذابون لا ينظرون إلى حقيقة أنفسهم فقد يجدونها سببا جوهريا وعائقا حقيقيا أمام تحقيق هذه الوحدة، وأنهم أكبر الدعاة إلى التفريق والشرذمة، حيث جعلوا من الدين الموازي الذي ابتدعوه سببا في تقسيم الناس والدول على أساس ديني يصعب تجاوزه أو التغلب عليه.

الرد على الوهم الرابع: انعدام العدالة الاجتماعية.

يقول أبو بكر ناجي في كتابه "الخونة": الشعوب الإسلامية كسرت أجنحتها، ونهبت ثرواتها، وترزح تحت حكومات سَلَبَت منها كل شيءٍ حتى حق التعبير، والشعوب الإسلامية شعوب مُمْتَهَنَة، تحتاج إلى من يحررها من حكوماتها أولًا. اهـ

ويقول مصطفى مشهور: وأقاموا نظم حكم شمولي متسلط في معظم إن لم يكن كل أقطارنا الإسلامية، لتنفذ مخططاتهم التي تهدف إلى إبقاء بلادنا ضعيفة متنازعة يستغلون ثرواتها رخيصة ويوردونها مصنعة غالية، وهكذا لتبقى أقطارنا في تبعية ذليلة لهم بسبب عدم الاكتفاء الذاتي خاصة في الغذاء والسلاح فيخضع لأحكام العملاء مختارين أو مضطرين للسياسة التي يملونها عليهم، وفي ظل هذا الضعف والغثائية ساعد الأعداء على غرس هذا الكيان الصهيوني الغريب في قلب الأمة الإسلامية

كالغدة السرطانية ليزيد من ضعفها وليتوسع ويتمكن ويعيث في الأرض فسادا".[1]

وهذا أمرٌ باطلٌ وكذب؛ فإن الدولة الحديثة أصبح فيها أجهزة رقابية ومؤسسات، وأصبح فيها مشاركة وتداول للمناصب والسلطات، وأصبح فيها مسئولية وقانونٌ ودستور، وإجراءاتٌ كثيرة تؤاخذ كل من تمتد يده إلى أموال الناس، أو تنهب ثروات الشعوب.

وأما الاعتقالات السياسية والتعذيب في السجون، وهو الأمر الذي طال الإسلاميين والشيوعيين والاشتراكيين وغيرهم من طوائف المجتمع على حد سواء، وقاست تقلبات السياسة وويلاتها، ولا يصح أن يجعلوا من روح الانتقام أو المظلومية التي وقعت عليهم سببا في تدمير المجتمع ككل.

والعجيب أن هؤلاء الإرهابيين الجبناء الذين لم يكونوا يوما مدافعين عن حقوق الأمة السليبة، وإنما عن مصالحهم الشخصية ومآربهم في الزعامة والسلطان، يصدرون أنفسهم على أنهم أبطال عانوا التعذيب والاعتقال من أجل قضية الوطن والدين، حيث وقفوا في وجه الحكام الظالمين المعتدين.[2].

---

1 - نقلا عن بحث "الغرب في رؤية الحركة الإسلامية المصرية" لإبراهيم بيومي ، منشور على موقع موسوعة الإخوان المسلمين.

(2) حدثني الشيخ الغزالي رحمه الله أنه عندما قامت الثورة وحدث القبض وقتها على بعض العناصر الإخوانية سنة 1965م، وفيها ألقي القبض على الشيخ محمد الغزالي، وقتها كان عبد الناصر في روسيا وعندما جاء إلى مصر، سأل عن الأحوال في مصر وعن الشيخ الغزالي فأخبروه أنه في السجن. فأمرهم بإخراجه من السجن، فعملوا على تطبيق الأوامر وكان الوقت متأخرًا، فأخرجوه من السجن في وقت متأخر بعد منتصف الليل. وقتها ظن الشيخ الغزالي رحمه الله أنه سيقتل، لأنه رأى أنها حركة مريبة تعبر عن الغدر به، وخاصة أنه في الصحراء. وقتها أشار لعربة على الطريق وركب معهم، إلى أن نزل في التَّحرير، ومن التحرير ذهب لبيته الذي كان في الدقي بجانب شارع مصدق، ووصل بيته وقت الفجر.

الرد على الوهم الخامس: الحاكمية لغير الله والحكم بغير ما أنزل الله.

ويقول محمد عبد السلام في "الفريضة الغائبة":

والأحكام التي تعلو المسلمين اليوم هي أحكام الكفر بل هي قوانين وضعها كفار، وسيروا عليها المسلمين، ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) [المائدة: 44]

فحكام هذا العصر في ردة عن الإسلام تربوا على موائد الاستعمار، سواء الصليبية أو الشيوعية أو الصهوينة - فهم لا يحملون من الإسلام إلا الأسماء وإن صلى وصام وادعى أنه مسلم.

ويستشهد محمد عبد السلام بقول ابن تيمية: كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين وإن تكلمت بالشهادتين.

ويرتب عليه كفر الحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، ويفسر قوله صلى الله عليه وسلم: "إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان". يقول: وبواحاً: أي ظاهرا. والمراد بالكفر هنا المعاصي، معنى "عندكم من الله فيه برهان": أن تعلمونه من دين الله. أهـ[1]

وذهب يستدل من ذلك على وجوب أمرين في منتهى الخطورة: الأول: الخروج على الحاكم الكافر أو المرتد أو المبتدع أو الفاسق. والثاني: وجوب قتاله ومن والاه على أنه العدو القريب وقتاله أولى من العدو البعيد.

وزين الشيطان الرجيم في ذهن هذا المتطرف أن قتل السادات وإراقة دمه أحب إلى الله وأولى من التوجه بالقتال ضد إسرائيل، لأن السادات هو العدو القريب من وجهة

1 - الفريضة الغائبة ص15.

نظرهم الفاسدة، وإسرائيل هي العدو البعيد.

وقد رددنا على هذه المغالطة في كتاب أسميناه "التجربة المصرية"[1] وقد عرضنا فيه تجربة المصريين في تقنين الشريعة، والاحتكام إليها، وخلصنا منه إلى أن الدولة المصرية الحديثة منذ إنشائها وهي تتحرى أحكام الشريعة الإسلامية لا تخرج عنها، وأن الدساتير المصرية نصت جميعها على ذلك، فمن أين لهذا المتطرف أن يرمي الناس بالكفر والاحتكام إلى شريعة غير الإسلام.

فالخديو إسماعيل كان حريصا على البعد عن الدولة العثمانية والتي قننت الشريعة الإسلامية في صورة المجلة العدلية، الصادرة سنة 1290هـ، على المذهب الحنفي، فقد فكر في عدة احتمالات، وكلها لا تخرج عن الشرع الإسلامي، واستقر الأمر على تقريب القانون الفرنسي ومراجعته على وفق ما جاء في المذهب المالكي، فأمر الشيخ مخلوف المنياوي مفتي الصعيد أن يراجع ما ترجمه رفاعة الطهطاوي، فكتب تقريرا واسعا استفاض فيه حتى صار كتابًا طبع الآن في مجلدين بمصر، تحت عنوان (المقارنات التشريعية) قارن فيه بين القانون الفرنسي، والشريعة الإسلامية، والمذهب المالكي على وجه الخصوص، ووجد مخالفات قليلة، إلا أن هذا العمل لم يلتفت إليه، وظل حبيسًا بدار الكتب المصرية إلى أن نشره الأستاذ الدكتور محمد سراج عبد الهادي، وشاركه على استحياء كاتب هذا البحث.

ولما تولى محمد قدري باشا وزارة الحقانية (العدل) وضع تقنينا على مذهب الحنفية يوازي المجلة العدلية، ويستفيد منها، في كتابه الكبير (الأحوال الشخصية) في أربع مجلدات، وفي كتابه (دليل الحيران في معرفة أحوال الإنسان) وفي كتابه (العدل والإنصاف في أحكام الأوقاف).

وبدأت حركة التمصير مع عبد الرزاق السنهوري باشا، الذي وضع القانون المدني

---

1 - طبع دار نهضة مصر ضمن سلسلة "في التنوير الإسلامي 85" سنة 2008م.

المصري، ومع صبري أبو علم الذي وضع القانون الجنائي المصري، وهي المجموعات التي انتهوا منها وصدرت وعمل بها من سنة 1949م وحتى يومنا هذا، بغض النظر على التعديلات الجزئية.

أما السنهوري باشا فقد شرح القانون المدني في كتاب ماتع مطول أسماه (الوسيط) صدر في عشرة أجزاء، بين فيه مأخذ كل مادة من الشريعة الإسلامية، أو في صياغتها، أو في موضوعها، من ستة عشر تشريعا مختلفا، من التشريع الهندي، والبلجكي، والإيطالي، والفرنسي-... إلى آخر ذلك. وهو ما يدل دلالة واضحة -بل أكاد أن أقول دلالة قطعية- على ذلك التوجه الذي أراده هؤلاء الآباء من عدم الانسلاخ من الشريعة ومن وضع أقدامنا في موطئ قدم في الخريطة العالمية.

والسنهوري باشا نفسه وضع التشريع العراقي، والتشريع الأردني وتوجه بهما أكثر نحو الشريعة الإسلامية بصورتها الموروثة.

الرد على الوهم السادس: الحكام العرب ضد عودة الخلافة الإسلامية.

يقول محمد عبد السلام فرج في الفريضة الغائبة:

ولقد أجمع المسلمون على فرضية إقامة الخلافة الإسلامية وإعلان الخلافة يعتمد على وجود النواة وهي الدولة الإسلامية ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية فعلى كل مسلم السعي لإعادة الخلافة بجد لكيلا يقع تحت طائلة الحديث، والمقصود بالبيعة بيعة الخلافة. [1]

ويقول أبو محمد المقدسي في "ملة إبراهيم":

موجبات حركات الجهاد في ديار الردة فهي:

إعادة العقد الجامع لشتات المسلمين، أي دولة الخلافة الضائعة: فلما سقطت

1 - الفريضة الغائبة ص4.

الخلافة انفرط عقد الأمة، فلم تعد تستحق اسم الأمة، نعم هناك مسلمون في أرض الشتات، وهناك عباد وقوام، وزوامل علم وحجاج، وذاكرون وذاكرات، ولكن كل هؤلاء لا يدخلون أبدا في مسمى الأمة، فلا يوجد هناك أمة إسلامية، لأن أول مقومات الأمة لا توجد بين هذه الحبات المتناثرة بلا ضابط، ولا حبل جامع، ونعني بها وجود الدولة، فليس للمسلمين دولة ولا شوكة ممكنة، ولا منعة حافظة، وقد بذل الكفر جهودا متتالية في دفع دولة الخلافة وإسقاطها، كر المرة تلو المرة، حتى كان له ما أراد، ولكن والحق يقال :إن العوامل الداخلية في دار الإسلام، عوامل الهزيمة والانحطاط، هي السبب الرئيسي لإسقاط هذه الدولة، فليس ما عمله الكفار بمعادل ما عملته الأمة بنفسها، ومن أهم هذه العوامل :فساد التصور العقدي، إذ انتشرت في الأمة جرثومة الصوفية، التي ما دخلت في أمة من الأمم إلا جعلتها أثرا بعد عين، الصوفية التي شغلت الناس في الوصول إلى حالة العرفان والجذبة، فأرهقت المرء المسلم في سعيه لهذه الخيالات الجنونية، وعطلت المسلم عن البحث والنظر، لأن الصوفي يظن أنه بمجرد وصوله لهذه المرتبة سيدرك حقائق الأشياء، وسر الكون، فلا ضرورة إذن للسعي والجد في اكتشاف سنن الكون والحياة، لأن الصوفية تؤمن أنه بمجرد كون الرجل وليا عارفا فإنه سيملك ناصية هذا الكون، فيتحكم في سننه من أمراض وظواهر كونية من ماء ونار ومطر ورعد، وسيكون مالكا لإكسير الحياة وسر الأشياء.

ويقول أيضا: بعد أن سقطت الخلافة الإسلامية، وانفرط عقد الجماعة، دخل أهل السنة في إشكالية ما تزال تعتبر معوقا لهم عن بلوغ أهدافهم أو التقدم نحوها، هذه الإشكالية هي معضلة الجماعة وشرعيتها، وما هي قوة الإلزام في انضمام المرء لها.

كان أهل السنة يعتبرون أنه بمجرد وجودهم تحت راية إمام ممكن، يدينون له بالطاعة والولاء، ويمتثلون أمره هم داخلون تحت مسمى الجماعة، فلم يكونوا بحاجة إلى بحث هذا الإشكال إلى مستوى أوسع مما هي عليه، ولضيق هذا الفهم وعدم

شموليته، ولبعده عن الفهم الصحيح عن مفهوم الجماعة كما هو معروض بالشرع وكما فهمه السلف، فإنه بمجرد سقوط هذا الرابط العام (الخلافة) حار أهل السنة في حل هذا الإشكال وما زالوا في حيرة إلى الآن. أهـ

وكل هذه الأكاذيب والمغالطات الهدف منها نزع انتماء الفرد المسلم من الدولة التي يحيا فيها حتى يتحقق انتماؤه إلى الجماعة الموازية التي يصورونها في ذهنه مرحلة وسطى أو مؤقتة أو خطوة على طريق الانتماء إلى دولة الخلافة العظمى، وأن بيعة المسلم لأمير هذه الجماعات الضالة هو الذي يحل رقبته من إثم الموت وليس في رقبته بيعة، فيموت ميتة جاهلية، كأولئك الذين يموتون وفي رقبتهم بيعة فاسدة لحاكم كافر فاسق.

وما يروجونه للناس كذب ووهم، فإن المسلمين أجمعين حكاما ومحكومين علماء وعوام، يرغبون في وحدة المسلمين ويحلمون بدولة الخلافة الإسلامية الراشدة التي بشر بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دولة المهدي الذي يقيم العدل بالأرض، ولكن الفرق بين المسلمين في عمومهم وهؤلاء المتطرفين، أن المسلمين أدركوا أن الأحلام إن كانت قابلة للتطبيق فهي تحتاج لإدراك الواقع المعيش والتعايش معه، ومن ثم الاستفادة مما فيه قدر الإمكان، وأما المتطرفين فهم يرون في تدمير الواقع المعيش ورفض التعايش معه، والانصراف عن الاستفادة منه، هو الطريق الوحيد الذي سيجعل أحلامهم تتحقق.

فقد سعى المسلمون، ومنذ أن أعلن كمال أتاتورك عن سقوط الخلافة في 1924م، إلى إعادة رابطتهم وعقدهم، فقد اجتمعوا في مؤتمرين كبيرين: الأول في القاهرة سنة 1925م، وقد صدر عن هذا المؤتمر مجلة طبعت باسم "مجلة الخلافة بمصر". والثاني مؤتمر الخلافة بالهند، ولكن للأسف فكلا المؤتمرين قد فشل فشلا ذريعا، نظرا لعدم استعداد الدول وتهيؤها لأمر الوحدة مرة أخرى في عقد كعقد الخلافة.

ولقد قدم الدكتور السنهوري باشا من خلال رسالته للدكتوراه التي تقدم بها إلى

السربون دعوة إلى مؤسسة بديلة يمكنها أن تحل محل الخلافة الإسلامية بشكل فعلي، يتفق عليه جميع الدول الإسلامية .

وطرح فكرة "عصبة الأمم الشرقية"؛ وهو اقترح بإنشاء منظمة دولية تكون أداة للتقارب بين الدول الإسلامية المستقلة تعمل على تنمية الروابط بين شعوبها، وتتولى تقديم المساعدة للشعوب التي تطالب باستقلالها وترغب في المحافظة على علاقاتها التاريخية والعقدية والثقافية مع الأقطار الإسلامية المستقلة.

وتمحورت فكرة السنهوري في إنشاء منظمتين: إحداهما تكون دينية، وتهدف إلى تشجيع الحركة العلمية للنهوض بالشريعة الإسلامية باعتبارها أساس وحدة الأمة، وتجمع الثانية الدول الإسلامية من الناحية السياسية والاقتصادية وتكون أداة للتعاون فيما بينها.

ومن هنا يتضح أن المسلمين وحكامهم لم يزهدوا في الخلافة أو يرفضوها ويقفوا ضدها بل هم يبحثون في الطريقة المثلى أو المتاحة أو الواقعية لإعادتها.

الرد على الوهم السابع : تعطيل فريضة الجهاد.

يدعون أنهم المجاهدون في سبيل الله دون بقية المسلمين حكاما ومحكومين .

وهذا كذب ووهم وتلبيس في دين الله، حيث إنهم جهلوا مفهوم الجهاد الصحيح، وتبنوا مفاهيم مختلة وفاسدة. وجهلوا شروط الجهاد وأهمها أن يكون تحت رآية، فقد نهانا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجهاد تحت الراية العمية العصبية، التي تدمر ولا تعمر، حيث قال: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ ثُمَّ مَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً وَمَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِلْعَصَبَةِ وَيُقَاتِلُ لِلْعَصَبَةِ فَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِى وَمَنْ خَرَجَ مِنْ أُمَّتِى عَلَى أُمَّتِى يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا لاَ يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلاَ يَفِى

بِذِى عَهْدِهَا فَلَيْسَ مِنِّى».[1]

وأما المتطرفون الذين اختزلوا مفهوم الجهاد وقصروه على القتال المسلح فانطلقوا تحت راية عمية عصبية يسفكون الدماء ويزهقون الأرواح بغير وعي ولا يدري القاتل فيما قَتَل ولا يدري المقتول فيما قُتِل، كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَدْرِى الْقَاتِلُ فِى أَىِّ شَىْءٍ قَتَلَ، وَلاَ يَدْرِى الْمَقْتُولُ عَلَى أَىِّ شَىْءٍ قُتِلَ».[2]

وانظر كيف يرى محمد عبد السلام فرج خروج الجنود المصريين من أبناء القرى والنجوع والمدن المصرية للجهاد ضد إسرائيل التي أغارت على بلادهم واغتصبت أرضهم وأراقت دمائهم، يرى أن المسلم من أبناء المصريين لا يخرج في هذا الجهاد إلا مكرها، وإن خرج مكرها فلا يقاتل، ولنسأل محمد عبد السلام ما السبب في ذلك :

يقول: إن دماء للمسلمين ستنزف حتى وإن تحقق النصر، فالسؤال الآن هل هذا النصر لصالح الدولة الإسلامية القائمة؟ أم أن هذا النصر هو لصالح الحكم الكافر وهو تثبيت لأركان الدولة الخارجة عن شرع الله، وهؤلاء الحكام إنما ينتهزون فرصة أفكار هؤلاء المسلمين الوطنية في تحقيق أغراضهم الغير إسلامية وإن كان ظاهرها الإسلام ، فالقتال يجب أن يكون تحت راية مسلمة وقيادة مسلمة ولا خلاف في ذلك.

وإن أساس وجود الاستعمار في بلاد الإسلام هم هؤلاء الحكام، فالبدء بالقضاء على الاستعمار هو عمل غير مجدي وغير مفيد وما هو إلا مضيعة للوقت، فعلينا أن نركز على قضيتنا الإسلامية وهي إقامة شرع الله أولاً في بلادنا وجعل كلمة الله هي العليا، فلا شك أن ميدان الجهاد هو اقتلاع تلك القيادات الكافرة واستبدالها بالنظام

1 - صحيح مسلم: 3/1477، رقم (1848).

2 - صحيح مسلم: 4/2231، رقم (2908).

الإسلامي الكامل ومن هنا تكون الانطلاقة .أهـ[1]

وابن تيمية يقول: فَإِنَّهُ لَا يَنْضَمُّ إلَيْهِمْ طَوْعًا مِنْ الْمُظْهِرِينَ لِلْإِسْلَامِ إلَّا مُنَافِقٌ أَوْ زِنْدِيقٌ أَوْ فَاسِقٌ فَاجِرٌ، وَمَنْ أَخْرَجُوهُ مَعَهُمْ مُكْرَهًا فَإِنَّهُ يُبْعَثُ عَلَى نِيَّتِهِ، وَنَحْنُ عَلَيْنَا أَنْ نُقَاتِلَ الْعَسْكَرَ جَمِيعَهُ إذْ لَا يَتَمَيَّزُ الْمُكْرَهُ مِنْ غَيْرِهِ.[2]

والغريب أن الكتاب اسمه الجهاد الفريضة الغائبة وكان من المفترض أنه يدعونا كاتبه للجهاد الذي ضيعناه أو غيبناه، ولكنه يدعونا للإحجام عن جهاد العدو الخارجي (يعني إسرائيل) حتى نقتل الحكام الكفرة ونتمكن من إقامة الخلافة الإسلامية، وحتى ذلك الحين فليقتل بعضنا بعضا ويهلك بعضنا بعضا، فهل يحق أو يجوز لنا أن نتهم هذا المتطرف أنه يدعونا لذلك ضمن مؤامرة حيكت لجيشنا ولبلادنا، لتصدنا عن إسرائيل، ولتشغلنا ببعضنا، كما يدعونا هذا المجرم.

وهؤلاء النابتة من المتطرفين يدعون الشباب إلى الهجوم على القتال دون رؤية واضحة ودون علم بشروط الجهاد وآدابه وأهدافه ومتى يبدأ ومتى يتوقف وغير ذلك، فالعلم عندهم يأتي في مرحلة متأخرة، يقول محمد عبد السلام:

وحد العلوم أن من علم فرضية الصلاة فعليه أن يصلي ومن علم فرضية الصيام فعليه أن يصوم كذلك من علم فرضية الجهاد ، فعليه أن يجاهد ومن يحتج بعدم علمه بأحكام الجهاد فعليه أن يعرف أحكام الإسلام سهلة وميسرة، لمن أخلص النية لله، فعلى هذا أن ينوي الجهاد في سبيل الله وبعد ذلك فأحكام الجهاد تدرس بسهولة ويسر وفي وقت قصير .. قصير جداً، والأمر لا يحتاج إلى كثير من الدراسة، ومن أراد أن يزداد من العلم فوق هذا الحد فليس هناك حكر على العلم فالعلم متاح للجميع، أما تأخير الجهاد بحجة طلب العلم فتلك حجة من لا حجة له، وهناك مجاهدون منذ بداية

---

1 - الفريضة الغائبة ص15.

2 - مجموع الفتاوى (المسألة التتارية) 28/535.

دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وفي عهود التابعين حتى عصور قريبة لم يكونوا علماء وفتح الله على أيديهم أمصار كثيرة، ولم يحتجوا بطلب العلم أو بمعرفة علم الحديث وأصول الفقه بل إن الله سبحانه وتعالى جعل على أيديهم نصرا للإسلام، لم يقم به علماء الأزهر يوم أن دخل نابليون وجنوده الأزهر بالخيل والنعال. أهـ[1]

وفي نفس الإطار يقول سيد قطب: إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة، ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة، والذين يعكفون على الكتب والأوراق في هذا الزمان لكي يستنبطوا منها أحكاما فقهية " يجددون " بها الفقه الإسلامي أو "يطورونه" وهم بعيدون عن الحركة التي تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد، وردهم إلى العبودية لله وحده بتحكيم شريعة الله وحدها وطرد شرائع الطواغيت، هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدين، ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين.[2]

وهذه كارثة حيث يدعو هؤلاء أتباعهم إلى فعل ما نهى عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا ما نؤكد عليه دوما أن ضلال تلك الفرق والجماعات هو تركهم للمحجة البيضاء الناصعة التي تركنا عليها رسول الله، فهو ينهانا عن القتال تحت راية عمية ، وهؤلاء أصحاب الدين الموازي يدعون الشباب إلى القتال تحت راية عمياء صماء بكماء، وقوع اللسان فيها كوقوع السيف، وهي راية الفوضى وهي راية التوحش والدمار.

الرد على الوهم الثامن: تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام حتى يكفروا أمة محمد بأيها شاءوا.

يقول عبد اللطيف بن عبد الرحمن في "الدرر السنية":

والمرء قد ينجو من الشرك ويحب التوحيد، ولكنه يأتيه الخلل من جهة عدم البراءة

1 - الفريضة الغائبة ص14.

2 - في ظلال القرآن 3/1735.

من أهل الشرك وترك موالاة أهل التوحيد ونصرتهم؛ فيكون متبعًا لهواه داخلًا من الشرك في شعب تهدم دينه وما بناه، تاركًا من التوحيد أصولًا وشعبًا لا يستقيم معها إيمانه الذي ارتضاه، فلا يحب ولا يبغض لله، ولا يعادي ولا يوالي لجلال من أنشأه وسوّاه، وكل هذا يؤخذ من شهادة أن لا إله إلا الله. اهـ[1]

ويقول حمد بن عتيق في كتابه "سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك": إن كثيرًا من الناس قد يظن أنه إذا قدر على أن يتلفظ بالشهادتين وأن يصلي الصلوات الخمس ولا يرد عن المسجد فقد أظهر دينه وإن كان مع ذلك بين المشركين أو في أماكن المرتدين، وقد غلطوا في ذلك أقبح الغلط.

واعلم أن الكفر له أنواعٌ وأقسامٌ بتعدد المكفرات، وكل طائفةٍ من طوائفالكفر قد اشتهر عندها نوعٌ منه، ولا يكون المسلم مظهرًا لدينه حتى يخالف كل طائفةٍ بما اشتهر عندها ويصرح لها بعداوته والبراءة منه. اهـ[2]

ولقد رد عليهم العربي التَّبَّاني في كتابه "براءة الأشعريين من عقائد المخالفين"، وبين بدعية تقسيمهم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، وأوضح أن ذلك سبيل اتخذه هؤلاء لتكفير المسلمين وتفسيقهم.

الرد على الوهم التاسع: هم الأجدر بالنصرة والتمكين في الأرض وهم الأحق بقيادة الشعوب إلى دين الله .

وهؤلاء المتطرفون خالفوا أبا القاسم واتبعوا أهواءهم، وضلوا وأضلوا كثيرا من عباد الله، ونفذوا أوامر الممولين لهم بالمال والسلاح، فمن يمدهم بالسلاح والمال هو سيدهم الذي يطيعون أوامره ويحققون أغراضه، ويتلاعب بهم كيف شاء ليحقق أهدافا سياسية واقتصادية، من وراء الفوضى والفتن والهرج في بلادنا.

---

1 - الدرر السنية في الأجوبة النجدية 396/8. الطبعة السادسة.

2 - سبيل النجاة والفكاك مجموعة التوحيد 366/1-367.

ولنعرض لبعض الأحاديث النبوية التي أرشدت المسلمين كيف يتصرفون في وقت إشاعة الفتن، فعن أبي ثعلبة الخشني قال رَسُول اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: «بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِى رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ».

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «لاَ بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ».[1]

وعن أبي موسى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ الْهَرْجَ». قِيلَ: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: «الْكَذِبُ وَالْقَتْلُ ». قَالُوا: أَكْثَرُ مِمَّا نَقْتُلُ الآنَ. قَالَ: « إِنَّهُ لَيْسَ بِقَتْلِكُمُ الْكُفَّارَ وَلَكِنَّهُ قَتْلُ بَعْضِكُمْ بَعْضاً حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ وَيَقْتُلَ أَخَاهُ وَيَقْتُلَ عَمَّهُ وَيَقْتُلَ ابْنَ عَمِّهِ». قَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ وَمَعَنَا عُقُولُنَا يومئذ؟ قَالَ: "لاَ، إِلاَّ أَنَّهُ يَنْزِعُ عُقُولَ أَهْلِ ذَاكُمُ الزَّمَانِ حَتَّى يَحْسِبُ أَحَدُكُمْ أَنَّهُ عَلَى شَىْءٍ وَلَيْسَ عَلَى شَىْءٍ".[2]

قال حذيفة بن اليمان: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن ما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رئيت بهجته عليه وكان ردئا للإسلام، غَيَّرَهُ إلى ما شاء الله، فانسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك". قال: قلت: يا نبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أم الرامي؟ قال: "بل الرامي".[3]

1 – سنن الترمذي: 257/5، رقم (3058) وفي رواية: "فَعَلَيْكَ خُوَيْصَةَ نَفْسِكَ، وَدَعْ أَمْرَ الْعَوَامِّ". سنن ابن ماجه: 1330/2، رقم (4014).

2 – مسند أحمد:406/4، رقم (19653) وصحيح ابن حبان: 103/15، رقم (6710)، وسنن ابن ماجه: 1309/2 رقم (3959).

3 – صحيح ابن حبان:ج1/ص281، رقم (81) طبعة مؤسسة الرسالة ط1993/2م، بتحقيق شعيب الأرنؤوط.

وروى نعيم بن حماد عن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّايَاتِ السُّودَ فَالْزَمُوا الْأَرْضَ؛ فَلَا تُحَرِّكُوا أَيْدِيَكُمْ وَلَا أَرْجُلَكُمْ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ ضُعَفَاءُ لَا يُؤْبَهُ لَهُمْ، قُلُوبُهُمْ كَزُبَرِ الْحَدِيدِ، هُمْ أَصْحَابُ الدَّوْلَةِ، لَا يَفُونَ بِعَهْدٍ وَلَا مِيثَاقٍ، يَدْعُونَ إِلَى الْحَقِّ وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهِ، أَسْمَاؤُهُمُ الْكُنَى، وَنِسْبَتُهُمُ الْقُرَى، وَشُعُورُهُمْ مُرْخَاةٌ كَشُعُورِ النِّسَاءِ، حَتَّى يَخْتَلِفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يُؤْتِي اللهُ الْحَقَّ مَنْ يَشَاءُ».(1)

وهذا يبين نفاق تلك الجماعات المتطرفة وأنهم يظهرون عكس ما يبطنون، وأنهم يكنون الازدراء والكراهية للشعوب، ولا يحترمون إرادة غيرهم.

ومن تكبرهم على خلق الله لا يؤمنون بأن المولى عز وجل هو من يعطي الملك وهو من يسلبه عمن يشاء وقتما يشاء، وهكذا قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]

الرد على الوهم العاشر : نحن نتولى الكافرين ونعادي المؤمنين. يقصدون أنفسهم.

وقد جاء في طبقات الحنابلة كلمة الولاء والبراء على أنها بدعة لكنها أتت بتعبير الولاية والبراءة قال محمد بن أبي يعلى الفراء (ت 458هـ): «والولاية بدعة والبراءة بدعة وهم الذين يقولون نتولّى فلانًا ونتبرأ من فلان وهذا القول بدعة فاحذروه؛ فمن قال بشيء من هذه الأقاويل أو رآها أو صوَّبها أو رضيها أو أحبها فقد خالف السنة وخرج من الجماعة وترك الأثر وقال بالخلاف ودخل في البدعة وزال عن الطريق»(2).

والولاء والبراء بدعة وبدعيتها قديمة، وأول من اكتشف خطورة هذا الأمر وأنه بلاء سيأتي على الأمة رجل من الصالحين الكبار في مكة المكرمة، عاش في النصف الأول من القرن العشرين، ألف كتابًا ماتعًا كبيرًا وطبعه في الشام، وهو كتاب: «**براءة**

(1) نعيم بن حماد في كتابه الفتن 1/210 رقم (573).

(2) طبقات الحنابلة (1/35) تحقيق: محمد حامد الفقي- مطبعة السنة المحمدية- القاهرة.

الأشعريين من عقائد المخالفين»[1]

في هذا الكتاب قال: إن تقسيم التوحيد الثلاثي هذا تقسيم شيطاني وسيؤدي إلى تكفير المسلمين، ولا يعرفه أحد من علماء المسلمين عبر القرون، وهذا التقسيم من الأفكار المغلوطة عند ابن تيمية[2]، بل إن ذلك ربما هو أصل التكفير، لكن خطأ ابن تيمية هذا يشبه خطأ حسن البنا في الانحراف خطوة ثم أتت بعد ذلك الأجيال فانحرفت خطوات كثيرة بعد ذلك بعيدًا عن الحق، وعندما نمسك تراثَ ابن تيميَّة ونقرؤه كله نجد أنه أخطأ، وكلامه مخالف للعلماء وشذوذات لكنها لم تصل إلى درجة الجريمة والتكفير ثم الدم ثم الفُرقة، ثم تشويه صورة الإسلام في العالمين، فابن تيمية لم يفعل هذا الأمر. لكن الأجيال المتتالية هي التي بنت على خطئه، وهناك ما يسمى بالمذهب وما يسمى بلازم المذهب، فابن تيمية صنع ذلك الخطأ، لكن لازم هذا الخطأ لم نره، وابن تيمية لم يقل بتلك اللوازم التي فيها إجرام، والشيخ العربي التباني رد على قضية تقسيم التوحيد وعلى ابن تيمية، وهذا الرد بدوره ينقض فكرة الولاء والبراء من جذورها؛ لأنها من البداية كلمة مبتدعة معناها سيئ كما أوردنا عند أبي يعلى.

***

(1) عندما ألَّف الشيخ العربي التباني كتابه: «براءة الأشعريين» طبعه في دمشق وكتب عليه تأليف: أبو حامد بن مروزق؛ وذلك لأنه خاف على نفسه أن يقتل بحكم أنه كان يعيش في مكة وأهلها لا يعتقدون تلك المعتقدات ولا يقولون بتلك الآراء عنهم، وتم البحث عن أبي حامد بن مرزوق من أجل محاسبته على هذا المؤلف، ووصل الأمر أنهم ذهبوا إلى الشام وسألوا صاحب المطبعة إلى أن أشرفوا على الوصول إليه، وقتها أحس بذلك الشيخ العربي التباني فذهب إلى الحرم ودعا الله سبحانه وتعالى أن يتوفاه غير مخزٍ ولا مفتون في دينه، فمات بعد يومين والتحق بربه رحمه الله.

(2) انظر: براءة الأشعريين (89/1) وما بعدها- تأليف: أبي حامد بن مروزق المعروف بـ«العربي التباني»- ضمن سلسلة الرد على الوهابية.

الخاتمة

إنَّنا في ختام الكلام عن تلك الجماعات نخاطب جماهير المسلمين ونخاطب العالمين، نخاطبهم بما علمنا وما تعلمناه في الأزهر الشريف، وما علمناه من مذهب أهل السنة والجماعة، نخاطب الإخوان ومن والاهم ومن أيدهم: لقد أخطأ حسن البنا حينما أعرض عن الدعوة والتربية في مرحلة المأثورات، ولقد أخطأ حينما عصى شيخه وخرج عن طاعته، ولقد أخطأ إذ كون جماعة خاصة وتنظيما خاصا ودعوة سرية في وسط جماعة المسلمين ، لقد أخطأ حينما ظن هو وأتباعه أنهم جماعة المسلمين لا جماعة من المسلمين، وربنا تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: 33]

أخطأ حسن البنا حينما ترك الدعوة إلى الله ودعا إلى سلطانه ودعا إلى سلطان الجماعة، أخطأ إذ حول ولاء أتباعه للدين الحق دين محمد صلى الله عليه وسلم إلى رسالته وتعاليمه إلى دين الجماعة الموازي، حول ولاء أتباعه إلى نصرته ونصرة مرشديه على الحق والباطل والطاعة العمياء البكماء، أخطأ إذ رغب في السلطة والسلطان وبذل وضحى في سبيل ذلك بالغالي والثمين، أخطأ إذ ظن أن الغايات تبرر الوسائل، وأن المقاصد العالية يمكن بلوغها بالوسائل الفاسدة، تعاون مع الانجليز ومع هتلر وأخذ مبادءه وأفكار تنظيمه من الماسونية والشيعة، إن السلطان آفة وشهوة تفسد كل صالح وتشوه كل جميل، أخطأ حسن البنا إذ ترك العمل الصالح والوسائل الشريفة، أخطأ إذ لم يقل أنا من المسلمين وقال : أنا المسلمون.

أخطأ الإخوان إذ رضوا بطريق القتل سبيلا لما يريدون ، قتلوا الخازندار باشا والنقراشي وسليم زكي، وغيرهم، أعلوا من قدر سيد قطب، ورأوا أن يستفيدوا من شهرته كشاعر وأديب، وأغروه بالانضمام إليهم، وزينوا له مجدا وسلطانا بينهم، ضخموا الذات فيه، لم يحولوا بينه وبين الاجتهاد الديني في الفقه والتفسير والفكر

الإسلامي، وهو غير مؤهل لذلك، وكانت النتيجة أن كفر العالمين، فأهل الأرض كلهم في جاهلية وهو مسيحهم المنتظر، انتهت حياته بالإعدام، بعدما قضى سنوات عمره في السجن، ضحكوا عليه وصوروا له أنه من المجاهدين والأئمة، وفي حقيقة الأمر لم يكن سيد قطب موضع ثقتهم ولا مطاعا فيهم ولا من ذوي الرأي والوجاهة في تنظيمهم، يخفون عنه الحقائق، وهو يتنبه لهذا الأمر في آخر حياته في السجن، أن كان مهمشا في الإخوان وغير ذي دور، وحينما أعدم تاجروا به وراحوا يصنعون للناس عجلا مزينا من الذهب، بطلا خرافيا تحدى عبد الناصر ورفض الخضوع له، حتى اغترت بفكره جماعات ضلت وأضلوا كثيرا من الناس، ثم يأتي الإخوان بعد كل ذلك يقولون للناس مخادعين: إننا نريد أن نَحكُم بالإسلام .

وفي الحقيقة هم يريدون الحكم فقط بالإسلام أو بغيره، فهم يرون أنفسهم المسلمين فقط، وهم الأجدر بالحكم، وحكمهم هو الحكم الإسلامي عينه، نقول لهم: أنتم لا تعرفون الإسلام، ولم تدرسوا الإسلام، ولم تقدموا فيكم أهل العلم بالإسلام، أنتم كاذبون، وأنتم غير مؤهلين للحكم لا بالإسلام ولا بغيره.

والنهضة الحقيقية هي نهضة العقول ، نهضة بالإنسان، بتربيته وتعليمه، بتزكية نفسه وتدريبه، النهضة هي التي تحقق السلم الاجتماعي والتعايش بين أهل الوطن الواحد، النهضة هي الأمن وهي الرفق بالناس هي ترك العنف والتدمير، النهضة هي روح التسامح التي تركنا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، هي الصفح الجميل، هي منظومة القيم والدعوة إلى الحق والحقيقة.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

فهرس المصادر والمراجع

1) ابن القرية والكتَّاب، تأليف: يوسف القرضاوي- دار الشروق- مصر- الطبعة الثانية- 2008م.

2) الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، تأليف: يوسف القرضاوي، دار القلم- الطبعة الأولى- 1985م.

3) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ، تأليف: محمود عبد الحليم- دار الدعوة- الطَّبعة الأولى- 2013م.

4) الإخوان المسلمون في ميزان الحق، تأليف: فريد عبد الخالق- دار الصحوة- القاهرة- الطبعة الأولى- 1987م.

5) الإخوان المسلمون «قراءة في الملفات السرية» تأليف: عبد الرحيم علي- الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة الأولى- 2011م.

6) الإمام المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهولي ومآثره العلمية، تأليف: أبو الحسن الندوي- دار القلم- الطبعة الأولى- 2012م.

7) أشواك، تأليف: سيد قطب، تقديم: شعبان يوسف- الهيئة المصرية العامة للكتاب- 2011م.

8) الأطياف الأربعة (حميدة قطب، أمينة قطب، محمد قطب، سيد قطب) مطبعة مكتبة مصر.

9) الأعلام، تأليف: خير الدين الزركلي- دار العلم للملايين- الطبعة الخامسة عشر- 2002م.

10) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، تأليف: أحمد تيمور باشا- دار الآفاق العربية- مصر- 2003م.

11) أوراق من تاريخ الإخوان، جمعَه: أمين عبد العزيز- دار التوزيع والنشر الإسلامية- 1985م.

12) أيام من حياتي، تأليف: زينب الغزالي- دار التوزيع الإسلامية- الطبعة الأولى- 1999م.
13) البحر المحيط في التفسير، تأليف: محمد بن يوسف، أبو حيان الأندلسي- تحقيق: صدقي محمد جميل- دار الفكر- بيروت- 1420هـ .
14) البداية والنهاية، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي- دار هجر- الطبعة الأولى- 1997م.
15) براءة الأشعريين من عقائد المخالفين، تأليف: أبي حامد بن مروزق المعروف بـ«العربي التباني»- ضمن سلسلة الرد على الوهابية.
16) البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد، تأليف: الأمير عمر طوسون- مطبعة صلاح الدين- الإسكندرية- 1934م.
17) تاج العروس من جواهر القاموس- تأليف: السيد مرتضى الزبيدي- تحقيق: مجموعة من المحققين- وزارة الإرشاد والأنباء- الكويت- 1965م.
18) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، تأليف: محمد رشيد رضا- دار الفضيلة- الطبعة الثانية- 2006م.
19) التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين، تأليف: تأليف: علي عشماوي- دار الهلال.
20) تفسير ابن كثير، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي- تحقيق: محمد حسين شمس الدين- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- 1419م.
21) تفسير البحر المحيط، تأليف: أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي- تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- 1422هـ.
22) تفسير الرازي= مفاتيح الغيب، تأليف: محمد بن عمر فخر الدين الرازي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الثالثة- 1420م.
23) تلخيص الإبريز في تلخيص باريز، تأليف: رفاعة الطهطاوي- مكتبة الأسرة- مصر- 2010م.

24) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تأليف: ابن عبد البر النمري- تحقيق: مصطفى العلوي ومحمد البكري- وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب- 1990م.

25) جامع البيان في تأويل القرآن- تأليف: محمد بن جرير الطبري- تحقيق: عبد الله بن محسن التركي- دار هجر- مصر- الطبعة الأولى- 2001م.

26) جرائم عصابات الإخوان، إعداد لجنة كتب قومية.

27) حائط البراق الذي سماه اليهود ظلمًا وعدوانًا حائط المبكى، تأليف: أ.د. زينب عبد العزيز- تقديم: أ.د. علي جمعة- دار الحرمين- القاهرة- 2000م.

28) حسن العطار، ضمن سلسلة من نوابغ الفكر العربي، تأليف: محمد عبد الغني حسن- دار المعارف- الطبعة الثانية-1993م.

29) الحق المبين في الرد على من تلاعب بالدين، تأليف: أسامة السيد محمود الأزهري- دار الفقيه- مصر- الطبعة الأولى- 2015م.

30) حقيقة التنظيم الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين، تأليف: محمود الصباغ- دار الاعتصام.

31) حقيقة الخلاف بين الإخوان المسلمون وعبد الناصر، يرويها: محمد حامد أبو النصر «المرشد الأسبق»- دار التوزيع والنشر الإسلامية- الطبعة الثانية- 1988م.

32) حِلية الزمن بمناقب خادم الوطن «سيرة رفاعة رافع الطهطاوي» تأليف: السيد صالح مجدي، تحقيق: جمال الدين الشيال، مطبعة الحلبي.

33) حياتي، تأليف: أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة- 2012م.

34) الدر المختار بحاشية ابن عابدين، دار الفكر- بيروت- 1992م.

35) دعاة لا قضاة، تأليف: حسن الهضيبي- دار الطباعة والنشر الإسلامية.

36) الدين الخالص، تأليف: الشيخ محمود خطاب السبكي- المكتبة المحمودية السبكية- الطبعة الخامسة- 1991م.

37) الذخيرة، تأليف: شهاب الدين القرافي- تحقيق: د. محمد حجي- الطبعة الأولى- دار الغرب الإسلامي- 1994م.

38) ذكريات لا مذكرات، تأليف: عمر التلمساني- دار الاعتصام- 1985م.
39) رحلتي مع الأخوات المسلمات، تأليف: فاطمة عبد الهادي- دار الشروق- القاهرة- الطبعة الأولى- 2011م.
40) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف: محمود شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب- 1997م.
41) رشيد رضا الإمام المجاهد ضمن سلسلة أعلام العرب، تأليف: د. إبراهيم أحمد العدوي- الدار المصرية للتأليف والترجمة.
42) سر صناعة الإعراب، تأليف: أبو الفتح عثمان بن جني- تحقيق: محمد حسن إسماعيل- دار الكتب العلمية- الطبعة الأولى- 2000م.
43) السراب، تأليف: جمال سند السويدي- الإمارات العربية المتحدة- الطبعة الأولى- 2015م.
44) السنة، تأليف: ابن أبي عاصم- تحقيق: باسم فيصل الجوابرة- دار الصيعمي- المملكة العربية السعودية- الطبعة الأولى- 1998م.
45) سنن الترمذي، تأليف: محمد بن عيسى الترمذي، تحقيقك أحمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي- طبعة الحلبي- الطبعة الثانية- 1975م.
46) السنن الكبرى، تأليف: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دائرة المعارف النظامية- الهند- الطبعة الأولى- 1344هـ.
47) السنن الكبرى، تأليف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي- تحقيق: حسن شلبي- مؤسسة الرسالة- الطبعة الأولى- 2001م.
48) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، تأليف: صلاح عبد الفتاح الخالدي- دار القلم- دمشق- الطبعة الثانية- 1994م.
49) سيد قطب والأصولية الإسلامية، تأليف: شريف يونس- الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة الأولى- 2014م.
50) سيد قطب وثورة يوليو، تأليف: حلمي النمنم- ميريت للنشر والمعلومات- القاهرة- 1999م.

51) الشاطئ المجهول، تأليف: سيد قطب، جمعه ووثقه: عبد الباقي محمد حسين- دار الوفاء- الطبعة الأولى- 1989م.

52) الشريعة، تأليف: أبو بكر محمد بن الحسين الآجري- دار الوطن- السعودية- الطبعة الثانية- 1999م.

53) الشريعة الإلهية لا القوانين الإلهية، تأليف: د. عمر سليمان الأشقر- دار النفائس- عمان- الطبعة الثالثة- 1991م.

54) شعب الإيمان، تأليف: أحمد بن الحسين البيهقي- تحقيق: مختار الندوي- مكتبة الرشد- الطبعة الأولى- 2003م.

55) صالح سرية وأعوانه في مصر، اقتحام الكلية الفنية العسكرية سنة 1974 أول محاولة انقلابية لإقامة الدولة الإسلامية في العصر الحديث، تأليف: عادل أمين- الطبعة الأولى- القاهرة- 1997م.

56) صحيح ابن حبان، تأليف: ابن حبان البستي- تحقيق: شعيب الأرناءوط- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الأولى- 1988م.

57) صحيح البخاري، تأليف: محمد بن إسماعيل البخاري- تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر- دار طوق النجاة- الطبعة الأولى- 1422م.

58) صحيح مسلم، تأليف: مسلم بن الحجاج القشيري- تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي- دار إحياء الكتب العربية- الطبعة الأولى- 1991م.

59) طبقات الحنابلة، تأليف: محمد بن محمد بن أبي يعلى- تحقيق: محمد حامد الفقي- مطبعة السنة المحمدية- القاهرة.

60) عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ محمد عبده، تأليف: عباس محمود العقاد- وزارة الثقافة والإرشاد- مصر .

61) عجائب الآثار في التراجم والأخبار= تاريخ الجبرتي، تأليف: عبد الرحمن حسن الجبرتي، تحقيق: أ. د: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم- دار الكتب المصرية بالقاهرة- 1998م.

62) العدالة الاجتماعية، تأليف: سيد قطب- دار الشروق- الطبعة الثالثة عشرة- 1993م.
63) عمدة الكاتب، تأليف: أبو جعفر النحاس- تحقيق: بسام عبد الوهاب- دار ابن حزم- الطبعة الأولى- 2004.
64) الفردوس بمأثور الخطاب، تأليف: شيرويه بن شهردار الديلمي- دار الكتب العلمية- الطبعة الأولى- 1986م.
65) الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية، تأليف: محمد الغزالي- نهضة مصر - الطبعة الأولى- 2005م.
66) في صالون العقاد كانت لنا أيام، تأليف: أنيس منصور- دار الشروق- الطبعة الثالثة- 1993م.
67) في ظلال القرآن، تأليف: سيد قطب- دار الشروق - بيروت- القاهرة-الطبعة السابعة عشر- 1412هـ.
68) في نهر الحياة، تأليف: د: عبد العزيز كامل- المكتب المصري الحديث- القاهرة- الطبعة الأولى- 2006م.
69) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، تأليف: د. عبد الحليم محمود- دار المعارف- الطبعة الثالثة- 1999م.
70) كتب وشخصيات، تأليف: سيد قطب- دار الشروق- الطبعة الثالثة- 1983م.
71) الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تأليف: نجم الدين محمد بن محمد الغزي- وضع حواشيه: خليل المنصور- دار الكتب العلمية- الطبعة الأولى- 1997م.
72) لسان العرب، تأليف: محمد بن مكرم بن منظور- دار صادر- بيروت- الطبعة الثالثة- 1414هـ.
73) لماذا أعدموني، تأليف: سيد قطب- الشركة السعودية للأبحاث والتسويق.
74) لمحات من تاريخ الإمام محمود خطَّاب السُّبكي، تأليف: د. عبد العظيم حامد خطاب- دار الاعتصام- 1986م.

75) مائتا عام على حملة المنافقين الفرنسيس، تأليف: د. زينب عبد العزيز، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005م.
76) مؤامرات الإخوان من واقع ملفات CIA وملفات MI6- منتهى السرية، تأليف: توحيد مجدي- دار أخبار اليوم- القاهرة- 2014م.
77) المحرر الوجيز، تأليف: أبو محمد عبد الحق بن عطية- تحقيق: عبد السلام عبد الشافي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- 1422هـ.
78) محمد الخضر حسين وفقه السياسة في الإسلام، تأليف: د. محمد الجوادي- دار الكلمة- المنصورة- الطبعة الأولى- 2014م.
79) مذكرات الدعوة والداعية، تأليف: حسن البنا- دار الكلمة- الطبعة الثانية- 2011م.
80) مذكرات مصطفى النحاس. ربع قرن من السياسة في مصر، دراسة وتحقيق: أحمد عز الدين- العصور الجديدة- 2000م.
81) المستدرك على الصحيحين، تأليف: أبو عبد الله الحاكم النيسابوري- دار المعرفة- بيروت.
82) المستصفى في علم الأصول، تأليف: أبو حامد الغزالي- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الأولى- 1997م.
83) مسجد في ميونخ، تأليف: إين جونسون- ترجمه: أحمد جمال أبو الليل- مكتبة سطور للنشر- القاهرة- 2015م.
84) مسند الإمام أحمد، تأليف: أحمد بن حنبل الشيباني- مؤسسة قرطبة- القاهرة- الطبعة الثانية- 1979م.
85) مسند أبي يعلى الموصلي- تحقيق: سليم أسد- دار الثقافة العربية- دمشق- الطبعة الثانية- 1992م.
86) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تأليف: مالك بن نبي- ترجمة د. بسام بركة ود. أحمد شعبو- دار الفكر- سوريا- 2002م.
87) معالم في الطريق، تأليف: سيد قطب- دار الشروق- الطبعة السادسة- 1979م.

88) معجم المؤلفين، تأليف: عمر رضا كحَّالة- دار القلم- بيروت- الطبعة الرابعة عشر- 1988م.

89) المعجم الوسيط، تأليف: إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار- مجمع اللغة العربية- 2004م.

90) المقتضب، تأليف: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد- تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- مصر- 1994م.

91) مقدمة الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، د: محمد عمارة- مكتبة الأسرة- مصر- 2010م.

92) من قتل الشيخ الذهبي «قراءة في الوثائق السريَّة لتنظيم التكفير والهجرة» تأليف: مختار نوح- مركز المحروسة للنَّشر- القاهرة- الطَّبعة الأولى- 2008م.

93) من معالم الحق، تأليف: محمد الغزالي- دار الحديث- 1963م.

94) منهاج السنة النبوية، تأليف: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية- تحقيق: محمد رشاد سالم- منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود- الطبعة الأولى- 1986م.

95) موطأ مالك، تأليف: الإمام مالك بن أنس، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي- مؤسسة زايد- الإمارات العربية المتحدة- الطبعة الأولى- 2004م.

96) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تأليف: المحسن بن علي بن محمد التنوخي، تحقيق: عبود الشالجي- دار صادر- الطبعة الثانية- بيروت- 1995م.

97) النقط فوق الحروف، تأليف: أحمد عادل كمال- الزهراء للإعلام العربي- الطبعة الأولى- 1989م.

98) الوضع القانوني المعاصر بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، تأليف: طارق البشري- دار الشروق- الطبعة الأولى- 1996م.

***

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

خْرُجُ مِنْ آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ
لُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ
ذِئَابٍ ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَبِي يَغْتَرُّونَ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ ؟ فَبِي
حَلَفْتُ ، لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانَ"

النهار للنشر والتوزيع